

دكتور سعد جلال

الطفولة والعمر الحقيقة

دار الفكر العربي

0137993



Bibliotheca Alexandrina

الطفولة والمرأفة

تأليف

دكتور سعد جلال

طبعة ثانية

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

نتناول في هذا الكتاب مراحل النمو أو علم النفس الارتقائي . وعلينا - لكي نفهم السلوك - أن نلم بالمرحلة التي يمر بها الكائن الحي - وخاصة الإنسان - في نموه منذ اللحظة التي يتم فيها تلقيح البويضة حتى البلوغ ، إذ يمر الكائن الحي بمرحلة متتالية تكاد تكون ثابتة في النوع الواحد .

وعملية النمو عملية مستمرة فيها حياة ، والحياة عملية مستمرة . ومعنى الحياة هو النشاط . وتتغير الحياة بالتغير الذي يعترى طاقة النشاط عند الإنسان ، إذ تكون طاقة النشاط الحيوية قوية في الطفولة ، ثم تتمد تدريجياً بتقدم العمر . وطاقة النمو في داخل الرحم تجعل الجنين في الوزن يزيد بمعدل ثمانية آلاف مرة ، بينما يكون معدل الزيادة بنسبة عشرين مرة فقط بعد الولادة ، ويقول في ذلك أحد العلماء « إن حياة الإنسان كالساعة يبدأ ملؤها في داخل الرحم ، ثم يبدأ تفريغها من بعد الولادة » .

والطفل كائن حي ينمو ويتطور من خلية واحدة إلى خلايا معقدة تتكون منها أعضاؤه وأجزاء جسمه المختلفة التي تقوم بوظائف معقدة . وتستمر خلايا الإنسان في التجدد خلال مرحلة طويلة من مراحل حياته لاستمرار الحياة وتجديد النشاط . حتى إذا ما خمدت الحياة بالموت فإن الحياة تستمر في الأجيال المتلاحقة .

والنمو عملية تكاملية حيوية : فسلوك الكائن الحي وظيفته اعدة عوامل معقدة ، غير أنها تتكامل ويتم بعضها بعضاً في عملية متناسقة ، فإذا ما صادف هذا الكائن موقفاً من المواقف فإنه يواجهه ككل ، ويسلك ككل رغم تعقد تكوينه وتعدد العوامل التي تتحكم في سلوكه .

ويضم هذا الكتاب ثلاثة عشر فصلا :

وعلم النفس الارتقائي كما يتبين من الفصل الأول نما في أحضان علم النفس العام وحركة القياس العقلي وظل يتطور حتى أصبح ميدانا من ميادين علم النفس المستقلة وتخصصا قائما بذاته . وغنى عن الذكر أن الرصيد الأكبر لأى أمة من الثروة البشرية هو في أطفالها وشبابها . فلا عرو إذا رأينا أن الدول ترصد أموالا طائلة لتقديم الخدمات للطفل حتى قبل أن يظهر إلى الوجود وهو في بطن أمه .

وفي هذا الكتاب نتناول بعد العرض التاريخي ونماذج الدراسات في الطفولة في الفصل الأول النظريات المختلفة للدراسة النمو في الفصل الثاني ونتناول في الفصلين الثالث والرابع الوراثة والبيئة كأساسين للنمو والدراسات الهامة التى تبين أثر كل منهما ، ونتناول في الفصل الخامس التكوينات الجسمية ، وفي الفصل السادس النضج ثم التنشئة الاجتماعية في الفصل السابع ، ومصادر الضبط الاجتماعى في الفصل الثامن . وعالجنا مظاهر التنشئة الاجتماعية في الفصل التاسع مع إعطاء الأهمية لفكرة المرء عن نفسه . ونتناول الفصول العاشر والحادى عشر والثاني عشر كل مرحلة من مراحل النمو وخصائصها . ونختتم الكتاب بفصل عن الاتجاهات والبحوث المعاصرة في ميدان النمو في الفصل الثالث عشر .

والكتاب بالموضوعات التى يحويها يمثل مقرأ كاملا في مادة الطفولة والمراهقة التى تدرس في كليات الآداب ومعاهد وكليات إعداد المعلمين ومعاهد وكليات الخدمة الاجتماعية ، ويمتاز بما يضمنه من عشرات البحوث فإنه يوجه طلاب الدراسات العليا إلى المجالات التى نحن في حاجة لمعالجتها بالبحوث العلمية .

أسأل الله التوفيق وللإسلام والعروبة العزة والسودد . ، ، ،

دكتور سعد جلال

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول

تطور البحث في مراحل النمو	...
مقدمة	...
تطور البحث	...
نماذج للدراسات في الطفولة والنمو	...
١ - دراسة بيلى Bale طويلة ارتقائية من العشرينات	...
٢ - دراسة جوزفين هليارد .. التعلم والنضج بين أطفال ما قبل المدرسة	١٨ ...
٣ - دراسة اليسون دافيز وروبرت هافجهرست - الطبقة الاجتماعية واللون والاختلافات في تنشئة الأطفال	١٩ ...
٤ - بحث كيرت ليفين ولييت وهوايت - أنماط السلوك العدواني في مناحات إجتماعية مصطنعة تجريبيا	٢١ ...
٥ - بحث هارثشورن وماى - التربية الخلقية	٢٤ ...
نظريات النمو	٢٦ ...

الفصل الثانى

١ - اتجاه جيزل	٢٧ ...
٢ - اتجاه فرويد	٢٨ ...
٣ - اتجاه ايكسون	٣٢ ...
٤ - اتجاه سوليفان	٣٤ ...

الصفحة

٣٨	٥ - اتجاه هافجهرست
٤٠	٦ - اتجاه بياجيه
٤٢	٧ - الاتجاه في هذا الكتاب

الفصل الثالث

٤٦	: أسس السلوك - ١ - الوراثة والبيئة
٤٦	السلوك : وظيفته ومواعمته مع البيئة
٤٧	علم الحياة والوراثة
٤٩	ماذا نقصد بالوراثة
٥٥	الجينات
٥٦	الجنس والوراثة
٥٧	التوازن الجيني
٥٨	نماذج للوراثة
٦٠	نماذج لتحلل في الوراثة
٦١	ماذا نقصد بالبيئة
٦٢	نماذج لأثر البيئة

الفصل الرابع

٦٥	: الوراثة والبيئة والظواهر النفسية
٦٦	دراسات في الوراثة والسلوك
٦٦	١ - دراسة ترايون
٦٧	٢ - دراسة هول
٦٧	٣ - دراسات هول وكلاين
٧٠	٤ - دراسات رودهرست ١٩٦٠
٧٠	الدراسات على الإنسان
٧٠	١ - دراسة النسل في الأسر
٧١	٢ - دراسة بيومال - فريمان - هولزنجير
٧٤	٣ - دراسة بيركس
٧٦	٤ - دراسة فينوكس وجيز وجبر

الصفحة

دراسات في البيئة والسلوك	٧٧
٦ - حالات الأطفال المتوحشين	٧٧
٢ - دراسة شمدت	٨٠
٣ - دراسات فريمان - هولزنجير - متشل	٨١
ملخص	٨٤

الفصل الخامس : ١ - أسس السلوك . ٢ - التكوينات الجسمية ٨٥

١ - الأعضاء الحسية المستقبلية	٨٦
٢ - الجهاز العصبي	٨٧
(أ) الجهاز الحسي الشوكي	٨٧
معنا المؤخرة	٨٨
العضان الصدغيان	٨٩
العضان الجداريان	٩٠
قصا الجبهة	٩٠
الهيپوثالاماس	٩٢
(ب) الجهاز العصبي الأوتونومي	٩٣
٣ - العضلات والغدد	٩٦
الغدة النخامية	٩٧
الغدة الدرقية وجاراتها	٩٨
الغدة الكلوية أو فوق الكلوية	١٠٠
الغدة التناسلية	١٠١
الغدة اليتيموسية	١٠٢
الغدة الصنوبرية	١٠٢
جزر لانجرهانز بالبكرياس	١٠٢
نظريات في علاقة التكوين الجسماني بالسلوك	١٠٣
١ - الفراسة	١٠٣
٢ - توثرات الرأس	١٠٣

المحتوى

٣	نظرية الأخلاق	١٠٣
٤	نظرية كرتشمير	١٠٤
٥	نظرية شلدون	١٠٥
	دراسة ليفي في الأمومة والتكوينات الجسدية	١٠٧
	ملخص	١١٠

الفصل السادس : أسس السلوك - ٣ - النضج

١١١	ماذا يقصد بالنضج	١١١
١١٤	النضج ومراحله قبل الولادة	١١٤
١١٦	دراسات نضج الأجنة	١١٦
١١٦	(أ) دراسات على الحيوان	١١٦
١١٨	(ب) دراسات على الأجنة البشرية	١١٨
١٢٠	العلاقة بين النضج والمران	١٢٠
١٢٢	ملخص	١٢٢

الفصل السابع

١٢٣	أسس السلوك - ٤ - التنشئة الاجتماعية	١٢٣
١٢٣	لماذا يقصد بالتنشئة الاجتماعية	١٢٣
١٢٥	النظم الأولية أو طرق التنشئة الاجتماعية	١٢٥
١٢٦	١ الرضاعة	١٢٦
١٢٨	٢ النمطام	١٢٨
١٣١	٣ ضبط المعادة والنظافة	١٣١
١٣٢	٤ الحياء والتربية الجنسية	١٣٢
١٣٣	٥ الاستقلال	١٣٣
١٣٤	مظاهر التنشئة الاجتماعية	١٣٤
١٣٦	أثر اللين أو التسويرة في التنشئة الاجتماعية	١٣٦
١٤٠	ملخص	١٤٠

الصفحة

الفصل الثامن : مصادر الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية ١٤١

١ - الأسرة ١٤١

الحب وراحة الالتصاق ١٤٣

العوامل التي تؤثر في معاملة الأسرة للطفل ١٤٩

٢ - جماعة القراء ١٥٢

٣ - الأفكار الدينية والدين ١٥٦

ملخص ١٥٩

الفصل التاسع مظاهر التنشئة الاجتماعية ١٦٠

العمليات النفسية في التنشئة الاجتماعية ١٦٠

١ - التقليد ١٦٠

٢ - التقمص ١٦١

٣ - التطبيع ١٦٣

مظاهر التنشئة الاجتماعية ١٦٤

١ - تحديد الدور ١٦٤

٢ - المركز ١٦٥

٣ - فكوة المرء عن نفسه ١٦٦

نظريات الذات ١٧٣

٤ - القيم الخلقية ١٧٩

ملخص ١٨١

الفصل العاشر : النمو في الخمس سنوات الأولى ١٨٢

النمو الحركي ١٨٣

دراسة شيرلي ١٨٣

النمو العقلي ١٨٦

دراسة بايلي ١٨٨

النمو الاجتماعي ١٨٨

الصفحة

١٨٩	النمو اللغوي
١٩١	كيف يتعلم الطفل الكلام
١٩٣	٢ - الابتسام
١٩٣	٣ - اللعب
١٩٦	٤ - التفاعل مع أفراد الأسرة
١٩٨	النمو الانفعالي
٢٠١	خصائص سن الخامسة عند جيزل
٢٠٢	خصائص هذه المرحلة عند جنكينز
٢٠٢	العمليات الارتقائية في هذه المرحلة هافجهرست
٢٠٣	ملخص
٢٠٤	الفصل الحادى عشر نمو الطفولة المتأخرة من سن ٦ إلى سن ١٢
٢٠٤	صعوبات دراسة هذه المرحلة
٢٠٥	مميزات الفترة من سن ٦ إلى ٨ سنوات
٢٠٥	النمو الجسماني
٢٠٦	النمو العقلي
٢٠٩	النمو الاجتماعي
٢١٣	خصائص هذه المرحلة عند جيزل
٢١٥	خصائصها عند جنكينز
٢١٦	مميزات الفترة من سن ٩ إلى ١٢ سنة
٢١٦	النمو الجسماني
٢١٧	النمو العقلي
٢٢٠	مشاكل هذه المرحلة كما يراها المعلمون
٢٢٣	خصائص هذه المرحلة عند جيزل
٢٢٥	خصائص هذه المرحلة عند جنكينز
٢٢٧	العمليات الارتقائية في هذه المرحلة هافجهرست
٢٢٨	ملخص

الصفحة

٢٢٩	المراهقة والشباب	الفصل الثاني عشر
٢٢٩	تحديد فترتي المراهقة والشباب	
٢٣٣	التغيرات الجسدية	
٢٣٥	النمو العقلي	
٢٣٧	مشكلات مرحلة الشباب	
٢٥٦	خصائص هذه المرحلة عند جيزل	
٢٥٩	خصائص هذه المرحلة عند جيكنز	
٢٥٩	العمليات الارتقائية في هذه المرحلة	
٢٦١	دراسة مشروع الموهبة (جون فلانجان)	
٢٦٣	تقرير كولمان	
٢٦٥	ملخص	
٢٦٦	الفصل الثالث عشر : اتجاهات وبحوث حديثة	
٢٦٦	١ - الجنين في داخل الرحم	
٢٧٠	٢ - الطفل في المهد	
٢٧٥	٣ - سن ما قبل المدرسة	
٢٨٢	٤ - مرحلة الطفولة من سن ٦ إلى سن ١٢	
٢٨٦	٥ - المراهقة والشباب	

الفصل الأول

تطور البحث في مراحل النمو

مقدمة :

في سنة ١٩٦٠ صدر كتاب تحت إشراف بول هنري ماسن^(١) Mussen بناء على توصية من لجنة نمو الطفل في أكاديمية العلوم الوطنية ليكون مرجعا لطرق البحث التي تستخدم في دراسة الطفولة والنمو ، ويحلل اللجنة الأمل في أن يساعد هذا المرجع في زيادة معدل البحوث الامبريقية في ميدان النمو . والارتقاء والارتفاع بمستواها . وقدم ماسن الكتاب بقوله : « إن موضوع نمو الطفل وحقيقته ومبادئه ونظرياته في صميمها تجتذب انتباه كثير من الناس » . وتؤثر تأثيرا بالغاً في أعمال كثير من المتخصصين من الباحثين والممارسين في العلوم البيولوجية والسلوكية » .

ولا شك أن دراسة الطفل ونموه لها أهميتها « فنحن نقول إن الطفل أبو الرجل إذ تتعدد الدراسات التي تبين الآثار الوخيمة لسوء التربية المنزلية ، وحرمان الطفل من حنان أبويه ، إما لبند الآباء لأبنائهم ، أو وقوع الأطفال ضحايا لزواج تعيس ينتهي بالطلاق ، أو فقدان أحد الوالدين أو كليهما ، أو تخلي الوالدين أو أحدهما عن رعاية الأبناء وأثر كل هذا على الصحة العقلية للطفل .

وإذا كانت الصحة العقلية تأتي في المقام الأول للإفادة من دراسة النمو ، فإن التربية في المدرسة تليها في الأهمية كما يذكر بالدوين Baldwin (١٩٦٠) والذي يعنى على المدرسة تحببها في برامجها وضعها أمام القوى الضاغطة ممن

1 - Paul Henry Mussen (ed). Handbook of Research Methods in child Development. New Delhi : First Wiley Eastern Edition, 1970

تنقصهم الدراية وإجبارها على تدريس أمور معينة . وتختلفها وتباطؤها في
اللاحق بركب التقدم مما يوضح مدى حاجتها للمعلومات الإمرائية من بحوث
علمية دقيقة ، إذ يتحتم القيام ببحوث عن مشكلات التعلم والنمو اللغوي
والتفكير وغيرها من المشكلات وتمحيص نتائج هذه البحوث ثم تطبيقها
على مشكلات عملية في التربية .

وتغرس بذور الاتجاهات السياسية والاجتماعية في الطفولة . ولعل
الفشل في تحقيق الديمقراطية في كثير من بلداننا أن أجيالا وأجيالا من أطفالنا لم
يرعرعوا في مناخ ديمقراطي سواء في المنزل أو في المدرسة أو في المجتمع
الأكبر . والديمقراطية ليست مجرد ممارسات شكلية ومؤسسات وتصويت
واقراع فهي أساساً فلسفة تؤمن بالفرد وقيمه ، وهي اتجاه مكتسب من
التفاعل مع آخرين يؤمنون بقيمتهم وحياتهم .

وإذا كنا نهيء أبناءنا لعصر التكنولوجيا وغزو الفضاء فهم في حاجة
إلى اكتساب القدرة على التفكير العلمي والتصدى للمشكلات بروح جماعية
واسهامات البحوث في النمو في هذا الاتجاه لها أهميتها .

ويعطى بالدوين أهمية للبحوث في الطفولة والنمو لما تسهم به من ناحية
تطور النظرية السلوكية التي يجب أن تكون قادرة على احتواء سلوك الطفل
وتسمح بوصف الاختلافات بين الأفراد في مختلف الأعمار . هذا بالإضافة
إلى أن الأطفال رغم تعقد البشرية . فيهم براءة واندفاع يسمحان بالغوص
في الأعماق لدراسة النواحي الوجدانية ، وأخيراً وليس آخراً نمو الطفل
ذاته وارتقاؤه .

تطور البحث :

١ - يرتبط الاهتمام بالطفل «نموه ارتباطاً وثيقاً بتاريخ التربية . فقد كان
لفلاسفة اليونان آراؤهم في هذا المضمار . كما أن رجال الدين في العصور
الوسطى وفلاسفتها كانت لهم أيضاً آراؤهم التي كان لها أثرها في التربية
ونظم التعليم التي سادت في تلك العصور . ومن كان لهم أثرهم في عصور

تالية الفيلسوف جون لوك الذى نادى بأن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء . وهو على استعداد لتقبل أى معلومات تعطى له . ولما كان الهدف من التربية عنده هو إنكار الذات وتهذيبها وضبط النفس فقد نادى بأساليب التربية لتنمية ملكات الطفل فيما هو معروف بالتربية الشكلية .

وفى القرن الثامن عشر الذى يمثل العصر الرومانتيكى يقدم لاروسو كتابه إميل الذى يرسم فيه خطة لتعليم الطفل إميل بالعودة إلى الطبيعة فيما هو معروف بالتربية الطبيعية لأن الطبيعة خيرة ما لم تمتد إليها يد البشر . لأن الطفل يولد خيرا والمجتمع هو الذى يجرده من فضيلته بما يفرضه عليه من قيود .

ولازال للفلاسفة وجهات نظر عن طبيعة الطفل وطرق التربية إلا أن نظرياتهم تقوم على الحدس ولم تخضع للدراسة الامبريقية التى تدعمها .

٢ - وتبدأ السمات العلمية بكتابات قام بها أفراد سجلوا لأبنائهم بالملاحظة مظاهر نموهم وساوكهم . ولكن هذه التراجى للأسف تمت على أفراد ليس من الضرورى أنهم يمثلون غيرهم من الأطفال ، كما أن الملاحظات المسجلة لم تتم طبقاً لمنهج علمى ، وسائرة للمثل الشعبى أن القرد غزال فى عين أمه ، فلا نستطيع الجزم بأن السجلات التى حفظها الآباء لأبنائهم تخلو من التحيز .

٣ - يذكر بالدوين Baldwin (١٩٦٠) : جاء وقت كانت دراسة نمو الطفل تحتل اهتماماً لدى كل صاحب نظرية من أمثال ستانلى هول العالم الأمريكى وماكدوجل العالم الإنجليزى صاحب نظرية الغرثز ، وكوفكا Koffka الألمانى من اتباع نظرية الجشتالت وواطسن الأمريكى الذى أسهم فى إرساء قواعد المدرسة السلوكية .

إلا أن هؤلاء العلماء أصحاب النظريات لم يمدون بمعلومات أمبريقية تدعم نظرياتهم عن نمو الطفل . إذ كانت معظم الدراسات الأمبريقية فى باكورتها

دراسات وصفية « وعن حالات فردية على الرغم من أن ستانلى هول Hall قام بدراسة مسحية مستخدماً استبياناً لمعرفة محتويات عقول الأطفال .

٤ - وتمثل دراسة ألفرد بينيه Binet مع زميله سيمون ١٩٠٣ فى فرنسا تحولاً كبيراً نحو دراسة أمبريقية متقدمة . إذ عهد إليهما وزير التعليم فى فرنسا مهمة اكتشاف الأطفال الذين لن يستفيدوا من التعليم فى المدارس العامة لتخلفهم . فقاموا بوضع الاختبار الذى عرف فيما بعد باختبار ستانفورد بينيه والذى خضع للتعديل عدة مرات حتى تبنته جامعة ستانفورد . والذى يعتبر أول اختبار فردى لقياس الذكاء . وسوف نتناوله بشرح تفصيلى فى باب قياس الفروق الفردية . وكان هذا الاختبار نقطة الانطلاق لتطور سريع لحركة القياس العقلى . ويتفق العلماء على أن حركة القياس العقلى احتوت لفترة علم النفس الارتقاى الذى كان جزءاً منها ، ولازال القياس العقلى حتى يومنا هذا يمثل جزءاً هاماً لخدمة علم النفس الارتقاى . ولا يفوتنا أن نذكر أن حركة القياس بدأت بقياس القدرة العقلية العامة (الذكاء) ثم تطورت واتسعت لتغطى مجال القدرات والاستعدادات والميول الشخصية ولكل الأعمار .

٥ - وتمثل الحقبة ما بين سنتى ١٩٢٠ - ١٩٣٠ قيام عدد من الهيئات فى أمريكا بدراسات عن النمو . فى جامعة ييل . قدم لنا جيرل متوسطات للنمو . وفى جامعة هارفارد أتت الدراسات بأن أى طفل يختلف عن غيره . وأن الطفل الفرد يجب أن يقاس نموه بالنسبة لنفسه لا بتطبيق معايير من هم فى سنه عليه وإن كانت قد أمدتنا بمعايير للنمو الجسمانى . وفى جامعة كاليفورنيا بدأت بايل دراسة طولية لنمو الذكاء . وسوف نتناول هذه الدراسة فيما بعد وقد تمت مثل هذه الدراسات فى أماكن أخرى وضربنا مثلاً بهذه الأماكن على سبيل التمثيل لا الحصر . وكانت هذه الدراسات تهدف إلى بيان نمو أطفال أفراد خلال مدة زمنية امتدت فى بعضها إلى أكثر من خمس عشرة سنة فى النواحي الجسمانية والفسولوجية والنفسية .

وتمثل الدراسات الطولية زيادة ارتباط علم النفس الارتقاى بعلم الحياة

و انفصاله عن مجرى تطور النظرية النفسية التي أخذت في الثلاثينات تركز حول مشكلة التعلم . وهكذا لم يعد علم النفس الارتقائي يمثل جزءا في المجرى الرئيسي للبحوث في علم النفس .

٦ - ومع ذلك فقد تأثر ميدان علم النفس الارتقائي بالجدل الذي تفجر في باكورة الثلاثينات في مجال علم النفس حول أهمية الوراثة على البيئة ، وأهمية التنشيط على التعلم مما سوف نتناوله تفصيلا في الفصل التالي .

٧ - وإذا كانت حركة القياس التي بدأها بينيه تمثل نقطة تحول في تاريخ علم النفس الارتقائي فإن زيادة الاهتمام بخبرات الطفولة وأثرها في تكوين شخصيته في البلوغ يمثل نقطة تحول أخرى ، إذ اتجهت البحوث بالكامل إلى بيان أثر الرضاعة والقطام والتدريب على ضبط المعدة وغيرها من العمليات الأولية بالإضافة إلى أثر البيت المهتم والحرمان الأموي ، أي الانجاهات الوالدية وما إلى ذلك مما سوف نتناوله في فصل التنشئة الاجتماعية بعد الفصل التالي عن الوراثة . وينبع هذا الاهتمام أساسا من الاهتمام بنظرية فرويد والسعى وراء تحقيق فروض منها . بل إن النظرية النفسية التي كانت تهتم آنذاك بالتجول حول التعلم أخذت في ترجمة مفاهيم فرويد في ضوء نظرية التعلم على أيدي علماء التعلم من أمثال ميلر ودولارد وهلجارد ومورر في الخمسينات .

٨ - ومن أهم المؤثرات التي أثرت في تطور ميدان علم نفس الطفل الدراسات المستفيضة التي بدأت منذ العشرينات والتي قام بها العالم السويسري بياجيه والتي لازالت مستمرة حتى الآن وبعد وفاة هذا العالم - عن نمو التفكير وتكوين المفاهيم والحاسة الخلقية عند الأطفال وما إلى ذلك .

٩ - ومن المؤثرات الهامة أيضا الدراسات التي قام بها علماء الثقافة الاجتماعية من أمثال روث بندكت ومرجريت ميد وكاردنر ومن إليهم عن تربية الأطفال في المجتمعات البدائية وأسلوب الدراسة الذي اتبعوه وهو الملاحظة بالمشاركة بعد أن عاشوا فترات في هذه المجتمعات للقيام بدراساتهم .

١٠ - ويمثل العصر الحالي عودة التكامل بين علم النفس الارتقائي وميدان علم النفس ، حقا استطاع علماء علم النفس الارتقائي ابتداع أدوات ومشكلات ليست مألوفة في ميدان علم النفس العام ، كما أن هناك في الميدان العام فيضا من المعرفة ومن أدوات البحث ربما لا تكون مألوفة لأولئك العلماء الذي حصروا أنفسهم في ميدان علم النفس الارتقائي . وعلى الباحث في ميدان الطفولة أن يتخطى الحواجز . وفي ميدان علم النفس العام من الوسائل والأدوات ما قد يفيد بعد التطوير للاستخدام مع الأطفال . ولما كان الأطفال يمثلون مصدرا طيبا للدراسة والتجريب فإن كثيراً من أصحاب النظريات العامة حاولوا بيان صحة الفروض المستمدة من نظريات على عينات من الأطفال ، وغدت هذه الدراسات ميدان علم النفس الارتقائي رغم أن أصحاب هذه النظريات لا يعتبرون من علماء النفس الارتقائي . فكبرت ليفين صاحب نظرية المجال (سوف يتم شرحها في فصل الدافعية) وهي نظرية لها تطبيقاتها في مجال علم النفس الاجتماعي والدافعية ، أمدنا بمضامين تمثل جزءا هاما في دراسة النمو الاجتماعي للأطفال .

١١ - والارتباط الوثيق بين علم النفس الارتقائي والتربية ساعد رجال التربية على الاستفادة من دراسات النمو سواء في تقسيم السلم التعليمي إلى مراحل أو تصميم المناهج والبرامج أو طرق التدريس والوسائل المعينة ، كما أن الدراسات التي قام بها رجال التربية قد ساعدت على إثراء علم النفس الارتقائي والنمو بالمشكلات التي تتطلب الدراسة .

١٢ - وتمثل الدراسات في إطار النظرية الاجتماعية تأثيرا معاصرا آخر مع علم النفس الارتقائي ، إذ أن هناك استحالة لدراسة الطفل بمعزل عن محيط أسرته والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ، وحيه السكني ، ومدرسته وطموحاته وتطلعاته ، وطموحات الأسرة بالنسبة له واتجاهاتها وميولها .

ستخلص مما سبق :

١ - أن هناك ثلاث نظريات هامة كانت مصدرا للفروض التي حاول العلماء في ميدان علم النفس الارتقاء تحقيقها في بحوثهم ، هي نظرية التحليل النفسي بتشعباتها لفرويد ، ونظرية التعلم السلوكية ، ونظريات يياجية . ولكن هذه النظريات وحدها لا تكفي لإلقاء كل الأعضاء على ميدان ينمو ويتوسع . كما كانت هناك دراسات أمبريقية عفوية لا تستند إلى أي نظرية .

٢ - رغم أن علم النفس الارتقاء نما في أحضان النظرية النفسية العامة بدءا من حركة القياس إلا أنه انفصل عنها مع استمرار التلاحم : والاتجاه الحالي ينمو نحو اتخاذ المجرى العام لعلم النفس مع الاحتفاظ بالخصائص المتميزة .

٣ - إن الدراسات لخصائص النمو سواء في النواحي الجسمية أو الفسيولوجية أو العقلية كانت تتجه إلى الحصول على متوسطات أو معايير لمقارنة الطفل بمن في مثل سنه وتسمى هذه الدراسات بالدراسات الناموسية Nomothetic : أو أنها كانت تتخذ الطفل الفرد دراسة تتبعية للوصول إلى رسم بياني يبين نمو معتمدة على دراسة الحالة فيما يسمى بالدراسات الأكلينيكية الفردية Idiographic

٤ - كانت الدراسات طويلة تتبعية تتبع طفلا أو مجموعة من الأطفال لفترة زمنية معينة . أو دراسات مستعرضة على قطاع من قطاعات الأطفال في سن واحدة للتوصل إلى معايير أو متوسطات .

نماذج لدراسات في الطفولة والنمو

١ - دراسة بيلي Baley

دراسة طولية « ارتقائية » من العشرينات

نموذج للدراسات المرتبطة بحركة القياس

كانت العينة في هذه الدراسة تتكون من ٦١ طفلاً ممن ولدوا في اثنتين من مستشفيات مدنية بركلي في كاليفورنيا « منهم ٣١ ولداً و ٣٠ بنتاً . وتعتبر العينة عينة مختلطة من حيث المستوى الاجتماعي والاقتصادي أى تعتبر عينة ممثلة لأطفال أبناء المدينة . وقد استمرت دراسة أربعين من هؤلاء الأطفال لمدة ١٨ سنة منذ عام ١٩٢٨ .

وقد تمت ملاحظة الأطفال واختبارهم في الخمسة عشر شهراً الأولى بنظام القياس الذى وضعته بايلى لهذه الفترة من العمل « ثم اختبارهم بعد ذلك باختبار كاليفورنيا للذكاء للأطفال من سن ١١ إلى ٦ سنوات كل ثلاثة أشهر، وذلك خلال فترة ثلاث سنوات « ثم كل ستة أشهر خلال فترة خمس سنوات أخرى .

ولما كان عمر الأطفال ست سنوات ، تم اختبارهم باختبارات أخرى للذكاء كاختبار بينيه وترمان ماكنار ووكسلر بلفيو ولا شك أن طول مدة هذه الدراسة وتوالى اختبار الأطفال باختبارات مختلفة تبين لنا مدى القدرة على قياس ذكاء الأطفال في سن مبكرة ، ومدى الاعتماد على نتائج هذه المقاييس للتنبؤ بقدراتهم في المستقبل .

وتبين معاملات الارتباط بين ذكاء الأطفال في السنة الأولى وبين ذكائهم في سن ست سنوات « إنه لا يوجد ارتباط بينهما أو أن الارتباط ضعيف جداً لا يذكر . ومعنى هذا أن الاختبارات التى تحاول قياس القدرات العقلية للأطفال في السنة الأولى تقيس شيئاً آخر غير هذه القدرة ،

- ١٧ -

ولا يمكن الاعتماد عليها • في التنبؤ بالنمو العقلي للطفل • وليس لهذه الاختبارات من قيمة إلا في سن سنتين ، إذ كان معامل الارتباط بين ذكاء الأطفال في سن سنتين وذكائهم في سن ست سنوات ٥٩، وزادت قيمة هذا المعامل بين ذكائهم في سن خمس سنوات والذكاء في سن ست سنوات إلى ٨٥ .

ولما كان المستوى التعليمي للآباء معروفا في هذه الدراسة • فقد تمت محاولة لإيجاد معامل الارتباط بين المستوى التعليمي للآباء وذكاء الأطفال في مراحل النمو المختلفة • فوجد أن الارتباط بدأ يظهر في الأطفال في سن سنتين أى أن معرفة مستوى الآباء التعليمي تؤدي بنا إلى معرفة ذكاء الأطفال بدرجة أكبر من مقاييس الذكاء .



٢ - دراسة جوزفين هيلجارد

التعلم والتضج بين أطفال ما قبل المدرسة

نموذج للدراسات للجدل بين آثار التضج والتعلم - في الثلاثينات

تمت مقارنة مجموعتين من أطفال الحضانة تضم كل منهما عشرة أطفال :
تمت الموازنة بين الأطفال في السن والعمر العقلي والجنس ومستوى القدرة
في ثلاث عمليات هي زر الأزر ، واستخدام المقص لقص الورق ، وصعود
السلم . دربت إحدى المجموعتين لمدة ١٢ أسبوعاً على هذه العمليات مع اختيار
أفرادها كل أسبوعين . أما المجموعة الثانية والتي سميت بالمجموعة الضابطة
فقد تركت على حالها دون تدريب خاص ثم تم اختبارها في نهاية فترة
الاثنى عشر أسبوعاً ، ثم أعطيت فترة تدريب مركز على هذه العمليات لمدة
أربعة أيام . ثم تم اختبار المجموعتين بعد ذلك . لم يكن هناك فرق يذكر
بين أفراد المجموعتين في بداية التجربة في هذه العمليات الثلاث . ثم تفوق
أفراد المجموعة التي دربت لمدة اثني عشر أسبوعاً وفاقّت المجموعة الثانية
نتيجة للتدريب . إلا أنه بعد أن حصل أفراد المجموعة الثانية على التدريب
لفترة أسبوع واحد كان هذا التدريب كافياً للوصول بأفراد المجموعتين إلى
نفس المستوى . وقد فسر ارتفاع مستوى المجموعة الثانية ليعاوى مستوى
المجموعة الأولى بعد هذا التدريب القصير إلى أن هناك عوامل غير التدريب
أسهمت في نمو المهارات في هذه العمليات الثلاث يمكن أن تعزى جزئياً إلى
التضج وجزئياً إلى التدريب على عمليات كان لها صلة بهذه العمليات .
وتدل منحنيات التعلم للجماعة الأولى أن تحسن أدائها قد زاد في الأيام الأخيرة
من فترة التدريب بما يتفق وارتفاع مستوى أداء المجموعة الأخرى في نفس
هذه الفترة لبلوغ مرحلة من التضج ساعدت على ذلك .

٣ - دراسة أليسون دافيز وروبرت هالفجهرست

الطبقة الاجتماعية واللون والاختلافات في تنشئة الأطفال

دراسة ممارسات التدريب على النظم الأولية

وأثرها في تكوين الشخصية - في الأربعينات

تمت هذه الدراسة على أربعة جماعات تضم كل جماعة ٥٠ من الأمهات من سكان مدينة شيكاغو ومن حي واحد ، جماعتان تمثلان الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا من البيض ، وجماعتان تمثلان الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا من السود . تمت مقابلة هؤلاء الأمهات بواسطة خمس سيدات دربن على فن المقابلة للمء استمارة استبار . وكانت استمارة الاستبار تنقسم إلى ثلاثة أقسام . يتناول القسم الأول تدريب الأم الفعلى للطفل أو الأطفال على عمليات مثل الرضاعة والقطام وضبط المعدة وما إليها . مع بيان الفروق الفردية بين الأطفال في الشخصية . ويتناول القسم الثانى توقعات الأم بالنسبة لأولادها من ناحية المهنة والتعليم وتحمل المسئوليات مع بيان عادات الطفل فى الأكل والنوم والرويح والعلاقة بالأب وما إلى ذلك . ويتناول القسم الثالث بيانات عن المستوى الاجتماعى الاقتصادى للأب والأم والأمرة .

وقد بينت هذه الدراسة بوضوح كما يرى الباحثان :

١ - أنه توجد اختلافات جوهرية فى ممارسات تربية الأطفال بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا من سكان المدينة من البيض ، كما توجد نفس الاختلافات بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا من السود .

٢ - أن الآباء من الطبقة المتوسطة أكثر تشددا من نظرائهم فى الطبقة الدنيا فى تدريبهم للأطفال على عادات تناول الطعام وعادات النظافة . ويتوقعون من أبنائهم تحمل المسئولية مبكرا بخلاف الآباء من الطبقة الدنيا .

- ٢٠ -

وينحصر آباء الطبقة المتوسطة أبناءهم لنظام قاس يتولد عنه كثير من الإحباط وكبت اندفاعاتهم .

٣ - بالإضافة إلى الاختلافات بين الطبقات توجد اختلافات بين البيض والسود في عادات التربية « إذ أن السود أكثر سماحة من البيض في الرضاعة والنفطام ولكنهم أكثر حزماً من البيض في التدريب على ضبط المعدة .

٤ - بالتالى توجد اختلافات ثقافية في تكوين الشخصية في الطبقة المتوسطة إذا ما قورنت بالطبقة الدنيا بصرف النظر عن اللون ، مما يعزى إلى أساليب التربية الأولى والتدريب . ولنفس السبب توجد فروق بين أبناء نفس الطبقة من البيض والسود ولكنها بدرجة أقل .

٥ - بالإضافة إلى الاختلافات الثقافية بين أبناء الطبقات والتي تعزى إلى أساليب التدريب الأولى توجد اختلافات فردية في الشخصية بين الأبناء في الأسرة الواحدة . وربما تعزى هذه الاختلافات إلى اختلافات فسيولوجية وإلى اختلافات في الروابط العاطفية بأفراد الأسرة الآخرين .

* * *

٤ - بحث كيرت ليفين وليت وهوايت

أنماط السلوك العدواني في مناخات اجتماعية مصطنعة تجريبيا

من النظرية النفسية العامة - في الأربعينات

في إحدى التجارب قام ليبيت Lippitt بتنظيم ناديين يضم كل منهما صبيانا في سن العاشرة يقومون بعمل أقنعة . أحد الناديين يدار بطريقة أو توتقراطية سلطوية بينما يدار الثاني بطريقة ديمقراطية . وفي التجربة الثانية قام هوايت وليبيت بتكوين أربعة أندية لاولاد في سن العاشرة يقومون بعمل أقنعة ، والرسم والنحت وعمل نماذج للطائرات : الخ وتم تكوين الأندية على أساس التطوع ، وكانت كل مجموعة تحت قيادة شخص بالغ . مجموعة منها تدار بطريقة ديمقراطية ، والثانية يحكمها قائد أو توتقراطي ، أما الثالثة فقيادتها تديرها بطريقة « ترك الحبل على الغارب » وكانت القيادات في قيادة المجموعات كل ستة أسابيع خلال خمسة أشهر . وكانت المجموعات متساوية من ناحية تقويم المعلمين للتلميذ في المستوى الاجتماعي الاقتصادي ، والنزعة للقيادة والعلاقات المتبادلة والمستوى العقلي والجسماني ، وغير ذلك من خصائص الشخصية - كان هناك أحد عشر اجتماعا لكل مجموعة . تقابل أفراد المجموعة الديمقراطية أولا وانخرطوا في نشاطات اختاروها بأنفسهم ، ولإيجاد الموازنة بين المجموعات في العمليات التي تقوم بها - طلب من المجموعة التي تحكم أوتوتقراطيا لما اجتمعت بعد يومين القيام بالنشاطات التي اختارتها المجموعة الديمقراطية - أما مجموعة « الحبل على الغارب » فقد تركت ببساطة لحالها .

ففي المجموعة الأوتوتقراطية كانت السياسة يقررها القائد ، والعمل الذي يجب أن يتم في الخطوة التالية . ومن الذي سوف يقوم به - كان يعلن في حينه حتى يكون الأفراد في حالة نموذ من ناحية الخطوات التي تلي

الخطوة موضع التنفيذ « وكان القائد على وجه العموم متعاليا ، لاشخصيا . وغير ودود - أما في المجموعة الديمقراطية فكانت كل السياسات يتم اتخاذ القرارات فيها عن طريق المناقشة الجماعية بتشجيع ومساعدة القائد . أما جماعة « الحبل على الغارب » فكانت لها الحرية المطلقة وقراراتها فردية « وضعت تحت يدها المواد الأولية « ولكن القائد كان واضحا في أنه لن يعطيهم أى معلومات إلا إذا طلبوا منه ذلك « ولم يساهم في أى من نشاطاتهم - على أنه يجب ملاحظة أنه حتى في الجماعة الأوتوقراطية كانت المشاركة تطوعية وأن المناخ كان وديا .

لما تقدمت الاجتماعات تكون في الجماعة الأوتوقراطية نمط من السيطرة العدوانية كل منهم نحو الآخر - بينما أصبحت العلاقة مع القائد علاقة خضوع أو فيها إلحاح لجذب انتباهه « وكانت هذه الجماعة أكثر عداء وعدوانية من الجماعة الديمقراطية « وظهرت ظاهرة كبش الفداء « وتوقف اثنان من أعضاء الجماعة عن الحضور ، وقد بينت المقابلات مع الأولاد الاتفاق التام على الكراهية النسبية للقائد الأوتوقراطي بصرف النظر عن من هو « وكان النمط العدوانى أكبر في جماعة الحبل على الغارب « ولعل أحسن شرح لذلك أن المناخ الأكثر حرية أتاح الفرصة لظهور العدوان ، فالعدوان في الجماعة الأوتوقراطية كان يتم ضبطه وكبحه أثناء وجود القائد - غير أنه كان يظهر في غيابها كما يبدو أن الأوتوقراطية تشجع عدم الاهتمام - كما ظهر أن الجماعة الأوتوقراطية تميل إلى الغباء والخضوع والسكبت - فكان هناك قليل من المزاح والابتسام وحرية الحركة والمبادرة بالجديد .

هذا بينما أعطى المناخ الديمقراطي اقتراحات بناءة « والعلاقات العادية بين الأفراد ومزيدا من الفردية « ومزيدا من التعاون « وكانت الجماعة أكثر تلقائية وودا ، وكانت تتميز بشعور « نحن « بدلا من الشعور « بأنا » الذى كان سائدا في الجماعة الأوتوقراطية .

وما يجب ملاحظته أن الولدين اللذين تحولوا من جماعة إلى أخرى أخذوا خصائص الجماعة التي تحولوا إليها . بالمثل لما تغيرت قيادة الجماعة من

أوتوقراطية إلى ديمقراطية بدأ الاعضاء فى اتخاذ أنماط السلوك الذى يميز الجماعة الديمقراطية - ومع ذلك فقد انقضى بعض الوقت لأفراد الجماعة الأوتوقراطية للتكيف للإجراءات الديمقراطية - مما يوحى بأنه إذا فرضت الأوتوقراطية على الفرد فعليه أن يتعلم الديمقراطية - ويبدو من غير المنطقى أن الأفراد إذا تركوا وشأنهم سيقومون طبيعياً بتكوين جماعات ديمقراطية - فالفوضى أو نمط التنظيم البدائى عن طريق السيطرة الأوتوقراطية للأقلية هى التى من الممكن أن تظهر .

لقد تمت هذه الدراسة خارج الفصل الدراسى ولكن لها ولا شك مضامينها التربوية - لقد اتجه ليفين إلى القول بأن المناخ الاجتماعى الذى يعيش فيه الطفل له أهمية الهواء الذى يتنفسه ، وأن الجماعة التى ينتمى إليها لها معناها الهام والكامل بالنسبة لأمنه .

(من كتاب مولى - علم البحث التربوى - ١٩٧٠ - ٤٥٥ - ٤٥٧)



٥ - بحث هارثورن وماى

التربية الخلقية

من ميدان التربية - فى العشرينات

تم هذا البحث فى سنة ١٩٢٤ تحت إشراف رابطة التربية الدينية كمحاولة لتقييم نتائج التربية الخلقية . وكان لهذه الدراسة هدفان أساسيان هما دراسة عدم الأمانة وتكوين أدوات لتقدير المعلومات الخلقية والاتجاهات الخلقية وجاءت نتائج هذه الدراسة فى ثلاث مجلدات . وهذه أولى الدراسات وقد صممت فى البداية لتستمر ثلاث سنوات ولكنها امتدت إلى خمس سنوات واستغرق إعداد الأدوات والإجراءات معظم الوقت .

لقد شملت الدراسة عشرة آلاف ١٠,٠٠٠ طالب من المدارس الخاصة والعامة من كل المستويات الاقتصادية الاجتماعية ، ومختلف الثقافات ، والخلقية العرقية ، والعقلية ، والمهنية ، والمناطق المحلية ، والديانات . وضع التلاميذ فى مواقف شبيهة بالمواقف العملية حيث يستطيعون الغش والكذب ، والسرقة - أو الامتناع عن ذلك . وحاول الباحثون أن تكون هذه المواقف طبيعية لتقدير الذات وتكاملها طبقا لمعايير الجماعة وتوقعاتها - أى للملاحظة الفرد فى ظروف التفاعل الاجتماعى العادية - تم ابتداء ٢٩ موقفا من مواقف الاختبار كثير منها كانت فيه عبقرية لقياس مدى وجود الغش وكان من هذه المواقف ٢٢ موقفا من مواقف الفصل المألوفة - أربعة منها كانت أثناء ممارسة الألعاب الرياضية واثنان فى حفلات ، وواحد منها فى المنزل - كما كان هناك اختباران للكذب واختباران للسرقة . وكان الأمل معقودا على أن هذه الاختبارات سوف تمد بصورة كاملة نسيجا عن نزعة الافراد نحو عدم الأمانة .

بينت الدراسة أن التلاميذ ينخرطون فى كمية كبيرة من السواك الذى

يعتبر غير أمين — كما وجد أن عدم الأمانة سمة ترتبط بسمات شخصية أخرى مثل الغباء ، والتخلف ، وعدم الثبات الانفعالي ، والتحصيل المدرسي المنخفض ، وانخفاض المستوى الثقافي والاقتصادي الاجتماعي ، وبعض التجمعات القومية والعرقية والدينية ، ومشكلات الشغب في المدرسة ، والتردد على دور الخيالة ، وقد بينت الدراسة أن عدم الأمانة سمة تنتشر بين أفراد الأسرة كالذكاء ، وهذا لا يعنى سوى أنه عملية مصاحبة دون ارجاع ذلك إلى الوراثة أو أى عوامل سببية ، ويبدو أن عدم الأمانة سمة تتأثر بالتفاعل الاجتماعي فأحسن مؤشر لعدم الأمانة هو سلوك الأصدقاء والرفقاء لا سلوك البالغين . وعدم الأمانة في المدرسة يكون في أقل مستوى حين تكون الروح المعنوية عالية مع تواجد النية الطيبة والتعاون بين التلاميذ والمعلم . ولم تبين الانتائية للدارس الأحد الكنسية أو العضوية في الكشافة أو الأندية الدينية أى تأثير على أخلاق التلاميذ بل تبين في الواقع أن هؤلاء التلاميذ أقل في أمانتهم عن متوسط مجموعة البحث .

كما تبين عدم اطراد التلاميذ في سلوكهم — فقد يكون التلميذ آمينا في ظرف من الظروف غير أمين في ظروف أخرى — فالأمانة ليست سمة عامة ولكنها موقفية ، ولعل الواقع الخارجى السائد الذى يؤدى إلى الغش هو الرغبة في إعطاء أداء جيد في الفصل ، وعلى هذا الأساس يبدو أن أحسن طريقة لضبط السلوك اجتماعيا هو التحكم في الموقف بطريقة تجعل الغش أمرا غير ضرورى .



الفصل الثاني

نظريات النمو

في استعراضنا للتطور التاريخي لعلم النفس الارتقائي في الفصل السابع ذكرنا أن من أهم نقط التحول في مسيرة هذا العلم حركة القياس العقلي التي بدأها بينيه بمحاولته قياس الذكاء . وأن علم النفس الارتقائي ارتقى في أحضان حركة القياس خلال فترة العشرينيات وتأثر بالجدل حول الوراثة والبيئة الذي تفجر في هذه الفترة فأخذ يتجه اتجاهها بيولوجيا . فن الطبيعي أن تتولد عن ذلك نظرية بيولوجية قياسية للنمو ناموسية، أي نحاول وضع متوسطات للنمو للطفل ككائن حي في معظم إن لم يكن جميع نواحي نموه ويمثل هذا الاتجاه جيزل الذي حاول أن يعطينا متوسطات للنمو لكل سنة من سنوات العمر في النواحي الجسمانية والحسية والعقلية والاجتماعية .

ثم ذكرنا أن دراسة طرق التنشئة في سنوات العمر الأول كالرضاعة والقطام . وما إليها تحتل نقطة تحول آخر . وإن الدراسات في هذا المجال تأثرت بنظرية فرويد في التحليل النفسي . بالتالي فإن نظرية فرويد عن مراحل النمو الجنسي نظرية لها مكانها .

ولما ظهر الاتجاه المتأثر بالنواحي الثقافية أمدنا الفرويديون المحدثون وخاصة أريكسون وهاري ستاك سوليفان بهذا الاتجاه ولعل أهم النظريات التي تغطي أهمية الثقافة هي نظرية هاري ستاك سوليفان .

ومن كانت لهم إسهاماتهم في تطور علم النفس الارتقائي جان يياجيه الذي يسود اتجاهه حاليا في دراسة النواحي المعرفية . لذا كان من الضروري أن تأخذ نظريته مكانها . وسوف نستعرض كلا من هذه النظريات باختصار

في هذا الفصل ، على أن نشير للخصائص التي أعطاها البعض لكل مرحلة عند الحديث عن كل مرحلة من المراحل .

١ - اتجاه جيزل :

إن اتجاهه كما ذكرنا اتجاه بيولوجي ارتقائي إذ يؤكد مفهوم النضج : يعتبر جيزل وزملاؤه أصحاب الفضل في تحديد خصائص النمو وأنماطه بتسلسل سنة بعد سنة . غير أنه على الرغم من أن كتابات جيزل تفيض بالتحذيرات من عدم التعميم ، وضرورة مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال في أى سن ، هناك نزعة بين كثير من الآباء وكثير من المعلمين إلى اعتبار هذه الخصائص ثابتة وحتمية ومن الضروري أن تنطبق على كل طفل . والواقع أن أسلوب تحديد خصائص لكل سنة من سنوات العمر كثيراً ما أسىء فهمه ، إذ ينزع الآباء إلى البحث عن العمر الذي يتفق وعمر أبنائهم ثم يقومون بتطبيق الخصائص المبينة عليهم واحدة واحدة متناسين أن جيزل وزملاءه بتحديدهم لهذه الخصائص يهدفون إلى إعطاء إطار عام لمستويات النمو واتجاهاته وأشكاله لأن كل طفل كما يقرر جيزل ينمو طبقاً لنمطه الفريد الخاص به بشكل يختلف في قليل أو كثير عن النمط العام ، وهذا النمط العام هو الذى يعطيه لنا جيزل .

فليس من الضروري على سبيل المثال أن يكون كل أطفال سن الخامسة سواء في الخصائص المحددة لهذه السن الذى يبينه لنا جيزل . ويجب ألا ننسى أن دراسة جيزل تنتقد في أن العينة فيها كانت صغيرة نسبياً وتلور حول أبناء أسر من أدل الحضر مرتفعة نسبياً في مستواها الاقتصادي والاجتماعي كانت مهمة بالدراسة ، وهذا يؤكد ضرورة الحذر من تعميم نتائجه . فالعينة في دراسته إذن لا تمثل كل القطاعات في أمريكا . وإذا كان الحلز ضرورياً في تعميم نتائجه على الأطفال الأمريكيين ، فالأولى أن نكون أكثر حذراً في تعميم هذه النتائج على أطفالنا في المجتمع المصرى . ومن المؤسف أنه لم تتم أى دراسة مماثلة في مصر حتى يمكن أن نستند إلى نتائجها في التطبيق على أبنائنا .

وليس لنا تحت هذه الظروف إلا الاعتماد على هذه الدراسات التي تمت في ثقافات مختلفة مع اتخاذ الحذر اللازم .

٢ - اتجاه فرويد :

إن نظرية فرويد في أصلها لم تكن نظرية في علم النفس الارتقائي . إذ أنها نشأت في أحضان الطب وبالذات في مجال الطب العقلي وسوف نوفي هذه النظرية حقها من الشرح في باب الدوافع ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن نظريته أثرت في كثير من مجالات العلوم السلوكية . وأبرزت لنا أهمية الخبرات الأولى في حياة الطفل بتفاعله مع أفراد الأسرة والمجتمع الخارجي . وأن كثيراً من خبرات الطفولة تقمع وتنسى أى تكبت ولكنها تظل تعمل فيما يسمى باللاشعور وتؤثر في السلوك . وأن أهم ما يكبته الطفل هو الدوافع الجنسية والدوافع العدوانية ، وأهم مراحل النمو الجنسي عنده هي كما يلي :

١ - المرحلة القمية المبكرة : ومركز اللذة في هذه المرحلة هو الفم . فالفم هو سبيل الطفل لإشباع حاجاته واتصاله بالعالم الخارجي . وتشبه حالة الطفل بعد الرضاعة والشبع منها والاسترخاء الذي يليها ، حالة الاسترخاء التي تلي الانتهاء من العملية الجنسية عند البالغ . ويشعر الطفل - في خبراته القمية - بالاتحاد مع ما يتلعه عن طريق الفم .

وبما يلاحظ أن كثيراً من مظاهرها يستمر حتى النضج والبلوغ . فالحبلة واللعق والتدخين وشرب الخمر وتعاطي المخدرات والنهم ، كلها مظاهر فيها لذة عن طريق الفم ، وفيها استمرار لمظاهر المرحلة القمية . ويمكننا أن نلخص مصادر اللذة في هذه المرحلة في عملية الابتلاع والشعور بلذة الاتحاد مع ما يتلعه الفرد .

٢ - المرحلة القمية الثانية : وتظهر هذه المرحلة حوالى نهاية العام الأول من ميلاد الطفل حين يبدأ ظهور الأسنان . وتبدأ معها اللذة في العض والقضم وقيام الطفل بدور إيجابي غير سلبي . فبعد أن كان نشاطه

قاصراً على عمليات المص والادخال والبلع ، أصبح يجد لذة إضافية في قضم الأشياء والتعلق بأسنانه بئد الأم وجذبه . وتصاحب ذلك إيجابية في الحواس الأخرى إذ يصبح الطفل قادراً الآن على أن يحدد بصره ، ويدبر عينيه متتبعا الأجسام المتحركة . كما أن حاسة السمع أصبحت تميز الأصوات وتحدد مكانها وتتبعها بعد أن كانت وظيفتها سلبية قاصرة على الاستقبال وأصبح في مقدور الطفل أن يد ذراعه وأن يقبض بيده على الأشياء .

ومن عادات السلوك الاجتماعي التي تغرس بذورها في هذه المرحلة السرعة في الأخذ والرغبة في الحصول على الأشياء .

فإذا ما مرت بالطفل في هذه المرحلة والمرحلة السابقة خبرات غير سارة كالحرمان من العطف والحنان — مما قد يؤثر في عدم انتظام عملية الرضاعة والشعور بالطمأنينة الذي يصاحبها فإنه قد تثبت مع الطفل أنماط من السلوك تتميز بها هذه المرحلة ويصعب عليه الانتقال إلى المرحلة التي تليها .

٣ - المرحلة الشرجية : ومنطقة اللذة في هذه المرحلة هي فتحة المستقيم . ولا شك أن اللذة الشرجية كانت موجودة في المرحلتين السابقتين ، إلا أنه يبدو أنه في السنة الثانية من العمر تحتل هذه المنطقة مكانا خاصا متميزا في مراحل اللذة عند الطفل ، وتكون هذه اللذة مصاحبة لعملية الإخراج « التبرز » وتكون قاصرة على مجرد الإخراج أوائل هذه المرحلة من النمو ، وفي أواخرها يؤدي نضح عضلات هذا الجزء من الجسم إلى عمليتين يشعر بهما الطفل بالقدرة على السيطرة هما : الإخراج والقبض . وهما تؤديان إلى بدء شعور الطفل بذاته .

ولما كانت بعض الثقافات — مثل ثقافتنا والثقافة الغربية — تعطي أهمية خاصة لهذه العملية « ويشتمل تدريب الطفل على التحكم فيها في سن مبكرة » فإن الطفل يستغل أنماط السلوك المصاحبة لهذه العملية للتعامل مع الغير ، فالتبرز في أي مكان في المنزل لا يرضى عنه الوالدان ، قد يكون وسيلة

يلجأ إليها الطفل لمعاقبتها والسيطرة عليهما ، كما قد يكون الإمساك وسيلة ترى إلى هذا الهدف .

والتخلص من البراز عملية يضطر إليها الطفل « ويشعر بأنه يفقد جزءا منه أو جزءا من ذاته ، فيصحب عملية إخراجه شعور بفقدان شيء عزيز » وقد يجمد هذا النمط من السلوك في الفرد فيعز عليه العطاء ، ويلد له الأخذ ، فيتحول إلى شخص أناني في معاملاته مع الآخرين ، وقد يصبح بخيلا يقصر همه كله في الاستحواز على المال .

وإذا ما كان تمرين الطفل على تنظيم عملية التبرز مشوبا بالقسوة والتعنت فقد ينكص إلى المرحلة القمية السابقة « فيمص أصابعه ويقضم أطرافه » أو تكثر مطالبه ورغباته « أو قد يتحول إلى معتد فيستغل البراز كذخيرة يعتد بها على الوالدين وإرادتهما ليثبت ذاتيته :

٤ - المرحلة القضيبية : يصبح القضيب مركزا للذة حوالى السنة الثالثة من العمر لكل من الصبي والبنت . فالبظر في البنت محل محل القضيب في الولد . والذة الجنسية في هذه المرحلة للذة ذاتية ، أى أنها لا تتجه إلى شيء أو فرد في الخارج « فيجد الطفل لذته في العادة السرية « أى اجتلاب اللذة باللعب في أعضائه التناسلية .

ويرى فرويد أن عقدة أوديب - ويقصد بها ميل الطفل جنسيا نحو أمه ورغبة في التخلص من أبيه ، وميل الفتاة إلى أبيها جنسيا ورغبة في التخلص من الأم - تكون في هذه المرحلة . ويصاحبها في الذكر الخوف من فقدان العضو التناسلي فيما يسمى بعقدة الخصى « ويقابلها في الفتاة الغيرة من الولد لوجود قضيب له حرمت منه .

ويرى فرويد أن عقدة أوديب تنتهى بفقدان الطفل اهتمامه بعضوه التناسلي لعدم نضجه ، ولعدم فهمه فهما كافيا لدلالته ، وخوفه من الخصى « وخوفه من أفكاره نحو موت الأب ، بينما تطول هذه المرحلة مع الفتاة لأنها ليست مهددة بفقدان عضو لا تملكه أصلا كالولد .

ويتميز سلوك الذكر في هذه المرحلة بطابع الاختراق . فالقضيب يرمز إلى القوة وإلى القدرة على عملية الاختراق والولوج . فالطفل يجري محترقا الهواء ، وقد يصرخ ويصيح ويستعمل الألفاظ النابية وكلها مما يخرق الأذن ، كما يحترق مجاهل الأماكن التي تدعو إلى حب الاستطلاع .

٥ - مرحلة الكمون : وتستمر هذه المرحلة ما بين السادسة والسابعة حتى المراهقة ، وفيها يحمى الدافع الجنسي وتقل حدته ، فلا يظهر في سلوك الطفل ما قد يميز الدافع الجنسي عنده . ويميل الأولاد إلى اللعب والاختلاط بأولاد من جنسهم ، كما تميل البنات إلى اللعب مع بنات مثلهن . والميل الجنسي لأفراد من نفس الجنس مما تتميز به هذه المرحلة .

٦ - مرحلة المراهقة والنضج الجنسي : يؤدي التغير الجسماني ونشاط الغدد التناسلية في سن المراهقة إلى أن يبحث المراهق عن هدف يشبع حاجته الجنسية . ويرى فرويد أن التعلق بالوالدين واتجاه الدافع الجنسي نحوهما يظهر ثانية في بداية هذه المرحلة ، إلا أن هذا لا يستمر طويلا بحكم التقاليد التي تحول دون إشباع هذا الدافع مع المحارم . فيستمر المراهق في سعيه حتى يجد من يشبع هذه الحاجة معه . وهو عادة فرد من الجنس الآخر ، اللهم إلا إذا كان هناك جمود على مرحلة من المراحل السابقة ، أو خبرات غير سارة تؤدي إلى النكوص إلى إحدى هذه المراحل . ويتخذ الشاب في هذه المرحلة طريقه نحو الرجولة ، كما تتخذ الفتاة طريقها نحو الأنوثة الكاملة مدركة لأهمية عضوها التناسلي في عملية الإخصاب والإنتاج .

وقد انتقدت هذه النظرية في أنها تعزو التطور الجنسي إلى تطور بيولوجي بينما تعزى بعض هذه التطورات إلى أثر الثقافة ، كما أنه أعطى معنى جنسيا لكل تطور بيولوجي علما بأن بعض العوامل البيولوجية مسع ضرورتها كعناصر عامة في النمو فليس من الضروري أن يكون لها معنى جنسي .

٣ - اتجاه أريكسون :

وإن كان الأساس في هذا الاتجاه فرويديا إلا أنه يعطى الأهمية للعامل التقافى . ويمثل هذا الاتجاه مراحل النمو في عملية التنشئة الاجتماعية ، إذ يحدد ثمانى مراحل لعملية النمو . ويعتبر الطفل متكيفا إذا تميز سلوكه بالنواحي الإيجابية في المرحلة التي يمر بها دون النواحي السلبية . وهذه المراحل هي :

١ - مرحلة الثقة ونقيضها عدم الثقة : فإذا تمت رعاية الطفل في بدء حياته ورضاعته بإشباعه من ثدى الأم مضيقة عليه حرارة الالتصاق بها بحب ورحمان نشأ الطفل وقد غرست فيه الثقة والشعور بالأمن . وأحسن دليل على ذلك هو استطاعة الطفل أن يتحمل غياب الأم عنه دون شعور بالقلق لثقتة أنه يتمكن من الاعتماد عليها في إشباع حاجاته . ويمكننا حينئذ أنقول بأن الطفل قد مر بهذه المرحلة بسلام . أما إذا أسيتت معاملة الطفل في السنة الأولى من حياته « فإنه ينشأ فاقدًا للشعور بالأمن وبالثقة في الناس وفي نفسه . وتقابل هذه المرحلة المرحلة الفمية عند فرويد .

٢ - مرحلة الاستقلال الذاتي ويقابله الشعور بالعار والشك : وتقابل هذه المرحلة المرحلة الشرجية عند فرويد والتي يتم فيها تدريب الطفل على ضبط المعدة . وقد رأينا اختلاف الأساليب بين المجتمعات بل بين الطبقات في المجتمع الواحد في التدريب على هذه العملية . فإذا اتسم التدريب باللين والتقبل والسباحة نشأ الطفل وهو يشعر باستقلاله الذاتي ، أما إذا أسيتت معاملته واتسم التدريب بالشدة والقسوة ينشأ الطفل يظلله دائما الشعور بالعار والحساسية لنقد المجتمع والشك في نفسه وفي قدراته .

٣ - مرحلة المبادأة في مقابل الشعور بالذنب : وتمتد هذه المرحلة من سن ٣ - ٥ تقريباً . وفيها يتعلم الطفل السليم صحيا مهارات مختلفة إذ يتعلم كيف يتعاون مع الآخرين وكيف يكون تابعا أو قائدا . إذ يبدأ الطفل في اكتشاف البيئة حوله وفي التجريب لمعرفة كيف يسيطر على أعضائه وعلى

حركاته وعلى بيئته ، فإذا تم تشجيع الطفل على ذلك نشأ ولديه صفات المبادرة والمبادرة « أما إذا حيل بينه وبين ذلك « بإشعاره دائماً بخطئه فيما يفعل نشأ وهو معذب بشعوره الدائم بالذنب .

٤ - مرحلة الاجتهاد في مقابل الشعور بالنقص : وتطابق هذه المرحلة دخول المدرسة وفيها يتعلم الطفل كيف يحصل على التقدير لأنه يستطيع الإنتاج إذا نجح في تعلم القراءة والكتابة والحساب ، أوال تشجيع والإعجاب إذا أنتج بيديه . ومدارسنا وللأسف رغم أنها أنشئت لبناء شخصية الطفل « إلا أن فشل كثير من الأطفال في الارتقاء إلى المستوى الذى تطلبه المعلمة وعقابها له يؤدي إلى قتل الاجتهاد فيه ويشعره بالنقص بين زملائه وقايل من التلاميذ من ينجو من ذلك .

٥ - مرحلة الذاتية في مقابل تشتت الدور : سوف نبين في التنيشة الاجتماعية أنها تصد الطفل لدوره كولد والبنت لدورها كبنت وفي سن المراهقة يتحقق ذات الولد بأن يكون ولدا رجلا ، ويتحقق ذات البنت بأن تكون بنتا . إذ أن على كل منهما أن يهيا ليلعب الدور المعد له في المجتمع . لقد ترك كل منهما مرحلة الطفولة خلفه ، وعلى الفرد أن يجد له مكانا الآن في مجتمعه أو يجد له هوية ومفهوما للذات يتفق وفكرة الآخرين عنه . تشتت الدور هو عدم تأكيد الفرد من هويته في المجتمع ، وبالتالي عدم معرفته للسلوك المناسب .

٦ - مرحلة التألف في مقابل العزلة : يكون الفرد في هذه المرحلة مستعداً لإيجاد التألف في علاقة حميمة مستمرة كالصداقات أو الزواج . فإذا كان الفرد قد مر بالمرحلة السابقة بسلام فإنه يصبح متأكدا من ذاتيته وهويته « إذ يستطيع أن يتجاوز ذاته في المواقف التي تتطلب ذلك دون خوف من فقدانه لذاته . فالزواج فيه أخذ وعطاء وفيه اندماج لذاتيتين (م ٣ - . الطفولة والمراهقة)

في ذات واحدة دون أن يفقد كل منهما ذاته في الآخر . ويؤدي عدم المرور بالمراحل السابقة مروراً سلساً إلى خوف دائم من فقدان الذات فيضرب المرء على نفسه العزلة .

٧- مرحلة التوالد في مقابل الجمود : ويعني التوالد تحمل مسؤولية إنجاب الأطفال والرغبة فيهم واضفاء الحب والرعاية عليهم . فالأزواج الذين ينبلون لإنجاب الأطفال تعوزهم القدرة على الخلق والإنتاج ويعني هذا فساد التنشئة في المراحل السابقة .

٨- مرحلة تكامل الأنا أو الذات في مقابل الشعور باليأس : وتعتبر هذه المرحلة قمة مراحل الحياة السابقة وتكتمل لها . ويعني التكامل هنا مجاهدة الحياة بنظرة واقعية وتقبلها فالشخص الناجح هو الذي كون فكرة عن نفسه يتقبلها ، ويكون سعيداً بدوره في الحياة وبناتجيته فيها .

١ - اتجاه سوليفان :

يعتبر هارى سناك سوليفان ممن يعطون أهمية للتفاعل الثقافي والتفاعل المتبادل أو التواصل . ومن العجيب أن اتجاهه لم يحظ بعناية هو جدير بها ، وقد يعزى هذا كما يقول أحد الكتاب إلى أنه كتب قليلاً ، وكانت لغته في مستوى في عال ، كما كانت أفكاره متشابكة ومختصرة ومضغوطة . فهو يرى أن سلوك الإنسان يهدف في النهاية إلى أمرين متداخلين هما - ١ - الإشباع الرغبة الجنسية ويدخل في ذلك النوم والمأكل والمشرب وإشباع الرغبة الجنسية على الشعور بالوحدة وكلها تتصل اتصالاً وثيقاً بتنظيم جسم الإنسان . وهو يدخل الشعور بالوحدة هنا لأن لدينا جميعاً الرغبة في التلامس وأن نكون قريين حسانياً من بعضنا البعض ، ٢ - الشعور بالأمن وهذا يتصل مباشرة بالثقافة التي يعيش الإنسان فيها . وهو يقصد بالشعور بالأمن الشعور بالرضا ، وفي حالة طيبة فكل ما يدخل تحت الحركات والأفعال والكلام والأفكار والمقتضات وما إليها إنما يتصل بالثقافة التي تشرها الإنسان ولا صلة لها بتكوينه

الجسماني أو غدهه، ومتصل اتصالا مباشرا بالشعور بالأمن . وعلمية أن يكون الانسان إنسانا هي مرادف لعملية التنشئة الاجتماعية أى أن يكون الفرد عضوا في مجتمعه :

ومراحل نمو الشخصية عنده كما يلي :

١ - طفولة المهد وتمتد حتى نضج القدرة على السلوك اللغوي :

٢ - الطفولة وتمتد حتى القدرة على معايشة القرناء .

٣ - فترة الصبا وتمتد حتى القدرة على الارتباط الحميم بأفراد من نفس الجنس .

٤ - ما قبل المراهقة وتمتد حتى نضج ديناميكيات الشهوة الجنسية .

٥ - المراهقة المبكرة حتى يتم وجود نمط للسلوك الجنسي .

٦ - من المراهقة المتأخرة حتى النضج

١ - طفولة المهد ، يعتمد الطفل بعد الولادة اعتمادا كليا على الأم ويتفاعله معها فيجد أن بعض اتجاهات الإم تضع قيودا على الدافع لديه نحو القوة . ويتكون لديه صورتان للأم هما الأم الطيبة التي تشبع حاجات لديه تبعث على الراحة ، والأم الرديئة التي تقيد من حريته وتعطيه الشعور بالقلق تمتزج الصورتان تدريجيا لتقتربا من الصورة الحقيقية للأم . وطيلة حياة المرء إذا ما صادفه الهم فإنه يسلك طبقا لما لديه من الصورتين عن الأم .

وتبدأ الذات في التبلور في نهاية طفولة المهد .

٢ - الطفولة : تبدأ في هذه المرحلة عمليات التنشئة والتدريب المقصودة

مصحوبة إما بالثواب أو بالعقاب . وينمو نسق الذات سريعا في هذه المرحلة . ففي هذه المرحلة يتم تدريب الطفل على عادات النظافة وما إليها وكل العناصر التي تشرها الآباء من ثقافتهم . ويسير التدريب جنبا إلى جنب مع تعلم اللغة .

وتظهر حاجة الطفل في هذه المرحلة إلى وجود متغيرين ، فيتعلم كيفية إثارة الانتباه ، أى يستغل ما لديه من مهارات مكتسبة لاستغلال الآخرين وتحريكهم .

ويبدأ الطفل في هذه المرحلة التعبير عن التقزز إما بالكلمات أو الأفعال نتيجة لعمليات التنشئة . فيتم الاعلاء لاندفاعات معينة . ويمثل الإعلاء في هذه المرحلة جزءاً كبيراً من التعلم الاجتماعي . وبالإعلاء يتحكم في غضبه وفيما يثير القلق عنده . وتنمو في هذه المرحلة التخييلات وأحلام اليقظة .

٣ - مرحلة الصبا : عندما تبدأ الحاجة للقرناء أى صحبة من يماثلون الطفل تبدأ هذه المرحلة . إذ يبدأ الطفل تحولاً من الرضا بيئته يتسلط فيها الكبار وتمتلئ بالناذج الشخصية كالحبوانات الأليفة والدمى إلى بيئة فيها أشخاص يماثلونه . فإذا تواجد هؤلاء القرناء أصبح لحياته معنى آخر . فإذا عز تواجدهم خلقهم في خياله ، وبوجود القرناء تظهر سمات كالتمعاون والتنافس والراضى .

ويدخل الطفل المدرسة في هذه المرحلة وهي خبرة لها مضامينها الخطيرة ، فالطفل في البداية ينظر إلى المعلم على أنه شخص غريب يمثل خطورة ويختلف عن الأبوين ، وهو شخص أخط منهما . ولصعوبة الخبرات التعليمية والخبرة . بالمعلم يحاول نبذها . ولكن زملاءه الآخرين الذين يمثلون أهمية عنده . ينصاعون ويتقبلون الأمر ، فيبدأ تدريجياً وتدرجياً جداً في تقبل الأمر الواقع ، وتتسع ذاته لتقبل هذا الواقع . وهذا تحصيل صعب .

ويتطلب التعلم المدرسي أنماطاً إشرافية على الذات لمراجعتها . فيظهر ما يسمى بالاستمع الداخلى ، أو الكاتب الناقد . وهذا الناقد الداخلى هو تنظيم فرعى لتنظيم الذات .

وترداد الحساسية لما يحدث في علاقات التواصل أو العلاقات المتبادلة . ولما كانت الحاجة للاتصاق والحاجة للمتفرجين قد ظهرت في المرحلة السابقة

فإنهما تزدادان قوة في هذه المرحلة . ويظهر في هذه المرحلة الخوف من العزلة . والخوف من العزلة له جذوره في العملية التعليمية بما يبدية المعلمون من تجاهل . وهذا سلاح يستخدمه الآباء في تعليمهم للأبناء « فينشأ الخوف من الشعور بالحطة والضعف . ويقال إن مجتمع الصبية هو المجتمع الذي ييلور الذات في شكل السمعة التي يكتسبها الطفل وتنمو هذه المرحلة نحو الجماعات .

■ - ما قبل المراهقة : تبدأ مرحلة ما قبل المراهقة ما بين الثامنة والنصف من العمر تقريبا حتى سن الثانية عشرة « وتنضج في هذه المرحلة القدرة على الحب . وفي رأى سوليفان إن الحب يتواجد إذا ما كانت الإشباعات والشعور بالأمن لدى المحبوب أو المحبوبة لها أهميتها عند الفرد تماثل أهميتها بالنسبة له . ولا يوجد الحب تحت أى ظروف أخرى تخالف ذلك رغم الاستعمالات الدارجة للحب .

ولابد من توافر عوامل معينة في البداية منها التماثل ، وتوازي الاندفاعات والنمو الجسماني . وتتهيئ مثل هذه العوامل إلى شعور الصبية بالراحة مع صبية مثلهم دون البنات . وهذا الشعور بالتوحد مع أفراد الجنس أو وضوح الهوية يميز مرحلة ما قبل المراهقة . ومن الطبيعي أن ينمو الحب بين فردين من نفس الجنس في هذه المرحلة في البداية . ويبدأ الصبي هنا في رؤية نفسه من خلال عيون الآخرين . ويبدأ تفتح الصبي على العالم الخارجي ويشعر بإنسانيته فيجد المتعة في العلاقات الاجتماعية وتمتدح إنسانيته بالانتماء إلى الآخرين والعالم أجمع الذي يحاول اكتشافه .

■ - المراهقة : تتطور الشخصية في نموها تدريجياً مرحلة بعد مرحلة ويتوقف تطور أى مرحلة من المراحل على التحقيق الناجح لتطور المرحلة التي سبقتها . كما يتوقف كذلك على توفر النضج اللازم بالمرحلة . ويتم النضج في الوقت المناسب إذا توفرت الظروف البيئية . وإذا لم تتوفر

الطبرات المناسبة لتحقيق الكفاءة للحياة مع الآخرين فى هذه المرحلة من النمو، تقل فرصة النجاح فى العلاقات الاجتماعية فى المستقبل .

فإذا مرت مرحلة المراهقة بسلام يخرج منها الفرد باحترام للذات يناسب كل موقف . وإن كان يبدو أن معظم الأفراد يمرون بهذه المرحلة بسلام . إلا أن سوليفان يؤكد أن هذا غير حقيقى . فعظم الأفراد شبوا وكبروا ولم يتجاوزوا مرحلة ما قبل المراهقة لذا أصبحوا كاريكاتورات منحطة لما كان يجب أن يكونوا عليه .

فن الأمور الضرورية للإشباع الناجح لدينامكية الشهوة العضوية هو العلاقة الحميمة . ويقصد سوليفان بالعلاقة الحميمة الشعور بالتقارب والرقعة نحو الشريك الجنسى . وهو لا يعتبر الناحية الجنسية تمثل نواة لتكوين الشخصية كما هو الحال فى نظرية فرويد .

٥ - اتجاه هافجهرست :

لقد نشأ اتجاه هافجهرست فى بيان خصائص مراحل النمو من البحوث والمناقشات التى قادها مع زملائه ، ويعتبر اتجاهه ثقافياً يقوم على واقع الثقافة الناتج من تفاعل القوى البيولوجية والجسمانية والنفسية والبيئية وظروف نمو الكائن البشرى وتطوره . ويبنى هافجهرست اتجاهه على تحديد ما يسمى بالعمليات الارتقائية . « والعمليات الارتقائية تقع فى منتصف الطريق بين الحاجة الفردية وما يتطلبه المجتمع » . ويشرحها هافجهرست كما يلى :

« إن العمليات التى يجب على الفرد أن يتعلمها - عمليات الحياة الارتقائية هى تلك الأشياء التى يتكون منها النمو السليم فى مجتمعنا . وهى تلك الأشياء التى يجب على الفرد أن يتعلمها حتى يتم الحكم عليه ، ويتم حكمه على نفسه بأنه شخص سعيد وناجح فى الحدود المعقولة . والعمليات الارتقائية عملية تنشأ فى فترة معينة من عمر الفرد يؤدى أداؤها بنجاح إلى سعادته ونجاحه فى عمليات

مقبلة ، ويؤدى الفشل فيها إلى تعاسته وعدم رضا المجتمع والصعوبة في القيام بعمليات تالية .

وتنشأ العمليات الارتقائية في معظم الأحوال من ارتباط عوامل ثلاثة تعمل معاً . هي ١ - النضج الجسماني (النمو الجسماني في الحجم وتعدد الجهاز العصبي)
٢ - الضغوط الاجتماعية (إذ يؤدى النمو إلى فرض مطالب جديدة وتوقعات من المجتمع) ، ٣ - شخصية الفرد أو ذاته (وتعرف بالقيم الشخصية ومستويات الطموح عند الفرد : إذ يؤدى تفاعل الفرد مع بيئته إلى تكوين الذات أو النفس كقوة مستقلة لها كيائها) .

وتنشأ بعض العمليات الارتقائية بشكل واضح وأساساً من واحد من العوامل الثلاثة مجتمعة حتى يصعب معرفة أى من العوامل يسهم بقدر أكبر في نشأتها .

وما يعطى للعمليات الارتقائية أهمية أنه إذا عرفنا مجموعة من هذه العمليات تميز بها مرحلة من مراحل النمو ، فإننا بذلك يمكننا أن نعرف بالضبط ما يحتاج الأطفال إلى تعلمه في هذه المرحلة ، ويمكننا بالتالى قياس مدى تحصيلهم من هذه العمليات ، كما أننا سنعرف الوقت اللازم لإجادة عملية من العمليات حين يكون الفرد مستعداً لتعلمها والوقت الذى يتطلبه المجتمع لتعلمها فيه .

والخلاصة أن العمليات الارتقائية عمليات يجب على الفرد أن يقوم بها أثناء مرحلة النمو التى يمر بها حتى تشبع حاجاته النفسية فيشعر بالرضا والسعادة وتنشأ هذه العمليات نتيجة لتفاعل حاجات الفرد وحاجات المجتمع .

ويؤخذ على هذا الاتجاه أن مجرد اكتشافنا للعمليات الارتقائية التى يجب على الفرد أن يتعلمها والوقت الذى يجب أن يتعلمها فيه لن يحل لنا كل مشاكل التعليم والتوجيه ، ولن يؤدى بنا إلى معرفة كل خصائص النمو وأسواره . كما أن العمليات التى حددها هافجهرست تتسم بالعمومية . وهى لا تمدنا إلا بهيكل عام

للتنمو وليست محددة تحديداً دقيقاً . ونكرر هنا أن العمليات الارتقائية التي حددها استمدها من النمو في ثقافة أمريكية ، وعلينا أن نحدد هنا العمليات الارتقائية التي تفرضها ثقافتنا في كل مرحلة من مراحل النمو .

٦ - اتجاه بياجيه :

نظراً لما تحتله نظرية النمو المعرفي عند بياجيه فإننا نسوق هنا المراحل التي توصل إليها نتيجة لتجاربه الطويلة .

ثبت أن الأطفال يطيلون التطلع إلى الأشياء المعقدة أكثر من تطلعهم إلى الأشياء البسيطة ، ولعل ذلك يعود إلى أن الأشياء المعقدة تحتوى على معلومات أكثر وتتطلب المزيد من التفكير . وتتطلب البيئة التي يولد فيها الطفل المزيد من التفكير . وفي خلال فترة قصيرة بعد الولادة يأخذ في اكتسابها بعينه وبأصابعه ولبسائه وبكل حاسة يستطيع استخدامها . ويكون شغله الشاغل اكتشاف بيئته بالإضافة إلى الأكل والشرب وغيرهما من الوظائف التي تبقى على حياته .

لقد قضى جان بياجيه حياته في دراسة تفاعل الأطفال مع بيئتهم وتكوينهم للمهارات التي يتناولون بها البيئة . وفي رأيه أن القدرات العقلية كلها تقوم على هذه الخبرات المبكرة وتتكون منها .

لقد بدأ بياجيه دراساته بملاحظته لأطفاله في اكتشافهم للبيئة الطبيعية « وفي التجارب التي يقومون بها ليتبينوا الطريقة التي تعمل بها الأشياء ، والأخطاء التي يرتكبونها في أحكامهم » والمنطق الذي يستخدمونه في معالجتهم للمشاكل التي قدمها .

ويطلق على أسلوب بياجيه الأسلوب الإكينيكي الوصفي لأنه توصل إلى نتائج بملاحظة وسؤال أطفال فرادى . وقد طبق هذا الأسلوب على مظاهر سلوكية كثيرة مثل الوعي بالواقع ، والتفكير ، واللغة ، وحل المشكلات ، والقيم الخاقمية « والمفاهيم الاجتماعية ، والمنطق . ويرى بياجيه أن النمو المعرفي يتم في أربع مراحل أساسية هي :

١ - المرحلة الحسية الحركية :

وتمتد هذه المرحلة من الميلاد إلى حوالى سن ١٨ شهراً . ويهتم الطفل في هذه المرحلة بتعلم الطريقة التي يوجه بها حركات جسمه ويتحكم فيها والكيفية التي يستخدم بها المادة التي تسوقها إليه حواسه فهو يتعلم مثلاً المدى الذي يتطلبه الوصول إلى لعبة معينة ، وأين لينظر ليقرر من أين يأتي الصوت الصادر خلفه .

٢ - مرحلة ما قبل القيام بعمليات :

وتمتد من سن ١٨ شهراً إلى حوالى سن السابعة . ويسمى بياجيه الجزء الأول من هذه المرحلة الذي يمتد حتى سن الرابعة تقريباً بمرحلة ما قبل تكوين المفاهيم . ويصبح الطفل خلال هذه الفترة قادراً على تناول الأحداث رمزياً إما عن طريق صور عقلية أو عن طريق بدائل لغوية . وتنمو القدرة مرتبطة بحل مشكلات صغيرة . والطفل في هذه المرحلة يتركز حول ذاته ، ويعجز عن الأخذ بوجهة نظر الآخرين ، إذ يقوم بتصنيفات تعسفية « يجد صعوبة في إصدار الأحكام المبنية على الواقع . فالمنزل بالنسبة له قد يكون منزله هو ، ولن يكون منازل الأطفال الآخرين . فهي في نظره ليست منازل .

وهكذا مما يعوق التفكير المنطقي في هذه المرحلة التمرکز حول الذات ، والعجز عن أخذ وجهة نظر الآخرين أو لعب أدوارهم ، وكذلك التركيز الجزئي أى نزعة الطفل إلى تركيز انتباهه على مظاهر إدراكية محدودة . وعدم قدرته على إدراك التحولات ، وعلى إدراك التضاد .

ويطلق على الجزء الثانى من هذه المرحلة مرحلة الإلهام أو الحدس . إذ يبدأ الطفل في هذه المرحلة في رؤية العلاقات بين الأحداث ، إذ يتعلم أن كمية الماء التي تصب من زجاجة طوبلة تظل كما هي إذا ما صببت في زجاجة مفلطحة ويبدأ في التخلص من الاعتقاد أن الشيء فيها حياة وما إلى ذلك .

٣ - مرحلة العمليات المحسوسة أو العينية :

وتمتد من سن السابعة حتى سن ١١ سنة . وتتميز بالقدرة على استخدام

الاستنتاجات لحل المشكلات المحسوسة ، إذ يتعلم التقديرات والتقريرات .
ويمكن من استخدام مفاهيم مثل الحجم الذسى والوزن والطول . ويمكن
من تصنيف الأشياء تبعاً للحجم وغيره من الخصائص ويرتبا بانتظام .

■ - القدرة على التفكير المجرد :

لا تنمو القدرة على حل المشكلات والتفكير المجرد إلا فى الفترة من سن
١١ سنة إلى ١٥ سنة . وتسمى هذه المرحلة أيضاً بمرحلة العمليات الشكلية .
إذ يتمكن الطفل فى هذه السن من تكوين المفاهيم ، وينظر إلى الأشياء
بوجهات نظر مختلفة ، ومعالجة عدة أشياء فى وقت واحد لحل المشكلات .

ولعل من أحسن ما قام به بياجيه تجاربه حول ما يسمى بالاحتفاظ .

فالقدرة على الاحتفاظ بالواقع فى جوهرها نوع من البصيرة فى
الخصائص الفيزيائية للأحجام والفراغ والوزن والكمية والشكل وما شابه .
فالأطفال القادرون على الاحتفاظ لن يضلّهم القائم بالتجربة . فإذا أراهم كرة
من الصلصال ثم فلتطحها فلن يحدّتهم ذلك من ناحية الحجم ، إذ سوف
يعرفون أن الحجم لم يمتلف . ويبدو أن الأساس فى عملية الاحتفاظ هو
اكتساب القدرة على التمييز بين المظاهر والواقع الذى يستمر ثابتاً على الرغم من
التغير المظهرى ولا تكون هذه القدرة إلا فى الفترة الثانية من المرحلة الثانية .

الاتجاه فى هذا الكتاب .

هناك تقسيم ألف العلماء فى مصر وفى الخارج اتباعه . وهو تقسيم
ناموسى أى يعتمد على إعطاء المظاهر العامة للنمو بالإشارة إلى المعايير أو
المتوسطات أو المستويات البارزة فى كل عمر ، مع تأكيد أن الكائن الحى
كائن متكامل فيه العوامل المختلفة ، وتتطلب دراسة خصائص سلوكه النظر
إليه ككل . وهذا التقسيم كما يلى .

■ - مرحلة ما قبل الولادة فى الرحم

٢ - مرحلة المهد أو مرحلة الرضاعة والقطام وتشمل السنتين الأوليين من العمر . وتتميز هذه الفترة بأنها فترة التنشئة الاجتماعية التي تتم فيها أهم عمليات التنشئة كالرضاعة والقطام وضبط المعدة ، وسوف نتكلم عن هذه العمليات في الفصل الخاص بالتنشئة الاجتماعية كما أنها الفترة التي يتعلم فيها الطفل الكلام والمشي .

٣ - مرحلة الطفولة المبكرة وتشمل السنوات من ٣ إلى ٥ وهي فترة مدارس الحضانة .

٤ - مرحلة الطفولة المتأخرة أو الطفولة الثانية وتشمل السنوات من ٦ إلى ١٢ . وتمثل مرحلة التعليم الابتدائي التي تنتهي بسنوات المراهقة .

٥ - مرحلة الشباب وتمتد من سن ١٣ أى من بداية النضج الجنسي حتى سن الحادية والعشرين .

٦ - مرحلة الرشد من سن ٢١ سنة إلى سن ٣٠ سنة .

وهذا هو التقسيم الذي سنتبعه في هذا الكتاب بعد ضم مرحلتى المهد والطفولة المبكرة في مرحلة واحدة حتى نتجنب التكرار بعد أن سبق لنا التكلم عن عمليات التنشئة الاجتماعية التي تتميز بها سنوات المهد .

ويلاحظ أن هذا التقسيم يتفق ومراحل التعليم عندنا في مصر . وسوف نتناول كل مرحلة ببيان مظاهر النمو الجسماني والعقلي والاجتماعي والانفعالي مستعينين بالبحوث المختلفة في كل مرحلة ، ثم إعطاء خصائص النمو كما تبينها اتجاهات جيزل وهافجهرست وجنكيز التي قدمناها كلما أمكن ذلك .

وبجدر بنا أن نؤكد هنا أن حياة الإنسان عبارة عن حلقات متصلة متداخلة وأن النمو عملية مستمرة . ولا تقسم الحياة إلى مراحل بهذا الشكل إلا لسهولة الدراسة . ولا شك أن كل مرحلة تتميز عن غيرها من المراحل بمظاهر خاصة في النمو يجب مراعاتها إذ لا يمكننا أن نطالب طفل الخامسة

بأن يقف وراء المحراث ، أو نطالب طفل الثالثة بتعلم الكتابة . لأن كلا منهما لم يصل بعد إلى المرحلة التي يكون فيها مهياً لذلك .

غير أن هذه المراحل قد تم الاتفاق عليها بعد الحصول على متوسطات لمظاهر النمو من دراسات طويلة تنبعت مجموعة من الأطفال منذ الولادة حتى البلوغ . أو دراسات مستعرضة كانت تدرس قطاعات من الأطفال من مختلف الأعمار المتتالية . ومما يؤخذ على مثل هذه الدراسات أنها تعطي متوسطات لمظاهر النمو في المراحل المختلفة . والمعروف أن المتوسطات تخفي الفروق بين الأطفال في سن واحدة . وليس أدل على خطأ المتوسطات مما نلاحظه من الفروق الكبيرة في فصل دراسي للتلاميذ في سن الثانية عشرة في المدارس الإعدادية . فعلى الرغم من وحدة السن بين هؤلاء التلاميذ فإننا نجد من بينهم السريع في النمو الجسماني والبطيء فيه . مما يؤدي إلى وجود عدد يفرق عن زملائه بالطول الزائد ، وعدد آخر يتميز بالقصر الملحوظ ، وكان المتوقع تبعاً للمتوسطات أن يكون الجميع في طول واحد . إذا يجب في دراستنا للمراحل النمو أن نراعي مبدأ الفروق الفردية . إذ لا يوجد طفلان يتحدان في الدرجة التي يتم بها نموها إذ يتعلم الأطفال الجلوس والمشي والكلام في أعمار متفاوتة . وما نسوقه في كتب علم النفس عن السن التي تم فيها أي من هذه العمليات إنما هو المتوسط الشائع لمعظم الأطفال لا كل طفل على حدة .

كما يجب أن نلاحظ أنه لا توجد حدود فاصلة بين المراحل المختلفة ، فلا يمكننا أن نقف عند نهاية السنة الثانية، ونقول: هنا تبدأ مرحلة جديدة لأن عمليات النمو تتم تدريجياً ، وتمهد العمليات السابقة للعمليات اللاحقة ، إذ يتوقف نمو هذه العمليات بعضها على بعض ويكون الانتقال من مرحلة إلى مرحلة انتقالاً تدريجياً يستغرق سنوات في بعض العمليات . ولا يمكن ملاحظته إلا إذا وصل التغير إلى دور يمكن ملاحظته فيه .

— ٤٥ —

وسوف تتناول خصائص كل مرحلة من مراحل النمو في الفصل السادس عشر بعد أن نستعرض في الفصول التالية أسس السلوك أى العوامل التى يقوم عليها السلوك وهى :

- ١ — الوراثة والبيئة .
- ٢ — التكوينات الجسمية .
- ٣ — النضج .
- ٤ — التنشئة الاجتماعية وعوامل الضبط فى التنشئة الاجتماعية .

* * *

الفصل الثالث

أسس السلوك

١ - الوراثة والبيئة

السلوك : وظيفته ومواعيته مع البيئة :

السلوك كما ذكرنا هو موضوع الدراسة في علم النفس . ويمثل السلوك أعلى مستوى من الاستجابات المتكاملة للكائن الحي لبيئته . وكلما ارتقى الكائن الحي في سلم التطور كلما زاد تعقده لتعقد تكوينه العضوي نفسه . لذا كان سلوك الإنسان أكثر تعقداً من سلوك غيره من الكائنات لتعقد تكوينه البيولوجي ، إذ تنتظم خلاياه لأداء أربع وظائف هي :

١ - اكتشاف التغيرات البيئية سواء داخل جسمه أو خارجه .

٢ - سريان المعلومات التي يكتشفها في جهازه العصبي .

٣ - تكامل هذه المعلومات استعداداً للاستجابة .

٤ - البدء في القيام باستجابة مناسبة .

وبوقف سلوك أى كائن حي أساساً على أعضائه الحسية وجهازه العصبي للقيام بهذه المهام .

ويختلف الحيوان عن النباتات مثلاً بأن النباتات مهيبة في حركتها ولا يوجد لها جهاز عصبي . فالزهود على سبيل المثال تقوم باستجابات سلوكية بسيطة . ففناهرة الانتحاء في الزهور استجابة تقوم بها الزهرة لتواجه الشمس المشرقة ، وتنقل الزهرة على نفسها بتلاتها إذا انخفضت درجة الحرارة ، ولكن النبات ككل لا يفعل إلا التليل . ففي البيئة التي تزداد فيها البرودة

أو الجفاف يعتمد النبات على مرونته الفسيولوجية للبقاء « أما الحيوانات فلهيها
خط ثان للدفاع ضد التغير . فهي تتحرك وتنتقل إلى مكان آخر « ويمكنها
القيام بذلك في ثوان إذا اقتضى الأمر . فكل الحيوانات لها أعضاء حسية
لاكتشاف تغيرات البيئة . وتقوم باستجابات تؤدي بها إلى تجنب الحرارة أو
البرودة أو الرطوبة أو الجفاف ، لذا تنزع إلى الإقامة في أماكن تتميز
بأنها تناسب تكوينها الفسيولوجي .

ومن الحيوانات ما يقوم بأكثر من ذلك « إذ تقوم بتغيير بيئتها لتناسب
حاجاتها . وهذا يدل على أن السلوك ما هو إلا وسيلة للملاءمة للكائن الحي
ليئته . لذا فالحيوان ليس كائنًا سلبيا تؤثر عليه العوامل الطبيعية فحسب ، بل
هو كائن حي إيجابي له يد طويل يؤثر في تطوره وفي عوامل الانتقاء التي
تؤثر عليه .

وإذا كان للسلوك أن يتطور فلا بد له أن يتنوع ، وهذا التنوع لا بد أن
ينقل من جيل إلى جيل عن طريق الانتقال الثقافي . ويعنى هذا التقليد المباشر
من الأبناء للآباء ، والاستجابة للكلمة المكتوبة ، والتعليمات التي يعطيها جيل
لآخر . ويلعب التقليد ولا شك دورا فعالا في تطور سلوك كثير من الحيوانات ؛
بيد أن الانتقال الثقافي يتطلب مستوى عاليا من الذكاء يتجاوز إمكانيات كثير
من الحيوانات . وبالتالي فإن معظم السلوك يتطور عن طريق عملية الانتقاء
الطبيعي وأثر هذه العملية على التغيرات الموروثة . فقد تبين مثلا أن الحشرات
التي تتعرض للمبيدات الحشرية يموت جزء منها ، وهناك جزء آخر تتكون لديه
المناعة ضدها ، ويرث الأبناء هذه المناعة ولا تؤثر فيها هذه المبيدات .

علم الحياة والوراثة :

ذكرنا أن علم النفس تمتد جذوره في علم الحياة ؛ وأنه علم يقع على
متصل مستمر بين علم الحياة وعلم الاجتماع . وقد اهتم علماء وظائف
الأعضاء وغيرهم من علماء الحياة بدراسة السلوك قبل أن يقبلور علم النفس

كعلم . ولما تلور علم النفس وشق طريقه بين العلوم تبين علماء النفس أن كثيراً من مشكلات علم النفس ان توجد الاجابة السايمة عليها إلا بعد دراسة واعية لعلم وظائف الأعضاء .

والأسئلة التي يحاول العلماء الذين يهتمون بدراسة الأسس البيولوجية للسلوك الإجابة عليها هي :

١ - بما أن الأفراد يختلفون فيما بينهم في السلوك فهل هناك أسس وراثية لهذا الاختلاف ؟

٢ - إذا كانت هناك أسس وراثية للاختلاف بين الأفراد في السلوك فالى أى حد تسهم الوراثة وإلى أى حد تسهم البيئة في هذه الاختلافات ؟

٣ - إذا كان للوراثة أثر في السلوك فما هي العمليات الوراثية التي تؤدي إلى التغيرات السلوكية ؟

٤ - ما هي العمليات الفسيولوجية التي تتوسط بين ما تقوم به الجينات حاملات الصفات الوراثية والسلوك الذي يقوم به الكائن الحي ككل ؟

٥ - كيف تتفاعل البيئة والوراثة لإنتاج الاختلافات بين الأفراد في السلوك ؟

ولم يكن علم الحياة قبل دارون إلا علماً يقوم على مجرد جمع الحقائق ؛ فلما جاء دارون بنظريته عن التطور (١٨٠٩ - ١٨٩٢) ألقت هذه النظرية الضوء على كثير من الحقائق التي تم جمعها في القرن الماضي والوضع الحالي للمعلومات عن كل نوع من أنواع الكائنات الحية . وخلاصة نظريته أنه استنتج من العينات التي جمعها أن هناك تسلسلاً في الكائنات الحية من أحط الكائنات ذات الخلية الواحدة إلى الإنسان الذي يتكون من العديد من الخلايا المعقدة والمتخصصة في وظائفها . وأنه كانت توجد كائنات انقرضت لعدم قدرتها على التلاؤم مع تغيرات الطبيعة ، وهناك كائنات استمرت بعد أن

اعتبرتها تغيرات لتلائم والظروف الطبيعية . وقد انتقلت هذه التغيرات من جيل إلى جيل ، ولكنه لم يعرف كيف تم أو يتم هذا الانتقال . فلما قام مندل Mendel (١٨٢٢ - ١٨٨٤) بتجاربه على زهرة البازلاء مكتشفا عمليات الوراثة في باكورة هذا القرن . بدأ الاهتمام بطبيعة الوراثة وعواملها حتى توصلنا حاليا إلى اكتمال الصورة بمعرفة الأسس الكيميائية لعملية الوراثة .

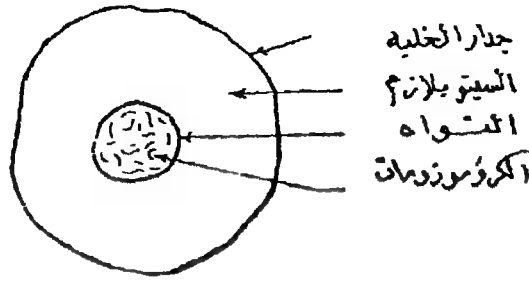
فجورج مندل استنتج من تجاربه وجود عدد كبير من الوحدات المستقلة التي يتم توارثها . وفي سنة ١٩٠٢ ظهرت الفكرة بأن هناك احتمالا في أن تكون الكروموزومات هي التي تحتوي على هذه الوحدات . وفي العشرينيات أطلق على هذه الوحدات اسم الجينات . ثم انقضت فترة عشرين سنة قبل أن يتم التعرف على المادة الخام للوراثة والتي هي عبارة عن مادة لا توجد إلا في الكروموزومات وحدها هي حامض نووي شريطي مزدوج يسمى اختصاراً حامض د . ن . أ . deoxyribonucleic acid D.N.A ويمثل هذا الحامض نسبة ٤٠٪ من تكوين الكروموزومات . وفي سنة ١٩٥٢ تم اكتشاف العناصر التي يتكون منها هذا الحامض بل صار في الإمكان تحضيره وستناول شرح الخلية وتكوينها والتفاعلات التي يتم فيها فيما يلي :

ماذا نقصد بالوراثة :

نقصد بالوراثة إذن كل ما يأخذه الفرد عن والديه عن طريق ما يسمى بالكروموزومات والجينات . فما هي الكروموزومات وما هي الجينات ؟

تم عملية التلقيح في الإنسان بتقابل الحيوان المنوي للرجل Spermatozoon مع بويضة الأنثى theovum ، فتتكون خلية ملقحة تسمى بالزيجوت zygote وهذه الخلية هي أول مراحل تكوين الجنين . والزيجوت كخلية تشبه غيرها من الخلايا في الإنسان من حيث أنها تتكون من غطاء خارجي هو الغشاء . وكتلة من مادة لزجة تسمى السيتوبلازم تسبح فيها نواة الخلية . (انظر الشكل رقم ١٠) وفي النواة تحت الميكروسكوب يمكن رؤية كائنات تشبه (م ٤ - الطفولة والمراهقة)

- ٥٠ -



(شكل ١٠) رسم الخلية

العصى أو الخيوط تسمى بالكروموزومات أو الصبغيات . وقد سميت بالصبغيات لأنه يمكن رؤيتها باستعمال أصباغ معينة . وتبدو هذه الكروموزومات تحت الميكروسكوب في شكل الحرف اللاتيني V أو في أشكال كشكل « السجق » .

وتحتوى خلية الإنسان على ٤٦ من هذه الكروموزومات نصفها مأخوذ عن الأب والنصف الآخر مأخوذ عن الأم . وتوجد منتظمة في ثلاثة وعشرين زوجاً ، كل زوج منها له نفس الشكل ونفس الوظيفة « تؤخذ واحدة في كل زوج من أحد الأبوين ، وهذا يشترك الأبوان مناصفة في نقل الصفات الوراثية .

« وكان الاعتقاد إلى وقت قريب أن عدد أزواج الكروموزومات في الإنسان هو ٢٤ . وهذا العدد يماثل الموجود في الغوريلا والشمبانزى ، ولكن في عام ١٩٥٦ أظهر تيجيو Tijio العالم الجاوى وزميله السويدى ليفان Levon أن العدد الحقيقى هو ٢٣ زوجاً . وقد عضد هذا الرأى بواسطة العالمين البريطانيين فورد Ford وهامرتون Hamerton ،^(١) .

وتتوقف العوامل الوراثية على هذه الكروموزومات ، لأنها تنقل العوامل الوراثية عن طريق ما يسمى بالجينات genes . والجينات عبارة عن

(١) دكتور عبد العظيم طنطاوى والدكتور على حامد محمد . أساسيات علم الوراثة ص ١٦ دار المعارف الطبعة الأولى ١٩٦٢ .

أكياس كياوية في منتهى الدقة تنتظم على الكروموزومات . ويصعب رؤيتها تحت الميكروسكوب مهما كانت قوته . وعدد هذه الجينات لا يحصى . وهي التى تحمل الصفات الوراثية عن كل من الأب والأم . فأى صفة متوارثة . لابد أن تعود فى أصلها إلى أصل واحد من الجينات أو مجموعة منها : وهذا ما نقصده بالوراثة .

تتكون الخلية الملقحة « الزيجوت » إذن من ٤٦ كروموزوما « نصفها من الأب والنصف الثانى من الأم منتظمة فى ثلاثة وعشرين زوجا . تأخذ هذه الخلية فى التكاثر عن طريق الانقسام . وفى حالة انقسام الخلية العادى Mitosis تنشطر الكروموزومات طوليا « وتكون الخلايا الناتجة عن هذا الانقسام متماثلة تماما فى كروموزوماتها من ناحية العدد وفى الصفات الوراثية . وهكذا يكون لكل خلايا الجسم نفس الصفات الوراثية « وتتعدد الخلايا وتتكاثر بهذا النوع من الانقسام « وتتطور بعض هذه الخلايا إلى خلايا لتكوين العينين وأخرى لتكوين الجلد أو العظم وهكذا تبعا لتأثير بيئة الخلية « فالضغط والجاذبية وكية الأوكسجين وغير ذلك من الكياويات والمجالات الكهربائية تؤثر تأثيرات مختلفة على الخلايا الفردية تبعا لموقع الخلية بالنسبة للخلايا الأخرى فتساعد على تطورها وتحديد وظيفتها .

يبين لنا هذا كيف تتكاثر الخلية الواحدة مكونة خلايا أخرى لها نفس المكونات ونفس الصفات الوراثية ونفس العدد من الكروموزومات .

غير أن هناك نوعاً آخر من الانقسام فى الخلايا يخالف النوع السابق له أثره فى تكوين الخلية الأولى الملقحة ألا وهى الزيجوت . فإذا كانت الزيجوت تحتوى على ستة وأربعين كروموزوما نصفها من الأب ونصفها من الأم ، فكيف تم هذا فى حين أن المفروض هو أن خلية الأب بها ٤٦ كروموزوما و خلية الأم بها نفس العدد ؟ إن ما يحدث هو أن نوعا من الانقسام يسمى الانقسام بالاختزال reduction division يتم حين يباغ الفرد مرحلة النضج الجنسى وينتج عنه تكوين الخلايا الجنسية « البويضة فى الأنثى ، والحيوان

المنوى في الرجل « إذ تنقسم الخلية التي تحتوى على ستة وأربعين كروموزوما إلى خليتين في كل منهما ثلاثة وعشرون فقط مكونة خلية جنسية . إذ بدلا من أن يشطر الكروموزوم طويلاً كما يحدث في النوع الأول من الانقسام تنفرق الكروموزومات المتزاوجة « ويذهب ثلاثة وعشرون منها إلى خلية ويذهب الباقي إلى خلية أخرى . وتحدد الصدفة نوع الكروموزومات التي تذهب إلى أى من الخلايا الجديدة . بل وتلعب الصدفة دورها أيضاً في الشكل الذى تتخذه الكروموزومات في اتحادها، وبهذا الشكل تتعدد الاحتمالات التي تتوزع فيها الجينات في كل خلية من الخلايا . وتتعدد بالتالى احتمالات الوراثة لاختلاف هذه الخلايا بعضها عن بعض . فإذا ما تم الإخصاب بتقابل الحيوان المنوى للأب مع بويضة الأم تكونت لدينا خلية مكتملة العدد في كروموماتها تتكاثر بطريق الانقسام العادى .

من هنا يتبين :

١ - أن أى صفة من صفات الإنسان الموروثة - مهما كانت بسيطة - تتوقف عموماً على الأثر المشترك لعدد كبير من الجينات .

٢ - أن الخلية التناسلية - سواء خلية الأب أو الأم - تتحدد فيها الجينات في أشكال وتجمعات مختلفة نتيجة لعملية الانقسام بالاختزال « والصدفة وحدها هي التي تحدد نوع الكروموزومات فيها .

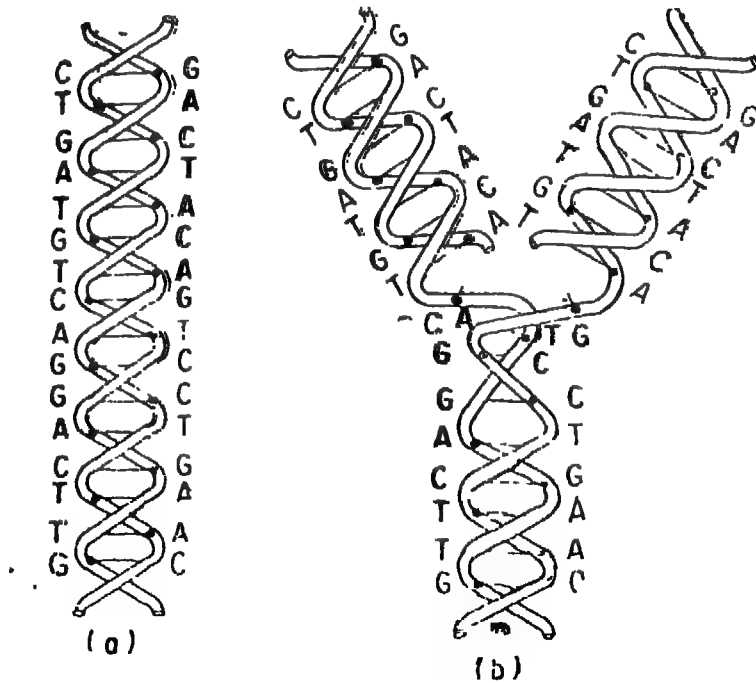
٣ - أن الخلايا التناسلية للأب والأم تتحدد بشكل معين لتكون كائن حيوى جديد . وهذا بالتالى يزيد من تنوع الاحتمالات لاتحاد الجينات حاملات الصفات الوراثية .

وتسمى الكروموزومات أحيانا بخيوط الحياة لأنها هي التي توجه نشاط الخلايا وعليها يتوقف النمو من ساعة الإخصاب حتى النضج .

وتحتوى "كروموزومات على الحامض النووى الشريطى المزدوج د.ن.أ DNA وتركيب هذا الحامض في غاية البساطة ، فهو عبارة عن سلاسل تحتوى

على أزواج من النوويات القاعدية في شكل سلم حلزوني . وتوجد الجينات في أماكن مختلفة على هذا السلم — وهي خيوط هذه العناصر القاعدية . ولا يوجد سوى أربعة عناصر قاعدية .

فالحامض النووي الشريطي المزدوج د.ن.أ يتكون من فوسفاتيات ومواد سكرية وعناصر قاعدية تحتوي على نيتروجين . وتمكن العلماء من تحضيره خارجياً ، وحينئذ تبين لهم أن فرادة هذا الحامض ليس في تركيبه ولكن في بنيانه ذاته . فالجزئيات التي يتكون منها بنيان هذا الحامض تتكون من حلزونين يتداخل نسيجهما ويرتبطان ببعضهما بآلاف من المواد فيبدو الشكل الكلي كسلم ضيق . ويتكون هذا الكل من أزواج من الوحدات . وتحتوي كل وحدة على السكر والفوسفات الذي يكون جانبا من السلم الحلزوني وعنصر قاعدى يكون نصف الدرج . ويكون السكر والفوسفات لكل زوج من



(شكل ١١) أرقام - حامض د. ن. أ .

وحدات الجانب الآخر من الخلازون ، ويربط العنصر القاعدي بالعنصر القاعدي المقابل له لإكمال الدرج .

يوجد أربعة عناصر قاعدية يتم تمييزها بحروفها الأولى هي الجواناين Guanine ، والسيتوساين Cytosine والاديناين Adnine والثايمين Thyamine . ويتحد العنصر القاعدي C مع العنصر القاعدي G ، وكذلك العنصر القاعدي A مع العنصر القاعدي T ، لذا يبدو تزاوج هذه العناصر مرتبة ومكونة درج السلم الخلازوني كما يلي :



وبذلك يكون لكل جزئي ترتيبه المميز له في هذه الوحدات الفرعية . وهذا الترتيب هو الذي يقرر خصائص النوع والأفراد الذين يحملون هذه الخصائص .

وقد يحتوي كروموزوم واحد على آلاف من هذه العناصر في سلسلة طويلة . وقد وجدت هذه العناصر في حامض د . ن . أ لأنواع أخرى من الكائنات الحية ولكن بنسب مختلفة وبالتالي تختلف .

لتكوين خلية جديدة ، ينسب التواء الحامض د . ن . أ في الخلية وينقسم طوليا من وسط السلم ، يلتقط العناصر القاعدية بالتوالي المناسب من تلك العناصر غير المتصقة والسابجة في السيتوبلازم ، فإذا تمت هذه العملية تنقسم الخلية إلى اثنتين وفيها حامض د . ن . أ بتركيبه المتكامل فيها .

ولتوجيه النشاطات المباشرة داخل الخلية يقوم حامض د . ن . أ في داخل النواة بصنع أنواع مختلفة من حامض آخر هو ر . ن . أ RNA وهو تركيب كيميائي يشبه حامض د . ن . أ ، ويقوم هذا الحامض بتكوين بروتينات من الأحماض الأمينية . فكثر من أوجه النشاط في الخلية تم عن طريق بروتينات معينة تسمى الأنزيمات تعمل كعناصر

مساعدة للتفاعلات الكيميائية ، فقد تؤدي إلى الاسراع في عملية التفاعل بسرعة تعادل الملايين من المرات بينما لا تتغير هي . ويتم تكوين كل بروتين بعين معين . وكل خلية من خلايا الجسم تقوم بصنع المئات من البروتينات المختلفة ، ويتكون كل بروتين إذا ما حللناه من تركيب معقد لعشرين من الحوامض الأمينية .

وتوالى الأحداث لانتقال الصفات الوراثية عملية معقدة وتم بغاية من الدقة بأخطاء نادرة . وإذا حدث الخطأ الجيني في تكوين الدم وكان الخطأ في أحد الأحماض الأمينية التي يتكون منها جزئ من جزيئات الهيمو جلوبين الذي يتكون من ٥٧٤ حامضا أمينيا ، فإن الشخص يموت لتوارثه أنيميا معينة . وقد يولد الطفل بضعف عقلي لأن حامض د . ن . أ عنده عجز في تكوين بروتين هام .

الجينات :

كان علماء الحياة وإلى عهد قريب يرون أن الجينات عبارة عن أكياس كياوية في منتهى الدقة تنتظم على الكروموزومات عددها لا يحصى ويصعب رؤيتها تحت الميكروسكوب مهما كانت قوته . وهي التي تحمل الصفات الوراثية عن كل من الأب والأم . فكان مفهوم الجين عندهم مفهوما مجرداً ونظريا . أما اليوم فقد حدد علماء الحياة الأسس الكيميائية للجينات في انتظام العناصر القاعدية بشكل معين على السلم الحلزوني . فلون العينين مثلا معروف أنه صفة وراثية . فترتيب العناصر القاعدية الأربعة بشكل معين مسئول عن توارث اللون الأزرق للعينين . فالخلية التناسلية تحتوي على الجين أو الترتيب القاعدي المعين الذي يؤدي إلى توارث أحد اللونين . فإذا اتحدت خلية الأب مع خلية الأم وكان في كل منهما نفس الترتيب المسئول عن توارث نفس اللون اتخذت العينان اللون الذي تجمله هذه الجينات . معنى هذا أننا إذا عرفنا الجينات التي يحملها الآباء تمكنا من التنبؤ بلون العينين كصفة موروثة . إلا أن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من تحديد التسلسل للعناصر

القاعدة في حامض د. ن. أ لمعرفة ذلك ، ولكنهم يعتمدون على مجرد الاستنتاج .

ومن الصعب التنبؤ بالصفات الوراثية في الإنسان بالذات نظراً لأنه لا يوجد جنس بشري نقي نقاء تاماً حالياً . فليس عجيباً أن تلد السويديّة الشقراء حالياً طفلاً بشرته سمراء ، أو يولد للأفريقي ولد عينا زرقاوتان . كما أنه من الصعب تتبع الأدميين لعدة أجيال لتمييز الصفات الوراثية . لذا يلجأ علماء الوراثة إلى التجريب على الحيوانات للتحكم في العوامل الوراثية ولسرعتها في التناسل ومتابعة أجيالها .

الجنس والوراثة :

وينحدد الجنس بزواج من الكروموزومات يسمى بكروموزوم الجنس . وهذا الكروموزوم إما من النوع س X أو النوع ص Y . ويتحدد جنس الأنثى بكروموزوم س X من كل من الأبوين ، بينما يتحدد جنس الذكر بكروموزوم س X وكروموزوم ص Y . ولا تعطى الأم سوى النوع س بينما يعطى الأب كلا من النوعين . وعدد الكروموزوم من النوع ص قليل في الأب . والمعتقد أن هذا الكروموزوم يحمل قليلا من الجينات . وتعزى كثير من الفروق بين الجنسين إلى الجينات التي تحملها هذه الكروموزومات . فمن الصفات المتوارثة المتصلة بالجنس sex linked عى الألوان والهيمو فيليا hemopheltia « عدم تجلط الدم عند حدوث أى جرح » . وتتوقف هاتان الحالتان على جين كامن يحمله الكروموزوم س . فإذا أعطى أحد الوالدين جينا يحمل الصفة للأنثى فسيمنع الجين المقابل له في الكروموزوم الآخر عن الوالد الآخر ظهورها . لذا لا تظهر أى من هاتين الصفتين في الأنثى إلا إذا ورثت جينا يحملها كل من الأبوين . وهذه الحالات نادرة في الفتيات . أما في الصبيان فإن الأم إذا نقلت الصفة إلى الولد عن طريق جين يحمله الكروموزوم س فلن يوجد في كروموزوم ص جين يمنع ظهورها لذا تسود هاتان الظاهرتان في البنين أكثر من البنات . وكذلك الحال

في ظاهرة الصلح « إذ يسود في جنس دون الآخر . لذا يعتبر سائدا في الصبيان وكامنا في البنات . ويرث الولد الصلح إذا نقل إليه عن طريق جين من أحد الأبوين فقط بينما لا يظهر في الأنثى إلا عن طريق جين من كل من الأبوين .

التوازن الجيني :

الخلاصة أن أى صفة من الصفات المتوارثة ستظهر في نمط يمكن تمييزه إذا كانت تتوقف على جين واحد من كل من الأبوين ، غير أن النمط الذى تظهر فيه قد يختلف في الكيف من فرد لآخر . إذ تتوقف معظم الصفات الوراثية على عوامل عدة . وكلما تعددت العوامل كلما تعددت النتائج . كما أن أيا من الجينات لا تظهر فاعليته إلا بوجود جينات أخرى . لهذا يجب مراعاة ما يسمى بالتوازن الجيني *gentic balance* . ويقصد بذلك أن أى صفة من الصفات إنما هي حصيلة التكوين الجيني كله في تفاعله مع بيئة معينة . وقد نصل إلى إحداث تغيير في جين معين ، غير أن هذا لن يتم إلا بتفاعل هذا الجين مع الجينات التى توارثها الفرد كلها .

يضاف إلى ذلك أننا حين نحاول التنبؤ بالسمات التى قد تنتج عن اتحاد أو تفاعل الجينات في الزيجوت ، فإننا نفترض أنه سيتوفر للزيجوت الظروف الملائمة لظهور هذه السمات . فالوراثة وحدها ليست كافية « إذ يجب أن تتوفر أيضا البيئة المناسبة التى تساعد على النمو والتطور . وهذا يتضمن التغذية والحماية والفرص المناسبة للتأثير على العوامل الوراثية . والواقع الذى لا مفر منه هو أن كلا من البيئة والوراثة تعتبر عاملا جوهريا وكلاهما ضرورى للآخر . كما أن تفاعلهم يعتبر شرطا أساسيا ، لذا يصعب علينا بل يستحيل في معظم الأحيان أن نقسم السمات إلى ما هو موروث وما هو مكتسب لأن كل سمة تعتبر ناتجا للوراثة والبيئة معا .

نماذج للوراثة :

من نماذج ديناميكية الوراثة إذن والتي نعيد تلخيصها هنا :

١ - أبسطها وهو ما يتوقف على اتحاد زوج من نفس النوع من الجينات unit factor مثل اللون الأملق albinism « فقدان لون الجلد والشعر والحدقة ». فإذا أخذ الفرد جينا يحمل هذه الصفة من كل من الوالدين فسيكون هذا الفرد أمهقا أو أحسبا . وإذا أخذ الفرد عن أحد والديه جينا يحمل صفة اللون الأملق فسيكون لونه عاديا لأن اللون العادي يعتبر سائدا dominant واللون الأملق كامنا أو متنحيا recessive . بمعنى آخر ما دام اللون الأملق يعتبر عاملا وراثيا كامنا فإنه لن يظهر إلا إذا ورث الفرد عن كل من أبويه جينا يحمل هذه الصفة . وعلى الرغم من أن الفرد يكون عاديا في لونه غير أنه يحمل جينا كامنا لصفة قد ينقلها إلى أبنائه وأحفاده .

٢ - والنوع الثاني من الوراثة يتوقف عليه تحديد جنس الفرد ، إذ يتحدد الجنس بزواج من الكروموزومات يسمى بـ كروموزوم الجنس . وهذا الكروموزوم إما من النوع س أو النوع ص . ويتحدد جنس الأنثى بكروموزوم س من كل من الأبوين . بينما يتحدد جنس الذكر بكروموزوم س وكروموزوم ص . ولا تعطى الأم سوى النوع س بينما يعطى الأب كلا من النوعين . وعدد الكروموزوم من النوع ص قليل في الأب . والمعتقد أن هذا الكروموزوم يحمل قليلا من الجينات . وتعزى كثير من الفروق بين الجنسين إلى الجينات التي تحملها هذه الكروموزومات فن الصفات المتوارثة المتصلة بالجنس sex linked عموما الألوان والهيموفيليا hemophilia ، « عدم تجلط الدم عند حدوث أي جرح » . وتتوقف هاتان الحالتان على جين كامن يحمله الكروموزوم فإذا أعطى أحد الوالدين جينا يحمل الصفة للأنثى فسيمتع الجين المقابل له في الكروموزوم المأخوذ عن الولد الآخر ظهورهما : لذا لا تظهر أي من هاتين الصفتين في الأنثى إلا إذا ورثت جينا يحملها من كل من الأبوين . وهذه الحالات نادرة في النتيات . أما في الصبيان فإن الأم

إذا نقلت الصفة إلى الوالد عن طريق جين بحمله الكروموزوم س فلن يوجد في كروموزوم الأب ص جين يمنع ظهورهما . لذا تسود هاتان الظاهرتان في البنين أكثر من البنات .

٣ - والمثل الثالث للوراثة النوع الذى يسود في جنس دون الآخر كالصلع ، إذ يعتبر صفة وراثية سائدة في جنس وكامنة في الجنس الآخر إذ يرث الذكر الصلع إذا نقل إليه عن طريق جين من أحد الأبوين فقط بينما لا يظهر في الأنثى إلا عن طريق جين من كل من الأبوين . وهناك عوامل أخرى وراثية في كل من الجنسين لا تظهر لوجود الهرمونات الجنسية . وقد يؤدي الحال في وظائف الغدد التناسلية إلى إحداث تغيرات تؤدي إلى ظهور مثل هذه العوامل .

والخلاصة أن أى صفة من الصفات المتوارثة ستظهر في نمط يمكن تمييزه إذا كانت تتوقف على جين واحد من كل من الأبوين غير أن النمط الذى تظهر فيه قد يختلف في الكيف من فرد لآخر . إذ تتوقف معظم الصفات الموروثة على عوامل عدة . وكلما تعددت العوامل كلما تعددت النتائج . كما أن أى جين من الجينات لا تظهر فاعليته إلا بوجود جينات أخرى . لهذا يجب مراعاة ما يسمى بالتوازن الجيني genetic balance ويقصد بذلك أن أى صفة من الصفات إنما هي حصيلة للتكوين الجيني كله في تفاعله مع بيئة معينة . وقد نصل إلى إحداث تغيير في السمة نتيجة لإحداث تغيير في جين معين . غير أن هذا لن يتم إلا بتفاعل هذا الجين مع الجينات التي توارثها الفرد كلها .

يضاف إلى ذلك أننا حين نحاول التنبؤ بالسماة التي قد تنتج عن اتحاد أو تفاعل الجينات في الزيجوت . فإننا نفترض أنه سيتوفر للزيجوت الظروف الملائمة لظهور هذه السماة . فالوراثة وحدها ليست كافية . إذ يجب أن تتوفر أيضاً البيئة المناسبة التي تساعد على النمو والتطور . وهذا يتضمن التغذية والحماية والفرص المناسبة للتأثير على العوامل الوراثية . والواقع الذى لا مفر

منه هو أن كلاما من البيئة والوراثة يعتبر عاملا جوهريا وكلاهما ضروري للآخر . كما أن تفاعلها يعتبر شرطا أساسيا « لذا يصعب علينا بل يستحيل في معظم الأحيان أن نقسم السمات إلى ما هو موروث وما هو مكتسب لأن كل سمة تعتبر نتاجا للوراثة والبيئة معا .

نماذج للخلل في الوراثة :

عرفنا من العرض السابق أن الخلية تحتوي على ٤٤ كروموزوما ونصفها من الأب والنصف الثاني من الأم يضاف إليهما كروموزومان للجنس أما XX في الأنثى أو YX في الذكر فيكون المجموع ٤٦ كروموزوما .

وقد يحدث أحيانا انحراف عن هذا النمط في تزاوج الكروموزومات . وقد يحدث الانحراف في التزاوج إما بين الكروموزومات غير كروموزومات الجنس autosomal أو في تزاوج كروموزومات الجنس .

١ - ولعل الشكل المألوف لاختلال التزاوج في الكروموزومات غير الجنسية هو الضعف العقلي . فهناك صنف من أصناف الضعف العقلي الاكلينيكية يسمى صاحبه بالمتغولي لأن ملامح الوجه والجمجمة تشبه ملامح أبناء الجنس المنغولي . . ونسمى هذا النوع من الضعف العقلي بمرض داون Down أو مجموعة أعراض داون نسبة إلى مكتشفها . إذ تبين أن هؤلاء المنغولين لديهم ٤٧ كروموزوما بدلا من ٤٦ . وإن الكروموزوم الزائد يجعل الكروموزوم المعروف بالكروموزوم رقم ٢١ ثلاثيا بدلا من أن يكون زوجيا ، والصدفة هي التي تؤدي إلى ذلك إذ لا يعرف حتى الآن لماذا يحدث انضمام كروموزومين معا في خلية بدلا من واحد فقط إلى الكروموزوم الموجود في الخلية الأخرى لتكوين خلية مكتملة باثنين فقط ويؤدي هذا إلى تكوين شخص منغولي . ويقدر بأن هذا الأمر يحدث في واحد من كل ٦٠٠ حالة من حالات الولادة . ومن المعروف أن هذه الحالات تتوافر في أماكن معينة مما يشير احتمال أثر العوامل البيئية . يدعم هذا الاحتمال زيادة تواتر الحالات المنغولية في الريف أكثر من الحضر .

٢ - ومن حالات الخطأ في تزاوج كروموزومات الجنس الحالات

المعروفة بأعراض كلاينفلتر Klinefelter's syndrome إذ تؤدي إلى تكوين فرد له مظاهر الرجولة ولكنه متخلف في نموه الجنسي إذ تكون الخصيتان غير مكتملتين ، وقد يتضخم الثديان ، ويصحب ذلك تخلف عقلي . وفي هذه الحالات يوجد كروموزوم X زائد في الخلية وتكون الخلية من الكروموزومات XXY . وقد تم كذلك اكتشاف حالات تتكون في الخلية من XYY وهناك ما يشير إلى أن هذا يؤدي إلى زيادة العدوانية والميل إلى الإجرامية لدى الرجال الذين تكون فيهم هذه الخلية .

ماذا نقصد بالبيئة :

لا يقصد علماء النفس بلفظة البيئة مجرد البيئة الجغرافية أو البيئة المحلية أو بيئة القرية أو بيئة المدينة أو البيئة المنحطة والبيئة العالية أو ما إلى ذلك من الاستعمالات الدارجة لهذه الكلمة . إن البيئة في نظرهم عبارة عن التاج الكلي لجميع المؤثرات التي تؤثر في الفرد من بداية الحمل حتى الوفاة . ويحتم هذا التعريف عملية التأثير « إذ لا يكفي وجود عامل من العوامل فقط ، بل يجب أن يكون لهذا العامل أثره . ويحتم هذا التعريف أيضاً الشمول إذ يتضمن كل المؤثرات التي يمكن أن تؤثر على الفرد مهما كان نوعها « كما يتضمن شمول دورة حياة الفرد كلها .

وتعمل عوامل البيئة مع عوامل الوراثة منذ اللحظة الأولى للحمل ، فالغذية ، وكمية الأوكسجين ، وإفرازات الغدد ، والحالة الجسدية للأم مثلا تعتبر من العوامل البيئية في داخل الرحم التي قد يكون لها أثر بالغ في نمو الجنين .

وقد ذكرنا أهمية التفاعل بين الجينات . وأهمية بيئة الخلايا ، وصلة هذه الخلايا بعضها ببعض ، وكيف أن دور الخلية الواحدة يتحدد بالبيئة المحيطة بها وموقعها بالنسبة للخلايا الأخرى ، وهذه كلها عوامل بيئية تؤثر في تطور الخلية ونموها .

كما يلاحظ أن الجينات تقوم بدورها في بيئة الخلية المكونة من

السيئوبلازم وتصبح ليثة الخلية الداخلية أهميتها بعد أن يتم التمايز نتيجة لانقسام الخلية . فقد تكون لدينا خلايا جينات متماثلة « ولكن تكوين السيئوبلازم فيها مختلف ، وبالتالي فستختلف هذه الخلايا فيما بينها في المجرى الذي تتخذه في تطورها . ويتم تمايز الخلايا عن بعضها أولاً بتأثير الجينات ، فإذا ما تمايزت بدأت بدورها تؤثر في الجينات .

وقد بينت الدراسات أن الجينات نفسها — حاملات الصفات الوراثية — ليست محصنة ضد مؤثرات البيئة الخارجية . فقد استخدمت أنواع الأشعة المختلفة والكيمويات لإحداث تغيرات فيها ، وهذه التغيرات إذا ما تمت أمكن توريثها للأبناء والأحفاد ، ومعنى ذلك إمكان إيجاد عامل وراثي عن طريق عامل بيئي .

نماذج لأثر البيئة :

يستشهد الكتاب على إمكانية إحداث التغير في التكوين الجسماني للكائنات الحية عن طريق البيئة بكثير من البحوث التي لا يحلو من الاستشهاد بها كتاب يتعرض لهذا الموضوع ونورد بعضها فيما يلي :

١ - تمكن الباحثون في إحدى التجارب بتغذية الأكسولوتل *Axlotl* وهو حيوان من فصيلة السلامندر «الحيوانات البر مائية» بخلاصة الغدة الدرقية فتغير تكوينها . وهذه الحيوانات عادة لها زعانف خارجية وذيل طويل « تساعدها على السباحة . فلما أطعمت الصغار بخلاصة الغدة الدرقية نمت دون زعانف وأصبحت عاجزة عن السباحة وتحولت إلى حيوان برى يسمى بالأمبليستوما *Amblystoma* لا تذهب إلى الماء إلا لوضع بيضها .

٢ - يؤدي وجود جين معين ضعيف في ذبابة الفاكهة إلى ثنائية الساق الواحدة في جزء منها من عند مفصل من المفاصل أو فيها كلها . وقد وجد أن مثل هذه الظاهرة تزول تحت ظروف بيئية معينة . فإذا أمكن معرفة الذبابة التي بها هذا النقص الوراثي مبكراً ، وحفظت في درجة حرارة دافئة ، فإنها

تنمو نمواً طبيعياً ولا تظهر فيها هذه الظاهرة . ويمكن إنتاج عدة أجيال منها في نفس درجة الحرارة .

٣ - أجريت بعض التجارب على بعض السمك ، إذ أمكن خلق سمك مشوه في شكل توأم متصل في الجسم بتعطيل النمو الطبيعي أو إبطائه بتخفيض درجة الحرارة وتقليل كمية الأوكسجين أو بالأشعة فوق البنفسجية . من هذه الأسماك كانت هناك سمكة برأسين « وأخرى عبارة عن سمكتين متصلتين أولاهما مشوهة وتصغر أختها التوأم بكثير .

٤ - ترك البيض ليفقس - في تجربة أخرى على أحد أنواع السمك - في ماء البحر مضافاً إليه كميات كبيرة من كلورور المغنسيوم . فاعترت عيونها حالات غريبة « إذ نما بعضها بعين واحدة تتوسط الرأس ، والبعض الآخر بعين واحدة على أحد الجانبين ، ومنها ما ظهرت له عينان متقاربتان بشكل شاذ .

نستخلص من ذلك أنه يمكن تغيير التكوين الجسماني بعوامل في البيئة « وأن التغيير الناتج لا يتوقف على نوع العامل الذي يؤدي إلى التغيير ، ولكن على الوقت الذي يبدأ فيه تأثير هذا العامل ومرحلة النمو الخاصة التي يمر بها الكائن الحي .

ومن الدراسات التي تبين أثر البيئة على التكوين الجسماني للإنسان دراسات قام بها بوواس Boas . إذ قارن مجموعة من الصبيان ولدوا في أمريكا لآباء يهود هاجروا من شرق أوروبا مع مجموعة قرينة لهم من نفس الأصل والموطن ولدوا في شرق أوروبا . كما قارن بين مجموعة من الصبيان الصقليين ممن ولدوا في أمريكا مع مجموعة قرينة ولد أفرادها في صقلية ، وكان الجميع يعيشون في مدينة نيويورك . وعقدت المقارنة بين مجموعتين من حيث شكل الرأس . وكان المقياس هو نسبة عرض الرأس إلى طولها أو ما يسمى بدليل الجمجمة cephalic index . ويتميز اليهود من شرق

أوروبا عادة باستدارة الرأس أى بنسبة عالية فى عرض الرأس إلى طولها . بينما يتميز الصقليون برأس طويلة . وقد بينت المقارنة بين كل مجموعتين أن الحياة فى بيئة أمريكية قد أدت إلى زيادة الطول فى جمجمة رأس اليهود . زيادة الاستدارة فى جمجمة رأس الصقليين الذين ولدوا فى أمريكا وبالتالى قنرب أفراد الفئتين من المستويات الأمريكية . كما بينت هذه الدراسة أنه كلما طالت مدة إقامة الأم فى أمريكا كلما كان التغير فى الأبناء أكبر .

وقد تأكدت نتائج هذه الدراسة بدراسات أخرى على مجموعات من أجناس مختلفة من أبناء المهاجرين إلى أمريكا .

ونتايج هذه الدراسات قاطعة على أن الاختلافات التى طرأت على شكل الجمجمة إنما تعزى إلى البيئة لا إلى عوامل أخرى .

وهكذا لا يمكننا أن نقول أن التكوين الجسمانى أو المميزات الجسمانية لأى كائن حى تتوقف على عوامل وراثية ثابتة . لأنه إذا اعترت البيئة التى ينمو فيها هذا الكائن تغيرات مستديمة أو شبه مستديمة . فاننا نحصل على مميزات مختلفة قد تصبح بمرور الوقت ثابتة إذا تشابه الأفراد فى تكوينهم فقد لا يعود هذا إلى صفات وراثية مشتركة فقط بل قد يعود أيضاً إلى عوامل البيئة المشتركة .



الفصل الرابع

الوراثة والبيئة والظواهر النفسية

بعد أن بينا طبيعة كل من الوراثة والبيئة وأثر كل منهما في الصفات الجسدية « يجدر بنا أن نبين علاقة كل منهما بالسلوك ». فسلوك الكائنات الحية خاصة الإنسان هو مجال دراسة علماء النفس . وكان هناك اتجاهان في تفسير السلوك : أحدهما ينسب كل ما تقوم به الكائنات الحية إلى الوراثة والثاني اتجاه معارض ينسب السلوك إلى البيئة وأثرها . وقد احتدم الجدل والنقاش بين أنصار هذين الاتجاهين خاصة في الفترة ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٠ . وقد عزا أنصار الوراثة قدرات الإنسان واستعداداته ودوافعه وكل سماته إلى الوراثة والجينات . واعتمدوا على نظرية في الدوافع تخلى عنها علماء النفس حالياً لتأكيد رأيهم هي نظرية الغرائز .

وتقوم هذه النظرية على أساسين هما : ١ - أن الغرائز مورثة أى أنها ليست متعلمة وتظهر تلقائياً دون وجود فرص للتعلم . ٢ - أنها عامة في النوع - فالطيور من نوع واحد تبني عشها بشكل واحد . وسنتعرض لنقد هذه النظرية بالتفصيل في معرض دراستنا للدوافع . ويكفى أن نذكر هنا أن التجارب والدراسات العلمية أثبتت أن السلوك الذى قد ينطبق عليه مثل هذه المعايير من الممكن أن يكون أيضاً مكتسباً ومتعلماً .

لقد عارض أنصار البيئة دعوى أنصار الوراثة . وتطرفوا في معارضتهم فنفوا كل أثر للوراثة . فالفروق التي تظهر بين الأفراد في رأيهم لا يمكن أن تعزى إلى البيئة . وقد تزعم هذا الاتجاه واطسون ، إذ كان يقول « اعطوني اثني عشر طفلاً أصحاء ، ذوى تكوين سليم » واعطوني عالمي الخالص الذى أتمكن من تنشئتهم فيه ، وأنا أضمن لكم إنى إذا اخترت أى واحد منهم عشوائياً ودربته على أن يتخصص فى أى ناحية أختارها - فلن أستطيع أن (م - الطفولة والمراهقة)

أجعل منه طيباً أو محامياً أو فناناً أو تاجراً ناجحاً » بل وشحاذاً أو لصاً بصرف النظر عن هباته واستعداداته وقدراته أو حرفة أجداده والجنس الذى ينتمى إليه . ويبدو مدى التطرف فى مثل هذا القول فما كان لوطسون أو لغيره أن ينجح فى تحقيق ذلك . إنه على أية حال يمثل وجهة النظر الميكانيكية فى النمو والى تنظر إلى الانسان على أنه آلة .

ونسوق الآن بعض الدراسات التى حاول بها العلماء استخلاص أثر كل من الوراثة والبيئة على حدة فى السلوك .

دراسات فى الوراثة والسلوك :

١ - دراسات ترايون Tryon .

حاول ترايون فى تجربة استمرت أحد عشر عاماً إنتاج فصيلة من الفيران التى تتميز بدكاء فى تعلم الجرى فى متاهة حلزونية « وفصيلة أخرى تتميز بالغباء فى هذه الناحية . وكانت المتاهة على شكل حرف T اللاتينى بها سبعة عشر انجها مغلقاً للتضليل . وكان يسمح لكل فأر أن يجرى ١٩ تسع عشرة مرة فى هذه المتاهة « ويحسب له عدد المرات التى يخطئ فيها ويدخل فى ممر مغلق لا يوصل إلى الهدف ، حتى إذا ما ميز الفيران الذكية عن الفيران الغبية زواج بين أفراد كل مجموعة حتى ينجب أبناء من الأذكىاء وأبناء من الأغبياء . وثبتت عوامل البيئة بعدم التغير فى طرق تربية الفيران والعناية بها . وباستعمال طريقة أئوماتيكية لوضعها فى المتاهة دون مسكها ، وباستعمال جهاز كهربى لتسجيل مرات الجرى والخطأ . وتابع هذه العملية مع ثمانية عشر جيلاً من كل من المجموعتين وكان فى كل جيل لا يزواج إلا بين أذكى الفيران كما يزواج بين أغبي الفيران . فتمكن فى الجيل السابع من الحصول على مجموعتين مختلفتين تماماً تتميز إحداهما بالدكاء فى الجرى فى المتاهة . والأخرى بالغباء . ولم تزد الفروق بين المجموعتين بعد الجيل السابع . . واستخلص ترايون من هذه التجارب أن النجاح فى تعلم الجرى فى متاهة من نوع متاهاته أو الفشل فيها عبارة عن قدرة تنقل بالوراثة .

وقد ذكر ترايون أنه كانت هناك فروق في الشخصية بين فيران كل من المجموعتين « فالفيران الذكية كانت تستثار انفعالياً في المواقف المغايرة لموقف المتأهة بعكس الفيران الفاشلة التي كانت تفشل في موقف المتأهة :

وقام كوبر وزوبك Cooper and Zubek (١٩٥٨) بربية فيران ذكية وفيران غبية في بيئات ثرية وبيئات مقيدة ثم قارنا بين أداء الفيران الذكية والفيران الغبية وأداء مجموعة ضابطة تمت تربيتها في ظروف المعمل العادية فبينت النتائج أن الفيران الذكية لم يتحسن أداؤها بالبيئة الثرية « بينما أدت البيئة المقيدة إلى تأخر أداؤها . أما الفيران الغبية فلم تؤثر فيها البيئة المقيدة ولكن أداؤها تحسن بشكل ملحوظ بالبيئة الثرية .

٢ - دراسات هول Hall :

لقد وجد هول أن أصدق دليل على الاستعداد الانفعالي هو التبول والتبرز في موقف غريب . فبدأ تجربته بمائة وخمسة وأربعين ١٤٥ فأراً . كان يضع الفأر في دائرة مغلقة قطرها سبعة أقدام مضاءة ساطعة لمدة دقيقتين مرة كل يوم . وكرر ذلك مع كل فأر لمدة اثني عشر يوماً . وكان يسجل لكل فأر حوادث التبول والتبرز أثناء وجوده في هذا الموقف ، فاختلفت درجات الفيران من صفر إلى ١٢ مرة بواقع كل يوم من أيام التجربة تبعاً للاستعداد الانفعالي للفأر . ثم زاوج بين الفيران ذات التكرار العالي في هذه الظاهرة ، كما زاوج بين الفيران ذات التكرار المنخفض ليحصل على أجيال تتميز بدرجة وضعف الاستعداد الانفعالي . فلاحظ أن الفيران ذات الاستعداد العالي تزداد درجة قابليتها الانفعالية في المتوسط جيلاً بعد جيل حتى الجيل التاسع ثم ثبتت على ذلك . بينما كان متوسط درجة الانفعالية للفيران ذات الاستعداد الانفعالي المنخفض ثابتة تقريباً من الجيل الأول وفيما تلتته من الأجيال . وانهى من ذلك إلى أن الاستعداد الانفعالي له أسس وراثية .

٣ - دراسات هول وكلين Hall and Klein

حاول هول وكلين في دراسة لهما بيان أن النزعة الاعتيادية أو النزعة إلى

القتال تقوم على أسس وراثية ، فقاما بمقارنة فصيلتين من الفيران من الناحية العلوانية وذلك بطريقة فصيصة تتميز باستعداد انفعالي للخوف والثانية استعدادها الانفعالي في هذه الناحية منخفض . وقد استغلا ثلاثين فأراً في هذه التجربة . إذ كانا يضعان كل فأرين في قفص مع بعضهما لمدة خمس دقائق ويعطيان لكل منهما درجة تبين حدة النزعة الاعتدائية عنده على ميزان للتقدير يتكون من ست درجات كالاتي :

الدرجة وصف السلوك

- ١ : لا يقيم أحدهما للآخر وزناً اللهم إلا حك أنفه من وقت لآخر .
حك أنف الآخر حكاً متكرراً وبقوة دون الوقوف في وجهه
أو دفعه أو عرقلة طريقه أو إظهار أى مظهر للغضب .
- ٢ : دفع الآخر من وقت لآخر أو الوقوف في طريقه وإزاحته .
- ٣ : الاستمرار في دفع الآخر والوقوف في طريقه وإزاحته مع متابعة الآخر بهذا السلوك طول الوقت .
- ٤ : المصارعة مصارعة خفيفة أو الوقوف وجهاً لوجه والأيدى متفابلة .
- ٥ : المصارعة عنيفة فيها قفز وتلحرج سريع في كل مساحة القفص .
- ٦ : مصارعة عنيفة فيها عض يؤدي إلى نزف الدم .

ظهر أن عدد مرات الهجوم التي بدأتها الفيران ذات الاستعداد الانفعالي المنخفض وعدم الخوف ٢٢٦ يقابلها ٦٨ هجوماً من الفيران ذات الاستعداد العالي للخوف وكانت حدة الهجوم من المجموعة الأولى تعادل ضعف حدة هجوم المجموعة الثانية . وانتهى الباحثون من هذه الدراسة إلى أن النزعة إلى القتال لها أسس وراثية .

بعد أن استعرض هول هذه التجارب وغيرها من التجارب لإثبات الأسس الوراثية للاستعداد الانفعالي ، والاعتدائية ، وسرعة رد الفعل ، والقابلية لاختيار درجة حرارة معينة وما إلى ذلك ، في مقال له في كتاب ستيفنز « علم النفس التجريبي » (ص ٤١٤) ، علق عليها بقوله : « إن العوامل

الوراثية مؤكدة . والأبعاد المزاجية كالاستعداد الانفعالي ، والاعتدائية وسرعة رد الفعل لها أصولها في ناقلات الوراثة في بلازما الكائن الحي . كما أن الذكاء كما يقيسه تعلم المتاهات له أصوله الوراثةية .

ويمكن القول من الناحية النظرية « إن الوراثة عامل مشترك في كل السمات النفسية . ويبرر هذا التعميم النظرة الحيوية أو الكلية السائدة اليوم . فتبعاً لهذه النظرية - إذا ما طبقت على السلوك - أى فعل يقوم به الكائن الحي يقوم به ككل ، وما دامت الكروموزومات تدخل في تركيب الكائن الحي وهي بلا نزاع التكوينات الأساسية المتميزة فيه من أولى مراحل تكوينه « كما أنها تتميز في البويضة الملقحة « وفي كل خلية من خلايا الفرد العديدة « فلا بد من أن يكون لها أثرها الحيوى العريض . وقد أثبت علم الجينات صدق أثرها في تكوين الجسم وشكله وفي بعض الوظائف العضوية « ويتبقى علينا أن نؤكد صدق ذلك في الخصائص النفسية .

نرى من هذا القول أن هول يؤكد أثر الوراثة في كثير من الظواهر النفسية إن لم يكن كلها . غير أنه لا يتطرق في رأيه فيعزو هذه الظواهر إلى العوامل الوراثةية وحدها . فيستند إلى النظرية الكلية التى تنظر إلى الكائن الحي ككل يتفاعل مع البيئة « من مكوناته عوامل وراثية لا يمكن التغافل عنها ، كما لا يمكن عزلها عن بقية العوامل « ولا شك أنه لا يمكن إنكار أثر العوامل الوراثةية في التكوين الجسماني والجهاز العصبي ونشاط الغدد وهذه كلها لها أثر في السلوك . فالوراثة البيولوجي للفرد يحدد إمكانيات تفاعله مع البيئة . فتكوين جسم الإنسان مثلاً وبشكل معين يضع حدوداً على مدى تفاعله مع البيئة ، فهو لا يطير مثلاً لأنه خلق دون أجنحة لذا نرى هول يقول في مكان آخر في نفس المقال (ص ٣٢٥) :

« يدخل في مجال دراسة نشأة السلوك النفسى البحث عن التكوينات الجسمانية والوظائف التى تنظم السلوك والتي بدورها تخضع لتنظيم الجينات . لذلك يجب أن يكون جلياً أن الجينات لن تتحكم في السمات النفسية بطريقة مباشرة فالجينات لا يكون لها أثر إلا عن طريق التكوينات الجسمانية » .

٤ - دراسات برود هرست Broadhurst ١٩٦٠

قام برود هرست في مستشفى موزلى بانجلترا بتكرار تجارب هول . وبأكثر دقة وأكثر تحكما في العوامل التي قد تؤثر في التجربة ، إذ تمت تربية الفيران سريعة الاستجابة والفيران بطيئة الاستجابة - كما أثر برود هرست تسميتها - بدلا من الفيران ذات الاستعداد الانفعالي العالي والفيران ذات الاستعداد الانفعالي المنخفض ، في بيئتين متماثلتين تماما للتأكد من أن الفروق بينهما يمكن أن تعزى للوراثة وحدها بإنتاج فصيلتين مختلفان فيما بينهما في سرعة الاستجابة .

وقد خضعت الفصيلتان من الفيران لعدة اختبارات سلوكية وفسولوجية أخرى . فقد وجد إيزينك Eysenck (١٩٦٤) أن الفيران ذات الاستعداد السريع للاستجابة أثقل وزنا ، وأن عملية التمثيل الغذائي لديها أبطأ وأن كمية الكلوسترول في الدم أعلى وما إلى ذلك .

لقد أجريت الدراسات السابقة على الحيوان . ونلخص فيما يلي بعض الدراسات على الإنسان .

الدراسات على الإنسان

١ - دراسة النسل في الأسر :

من الطرق التي اتبعت في تبيان أثر الوراثة دراسة النسل في بعض الأسر وتتبع الأنجال والأحفاد لعدة أجيال لبيان أوجه الشبه بين أفراد النسل في الأسرة الواحدة .

في سنة ١٨٦٩ نشر جالتون كتابه عن العبقريّة الوراثية ومحاول فيه أن يثبت أن قدرات الإنسان العقلية يتوارثها عن آباءه وأجداده كما يرث صفاته الجسدية . فجمع معلومات عن ٩٩٧ فرداً من عظماء الانجليز . واتخذ كل عظيم منهم كنقطة بداية للبحث في أسرته . وكان بين هؤلاء العظماء القادة في الحرب والسياسة والقضاء ، كما كان من بينهم العلماء والكتاب ورجال القانون ورجال الدين . لقد حاول حصر الأفراد الناجحين في كل أسرة وتحديد نسبة العظماء في أفراد عينته . فوجد أن نسبة النجاح ترتفع بين

الأفراد كلما زادت قرابتهم من هذا الفرد . وانتهى من هذه الدراسة إلى أن العبقريّة تورث وأن عائلات العظماء تكون نسبة النجاح عالية بين أفرادها .

ومن هذه الدراسات أيضاً دراسة جودارد لعائلة الكاليكاك . وكان لهذه العائلة فرعان . ويعود الأصل في هذين الفرعين إلى رجل واحد هو مارتن كاليكاك الذى كان ضابطاً من الضباط الذين اشتركوا في الثورة الأمريكية . قابل أثناء الحرب فتاة ضعيفة العقل في إحدى الحانات وعاشرها وأنجب هذه المعاشرة طفلاً . ولما انتهت الثورة عاد إلى أسرته وتزوج فتاة من أسرة طيبة في مستواه الاجتماعي والاقتصادي وأنجب منها أطفالاً . تتبع العلماء أحفاده من ضعيفة العقل وأحفاده من زوجته . كان من بين أحفاده من الأولى المجرمون وضعاف العقول ومدمنو الخمر والمخدرات والعاهرات . وعلى العكس من ذلك كان أحفاده من زوجته « إذ كان منهم المحامون ورجال القضاء والأطباء ومن إليهم .

تنتقد هذه الدراسة في تناسي أثر بيئة المرأة ضعيفة العقل وبيئة الزوجة الشرعية ، كما تنتقد في أن المعلومات فيها اعتمدت على مجرد تقرير الفتاة ضعيفة العقل في أن والدها ينتمي إلى مارتن كاليكاك . كما أن المعلومات فيها قد جمعت من أفراد مسنين قرروا مع قههم لأفراد الأسرة ، ولا يمكن تقرير مدى صحة معلوماتهم .

والدراسات من هذا النوع على أى حال متعددة . غير أنها تنتقد في عدم دقتها نظراً لتعدد احتمالات الوراثة ، وتعدد العوامل الوراثية التي لا يمكن تحديدها بسهولة . كما أنها تنتقد في تجاهلها أثر البيئة ، بالإضافة إلى عدم الدقة في جمع المعلومات .

٢ - دراسة نيومان - فريمان - هولز نجر :

من الصعب أن يقوم العلماء ببحوث تجريبية على الإنسان يتحكمون فيها في عوامل الوراثة بالتغيير عمداً مع تثبيت عوامل البيئة . ولذا نراهم يلجأون إلى الأفراد الذين يختلفون في الوراثة ويتشابهون في البيئة فيقارنون بينهم . كما

تعقد المقارنات بين أفراد الأسرة ذوى الإرث المشتركة كالتوائم المتحدة ،
وبينهم وبين الأبناء الذين لا يشتركون في الصفات الوراثية . ومن هذه
الدراسات دراسة نيومان - فريمان - وهولز نجر .

قام هؤلاء العلماء الثلاثة بدراسة تسعة عشر زوجاً من التوائم المتحدة «
وقد رأينا أن كل توأمين من التوائم المتحدة يمتثلان في الصفات الوراثية نظراً
لنشأتهما من بويضة واحدة ملقحة . وكان كل توأم في هذه الدراسة يعيش
منفصلاً عن أخيه . وكان السن الذى تم فيه الانفصال بين التوائم في العينة
يتراوح ما بين إحدى عشرة سنة وتسع وخمسين سنة ، وهكذا أصبح لديهم
عينة كل اثنين فيها يمتثلان من الناحية الوراثية ويختلفان من حيث البيئة .

درست كل حالة على حدة دراسة مستفيضة عن طريق المقاييس الجسدية
والنفسية والتربوية وعن طريق المقابلة . وجمع الباحثون معلومات عن البيوت
التي نشأوا فيها . كما جمعوا معلومات عن الناحية الصحية والأمراض التي
تعرض لها كل فرد وماتلاً ذلك من العوامل التي تتعلق بالدراسة .

كما جمع الباحثون معلومات عن خمسين زوجاً من التوائم المتحدة ممن
عاشوا في بيئة واحدة . أى أن أفراد هذه المجموعة كانوا يشتركون في العوامل
الوراثية وفي البيئة للمقارنة بينهم وبين التوائم في المجموعة الأولى .

وكانت هناك مجموعة ثالثة من التوائم المنفصلة « أى التوائم الذين ولدوا
من بويضتين منفصلتين » وكان عدد أفراد هذه المجموعة خمسين زوجاً .
وقد نشأ كل توأمين سوياً .

ويبين الجدول التالى معاملات الارتباط « بين التوائم في كل مجموعة
في الطول والوزن والدكاء .

(*) معاملات الارتباط طريقة احصائية تستغل لبيان مدى الصلة بين عاملين أو أكثر .
وتتراوح قيمته بين - ١ حين تكون الصلة أو الارتباط تاماً إيجابياً و - ١ حين تكون الصلة
سلبية تامة أو - ٠ حين لا تكون هناك أى صلة . انظر الفصل الخاص بالإحصاء الوصفي .

الجدول رقم (٢)

بين معاملات الارتباط بين التوائم في دراسة نيومان وزملائه

معاملات الارتباط			معاملات الارتباط
المقياس			معاملات الارتباط
بين التوائم المتفصلة			بين التوائم المتحدة
ممن ربوا سوياً			بين التوائم المتحدة
(٥٠ زوجاً)			ممن ربوا منفصلين
(٥٠ زوجاً)			(١٩ زوجاً)
الطول بالسنتيمتر	٦٤	٩٣	٩٧
الوزن بالرطل	٦٣	٩٢	٨٩
معامل الذكاء بمقياس	٦٣	٨٨	٧٧
بينه			

ويلاحظ في هذا الجدول أن أعلى معاملات الارتباط بين التوائم المتحدة، ممن نما في بيئة مشتركة ، تليها معاملات الارتباط بين التوائم الذين نشأوا في بيئات منفصلة ، تليها معاملات الارتباط بين أفراد المجموعة الثالثة من التوائم المنفصلة .

لقد اتخذ البعض نتائج هذه الدراسة كدليل قاطع على أن الصفات الجسدية والصفات العقلية تورث .

وهناك دراسات أخرى تؤكد هذه النتائج . وتؤكد أنه كلما بعدت صلة القرابة كلما قل التشابه وانخفضت معاملات الارتباط . فقد وجد في إحدى هذه الدراسات أن معامل الارتباط بين التوائم المتحدة في الطول تتراوح قيمته ما بين (٩٣ ، ٩٥) وفي طول الرأس (٩١) وفي الذكاء (٩٠) يقابلها (٥٦) و (٥٠) و (٥٩) ، (٩٣-٧٠) في الطول وطول الرأس والذكاء على التوالي بين التوائم المنفصلة ويقابلها (٥٠) و (٥٠) و (٥٠) و (٦٠) على التوالي بين الإخوة الأشقاء . بينما تكون قيمة معامل الارتباط صفراً في هذه النواحي بين من لا صلة في القرابة بينهم .

٣ - دراسة بيركس : Burks

قامت بيركس في جامعة ستانفورد بقياس ذكاء ٣١٤ طفلاً من أطفال التبنى . كما قاست ذكاء الآباء بالتبني . وقارنت بينهم وبين ١٠٥ طفلاً يكونون مجموعة ضابطة ويعيشون مع آبائهم الطبيعيين . واختارت أفراد هذه المجموعة الضابطة وراعت أن يكونوا متكافئين مع أفراد المجموعة الأولى في السن لكل من الأطفال والآباء كذا المستوى التعليمي والثقافي والمهني . وقد تم التبنى لكل الأطفال في المجموعة الأولى بالطريق القانوني . وكان من تفهيمهم على قيد الحياة . كما كان الحال مع الآباء الطبيعيين لأفراد المجموعة الضابطة . وتضم مجموعة الأطفال المتبنين أولئك الذين تم لهم التبنى تحت سن ١٢ شهراً . وكانت أعمارهم وقت القيام بالدراسة تراوح ما بين ١٤ سنة .

والجدول التالي يبين معاملات الارتباط بين العمر للآباء الطبيعيين وذكاء أطفالهم في المجموعة الضابطة ، وبين العمر العقلي للآباء التبنى وذكاء أبنائهم بالتبني . كذا معاملات الارتباط بين درجة المستوى الثقافي في المنزل وذكاء الأطفال في كل من المجموعتين .

الجدول رقم (٣)

يبين معاملات الارتباط في دراسة بيركس

الأطفال الطبيعيون	الأطفال بالتبني	معاملات الارتباط بين معامل ذكاء الأطفال
٠.٤٥	٠.٠٧	والمستوى الثقافي للمنزل
٠.٤٦	٠.١٩	والعمر العقلي للأمهات
٠.٤٤	٠.٢٥	والعمر العقلي للآباء

ويلاحظ في هذا الجدول ارتفاع معاملات الارتباط بين الأبناء الطبيعيين وآبائهم عز المعاملات بين الآباء بالتبني وأبنائهم بالتبني . وتري بيركس أن

التشابه بين الأبناء الطبيعيين وآبائهم يعود إلى الوراثة بالإضافة إلى البيئة . أما التشابه البسيط بين الأبناء بالتبني وآبائهم فيعود إلى البيئة وحدها . وتؤكد أن الوراثة تلعب دوراً أهم من البيئة في تقرير الفروق الفردية للذكاء .

ودراسة ليهي Leahy دراسة مماثلة تؤكد نفس النتائج التي وصلت إليها بيركس Burks من حيث تغليب الوراثة على البيئة .

تنتقد أنستامى وفولى هاتين الدراستين « ويريان أنه ليس من السهل عقد المقارنة بين العلاقات في أسر التبني والأسر الطبيعية » لأن معرفة الطفل في أسر التبني بأنه ليس ابناً للأسرة قد يؤثر على اتجاهاته النفسية نحو آباءه وإخوته كما قد يؤثر على مدى ثقته في نفسه ومدى تحصيله « وهذه عوامل بيئية تباعد بينه وبينهم في التشابه » فقد كان ٢٥٪ من الأطفال في دراسة بيركس يعرفون هذه الحقيقة . يقابلهم ٥٠٪ في دراسة ليهي . كما قد يتأثر آباء التبني بهذه الحقيقة أيضاً في معاملتهم للأطفال . وقد حدث في كثير من الأحيان أن وجد طفلان لا صلة بينهما وراثياً . وكلاهما من أبناء التبني في بيت واحد ، أن تشابها في معامل ذكائهما ، وكان التشابه بينهما أكثر من التشابه بين طفل متبنى وطفل طبيعي معه في نفس المنزل .

هذا بالإضافة إلى أنه يجب أن نضع في محل الاعتبار عوامل الولادة وما قبل الولادة . فمثل هذه العوامل عوامل من البيئة تبعث على زيادة التشابه بين الأطفال الطبيعيين وآبائهم . فالأم التي ينخفض مستواها العقلي والاجتماعي والاقتصادى غالباً ما تعجز عن تهيئة ظروف مناسبة لنفسها قبل الوضع للجهل وعدم تحمل المسؤولية والفقر . وقد يبدو أن مثل هذه الظروف لن تفسر التشابه بين الأبناء والآباء ولكن الأمهات ، بيد أن الفحص الدقيق بين أن مستوى الأب المهني والتعليمي والاقتصادى سيؤثر ولو جزئياً على نوع العناية الطبية والتغذية وما إليها التي تؤثر في الأم .

نستخلص من هذه الدراسات ومن الانتقادات التي وجهت إليها أنها بنسبتها الأهمية العليا للوراثة تتجاهل كثيراً من أثر عوامل البيئة أو تتجاهل

على الأقل التفاعل الذى يتم بين كل من الوراثة والبيئة . هذا التفاعل الذى يستحيل تحديد أثر كل منهما بالدقة . وقد وقعت بتركس فى هذا الخطأ إذ قالت أن العوامل الوراثية تؤثر فى الذكاء بنسبة ٧٥٪ بينما تؤثر البيئة بنسبة ٢٥٪ . ومثل هذا الاتجاه يتعارض مع ما ينادى به علماء النفس حالياً وهو أن أثر كل منها يتوقف على مدى تفاعله مع العامل الآخر ، والتفاعل لا يعنى عملية جمع حسابية :

٤ - دراسة فينوكس وجبز وجبز :

هذه الدراسة من نوع يختلف عن الدراسات السابقة . إذ قام فيها الباحثون بدراسة أنماط تيارات المخ الكهربائية لتوائم متحدة وتوائم منفصلة . فحصلوا على رسوم بيانية لتيارات المخ E.E.G. لخمسة وخمسين زوجاً من التوائم المتحدة وتسعة وعشرين زوجاً من التوائم المنفصلة . فوجدوا أن ٨٥٪ من رسوم التوائم المتحدة متماثلة بينما اختلفت فى ١٥٪ من الحالات . والمشكوك فى أمرها ١١٪ منها . ولم تتشابه الرسوم إلا فى ٥٪ فى التوائم المنفصلة بينما كان الاختلاف تاماً فى ٩٥٪ من الحالات .

وتتخذ هذه الدراسة دليلاً على أن تيارات المخ ظاهرة وراثية . وقد لا تثير مثل هذه الدراسة كثيراً من المعارضة باعتبار أن هذه التيارات ظاهرة لوظيفة جسمية .

وقد قام أرلن ماير - كلننج جارفر (١٩٦٣) بتلخيص ٥٢ من هذه الدراسات كان المفحوصون فيها من بلدان مختلفة ومن أجيال وأعمار وأجناس ومستويات اقتصادية واجتماعية مختلفة . وقد وجدوا أن الوسيط لمعاملات الارتباط المختلفة فى الذكاء كما يلى :

٨٧	للتوائم المتحدة ممن ربوا سوياً
٧٥	للتوائم المتحدة ممن ربوا منفصلين
٥٣	للتوائم المنفصلة ممن ربوا سوياً

وكان متوسط الفرق بين التوائم المنفصلين الذين ربوا سوياً يزيد مرة ونصف إلى مرتين عن الفرق بين التوائم المتحدتين ممن ربوا سوياً .

أما عن الدراسات التي قارنت بين التوائم في سمات الشخصية لبيان أثر الوراثة فعددها قليل . وهناك بحث لا يزك (١٩٥٦) وآخر لا يزك وبول (١٩٥٩) يسوقان فيهما نتائج دراسة أبعاد الشخصية للتوائم « إذ وجدوا أن معامل ارتباط بين التوائم المتحدين الذين ربوا سويا هو ٨٥، على ميزان العصاب و ٥٠، على الانبساطية ، بينما كانت المعاملات المقابلة للتوائم المتحدين هي ٢٢، و ٣٣، وإن كانت معاملات الارتباط أقل تشابهاً من التوائم المتحدين . كما وجد جوتسمان (١٩٦٣) أن التوائم المتحدين الذين ربوا سويا أكثر تشابهاً من التوائم المنفصلين على ١٥ ميزاناً من موازين اختيار مينيسوتا المتعدد الأوجه .

تتخذ نتائج مثل هذه الدراسات كدليل على أثر الوراثة على الذكاء والشخصية . وفي الدراسة التي قام بها شيلدون في سنة ١٩٦٢ وجد أن التوائم المتحدين الذين ربوا في بيئات مختلفة أكثر تشابهاً من التوائم المنفصلين الذين ربوا سوياً في الذكاء وسمات الشخصية .

وليس لنا أن نتقبل نتائج هذه الدراسات دون تردد . فلعل التشابه بين التوائم المتحدين ممن ربوا سوياً يعود إلى تلازم التوأمين وضغوط البيئة التي تفرض عليهما التماثل بحكم أنهما متشابهات .

دراسات في البيئة والسلوك

١ - حالات الأطفال المتوحشين :

نشر Zing زنج في سنة ١٩٤٠ مقالة ممتعة استعرض فيه حالات من يسمون « الأطفال المتوحشين Feral children » ويقال إن هؤلاء الأطفال قد وجدوا ضالين في أغلب الأحيان في الغابات . ويقال إن الحيوانات قد قامت بتربيتهم منذ الطفولة فنشأوا وهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى الإنسان . وتتخذ هذه الحالات كدليل على أثر البيئة . غير أن كثيراً من هذه الحالات مشكوك في أمرها وفي مدى صحتها ومنها ما هو ثابت وصحيح .

ومن الحالات الثابتة حالة الطفل المتوحش الذي عُثر عليه ثلاثة صيادين من الفرنسيين في غابة أفيرون في فرنسا سنة ١٧٩٩ . إذ وجد هذا الطفل

— وكان عمره آنذاك ما بين ١١ أو ١٢ — هائماً على وجهه في الغابة عارياً تماماً « كله فرع وخوف ، وكان عاجزاً عن الكلام والتعبير . أمسكه الصيادون وهو يحاول الهرب منهم متسلقاً شجرة » فتسلمه العالم الطيب إيتارد Itard محاولاً إعادة تنشئته تنشئة إنسانية .

كان الطفل يعاني من نقص تام في الناحية الحسية والنواحي الحركية والعقلية والانفعالية « إذ كانت عيناه زائفتين غير ثابتتين تتطلعان إلى الفراغ ولا يرسم فيهما أى تعبير . وكانت أذناه لا تستجيب إلا للأصوات العالية ولا تستجيب للموسيقى الهادئة . وكانت حاسة الشم عنده معطلة . إذ كان لا يميز بين العطور وروائح الفاذورات الكريهة التى ملأ بها مكان نومه . هذا بالإضافة إلى عجزه عن النطق واقتصار حاسة اللمس عنده على القبض على الأشياء بيديه .

أما من الناحية العقلية فكان عاجزاً في قدرته على الانتباه وقدرته على التمييز والتقليد أو القيام بأى عملية تتطلب تفكيراً من أى مستوى . وكان بليداً عاطفياً يتقلب أحياناً بين البلادة والضحك المستمر . كما كان بطيئاً في حركته ثقيلًا خاصة بعد أن لبس الخداء . وكانت عنده عادة شم أى شىء يعطى له . ويبدو أن تعطل الوظائف الحسية عنده كان خاصاً لا عاماً . إذ لاحظ إيتارد أنه كان يلتفت عند سماع تكسير الجوز أو أى مأكول شئى في الوقت الذى كانت لا تحركه أعلى الأصوات .

لقد حاول إيتارد معه كل ذكائه وكل خبراته العلمية لإعادته إلى الحياة الطبيعية . غير أنه تخلى عن هذه المهمة بعد خمس سنوات ليأسه من التقدم معه « غير أن جهد الخمس سنوات لم يذهب هباءً تماماً . إذ تمكن الطفل من تعلم كثير من أوجه النشاط اليومية كمعاداة الأكل والملبس والعناية بالنفس واستعمال الأدوات المختلفة . كما تقدم في قدرته على تمييز وتحديد الأشياء . وقد تمكن على الرغم من عجزه عن الكلام من تعلم الكتابة التى كان يستعملها في التعبير عن رغباته وفهم رغبات الآخرين . وهناك ما يدل على تقدمه في الناحية الانفعالية وفي استجاباته الاجتماعية والخلقية .

ومن الحالات المشابهة حالة فتاتي مدنا بور الملقبتان بالذئبتين . إذ عثر في سنة ١٩٢١ على فتاتين في الهند احدهما عمرها أربع سنوات والثانية تسع - تعيشان في كهف مع الذئاب ، فأواهما أحد الملاجئ . ويبدو أن البيئة الجديدة كانت صعبة عليهما إذ ماتت الصغرى بعد سنة ، وماتت الثانية بعد ثمان سنوات .

ويتبين من سجلات الملجأ أن الكبرى التي عاشت مدة ١١ كانت تفضل اللحم النيء . وكانت حاسة الشم عندها قوية كالحیوانات تساعد على تمييز رائحته من مسافة بعيدة . وكان لعينها بريق عيون القطط أو الكلاب بالليل . ويبدو أن قدرتها على الرؤية كانت أقوى بالليل منها بالنهار . وكانت تأكل بوضع فيها في صفحة الطعام . وكان الفم دائماً وسيلتها لتقريب الأشياء إليها وأمكن بالتدريج تعليمها كيف تستعمل البدين .

وكانت تتحرك على أربع — على اليدين والركبتين ١١ أو اليدين والقدمين إذا أرادت الجرى ١١ وكانت فائقة السرعة في الجرى بهذا الشكل . وقد غلظ عندها جلد الكفين والركبتين نتيجة لذلك ، ولم تتمكن من التحكم في انتصاب قامتها إلا بعد ست سنوات ، غير أنها كانت تعود وتلجأ إلى الطريقة التي تعودت عليها إذا أرادت الجرى .

وكان الصوت الوحيد الذي تخرجه عند العثور عليها عبارة عن صيحة تشبه نباح الكلاب أو عواء الذئاب ، وقد تمكنت بالتدريب الشاق من تعلم ما يقرب من خمس وأربعين كلمة وتكوين جمل بسيطة لا يزيد عدد الكلمات فيها عن ثلاث .

تتخذ مثل هذه الحالات دليلاً على أن نمو الإنسان يتوقف إلى حد كبير على البيئة التي ينشأ فيها ، وعلى أن نموه يتعطل إذا حرم من البيئة البشرية ١١ كما أن نشأة الإنسان بين الحيوانات تطبعه بطابعها ويصبح من العسير بعد ذلك تغيير سلوكه .

لقد أثارت هذه الحالات جدلاً وطيساً بين العلماء . إذ انقسموا إزاءها بين مؤكدين في واقعيتها ومشككين فيها . ويرى المتشككون أن هذه الحالات لا يمكن أن تكون قد عاشت مدة طويلة بين الحيوانات . وفي رأيهم أنهم لم ينضموا إلى مملكة الحيوان إلا في سن متأخرة بعد أن رعتهم أيد إنسانية . وربما لم تزد إقامتهم مع الحيوانات على أيام معدودات قبل العثور عليهم . كما يرون أن هؤلاء الأفراد أصلاً لابد أن يكونوا قد ولدوا ضعافاً في العقول وتغلب عنهم قوهم ليأسهم منهم .

٢ - دراسة شميدت Schmidt

وهذه الدراسة أيضاً من الدراسات التي أثارت جدلاً عنيفاً بين صاحبها وعدد من علماء النفس . وهي تدور حول ١٥٤ من البنين والبنات ممن حولوا إلى فصول خاصة لتأخرهم الدراسي . وكان متوسط ذكائهم على اختبار ستانفورد بينيه في بداية الأمر ٥٢,١ . وكان مدى الذكاء يتراوح ما بين ٢٧,٦ وضعت لهم شميدت برنامجاً تربوياً خاصاً ساروا فيه لمدة ثلاث سنوات . وكانت توالى تطبيق اختبارات الذكاء والتحصيل والشخصية عليهم بانتظام طيلة فترة ثلاث سنوات كما تتبعهم لمدة خمس سنوات بعد انتهاء فترة البرنامج . وأعلنت الباحثة أن متوسط ذكاء المجموعة قد زاد بمعدل ٤٠,٧ نقطة من معامل الذكاء . وكانت زيادة ٨٠,٧٪ من الأفراد بمعدل ٤٠ نقطة أو يزيد . وقد تمت هذه الزيادة في فترة الثلاث سنوات أثناء تطبيق البرنامج ولم ينقص ذكاؤهم بعد ذلك بل زاد مع البعض .

هذا فيما يختص بالذكاء . أما من ناحية التحصيل ، فكان المستوى التحصيلي للمجموعة في بداية التجربة في مستوى السنة الأولى الابتدائية . وقد ارتفع هذا المستوى إلى مستوى السنة الخامسة الابتدائية . كما أن ٧٩ من أفراد العينة تمكنوا من التحويل إلى المدارس الابتدائية العادية . وقد تمكن عدد منهم من إتمام دراسته في المدارس الصناعية والفنية والتجارية ، كما تمكن ٢٧ منهم من إتمام مرحلة التعليم الثانوي . وقد بينت الدراسة أن المجموعة كلها قد تمكنت من التكيف بنجاح مع المجتمع الخارجي اقتصادياً واجتماعياً ومهنياً .

لقد هرجمت هذه الدراسة هجوماً عنيفاً ، وطعنّت في أكثر من ناحية لأن الثابت أن معامل الذكاء ثابت لا يتغير . كذا العمر العقلي تحت الظروف العادية ، وإذا تغير فليس بالنسبة التي وصل إليها في هذه الدراسة .

فمن الانتقادات التي تشكك في نتائجها احتمال أن أفراد هذه العينة كانوا مختارين مما يبشر بإمكانية النجاح معهم ، وبالتالي فلا يعتبرون ممثلين لجمهور التلاميذ المتخالفين دراسياً . ولما كان هؤلاء الأفراد قد أتوا من مستويات اجتماعية واقتصادية منخفضة لا تساعد على النمو الطبيعي . ولما كانت الممارس العادية غير مهيأة لمساعدة مثل هذه الحالات ، كان لابد من تخلفهم دراسياً . وكان تخلفهم تخلفاً ظاهرياً ليس واقعياً . فلما أتيحت لهم ظروف أحسن ظهرت حقيقة قدراتهم . كما أنه من المحتمل أن يكون من معوقات عددهم في الدراسة صحي أضعف في الحواس أو صعوبة لغوية ، فلما عولجت فيهم هذه النواحي تمكنوا من السير في الدراسة سيرا طبيعياً . ولما كانت هذه الدراسة تبين فعلاً أن أفراد المجموعة كانوا في بدايتها غير ناضجين اجتماعياً ومضطربين انفعالياً وأنهم تحسّنوا خلال فترة تطبيق البرنامج ، فمن المحتمل أيضاً أن تكون هذه معوقات أخرى حالت بينهم وبين التكيف في المدارس العادية ، ولم يكن تأخرهم الدراسي سوى عرض لهذه الاضطرابات .

٣ - دراسات فريمان - هولز نجر - مثلث :

ذكرنا لاثنتين من هؤلاء الثلاثة دراسة من الدراسات التي اتخذها بعض العلماء لترجيح أهمية الوراثة ، غير أن هذه دراسة أخرى تتخذ نتائجها لتأكيد أهمية عوامل البيئة . وكانت العينة في هذه الدراسة تتكون من ٤٠١ طفلاً قسم الأطفال إلى أربع مجموعات .

المجموعة الأولى :

تتكون من ٧٤ طفلاً من أبناء التبنى . قيس ذكاؤهم قبل التبنى وبعده أثناء القيام بالدراسة . وكان متوسط سن أطفال هذه المجموعة عند التبنى ثمان سنوات . ومتوسط إقامتهم في بيوت التبنى أربع . وقد بين البحث أن متوسط

(م ٦ - الطفولة والمراهقة)

ذكاء الأطفال قد زاد زيادة ملحوظة بعد التبني . إذ زاد من ٩١:٢ إلى ٩٣:٧ ولما قسم أفراد هذه المجموعة إلى فئتين من حيث مستوى بيوت التبني الاقتصادي والاجتماعي ، وجد أن متوسط الزيادة لأفراد الفئة التي كان لها حظ الإقامة في بيوت حسنة يعادل ■ نقط في معامل الذكاء . بينما لم تبد زيادة ملحوظة في متوسط ذكاء الأطفال ممن كانوا أقل حظا منهم .

المجموعة الثانية :

وكانت تتكون من ١٢٥ زوجا من الإخوة الأشقاء ، كل شقيق فيها انفصل عن شقيقه بالتبني في بيتين مختلفين . وكانت مدة الانفصال تراوح ما بين أربع سنوات و١٣ سنة . وكان متوسط السن الذي تم فيه الانفصال خمس سنوات وأربعة أشهر . وقد بين البحث أن معامل الارتباط بين ذكاء هؤلاء الأشقاء هو ٠,٢٥ وهذا يخالف معامل الارتباط الذي يوجد عادة بين الأشقاء ممن يربون في بيت واحد وهو ٠,٥٠ ، وكان معامل الارتباط بين ذكاء الأشقاء الذين وزعوا على بيوت مختلفة في مستواها الاجتماعي والاقتصادي ٠,١٩ ، يقابله معامل قيمته ٠,٣٠ بين ذكاء الأشقاء الذين وزعوا على بيوت مستوياتها متقاربة .

المجموعة الثالثة :

وكانت تتكون من أطفال لا يمتنون إلى بعض بصلة ويعيش كل اثنين منهم في بيت واحد . وقسمت هذه المجموعة إلى فئتين : فئة تتكون من أربعين زوجا كل زوج يتكون من طفل يعيش مع أبويه الطبيعيين ومعه طفل بالتبني ، وفئة ثانية تتكون من ٧٢ زوجا كل زوج عبارة عن طفلين بالتبني في بيت واحد . وقد وجد أن معامل الارتباط بين ذكاء الأطفال في الفئة الأولى هو ٠,٣٤ وفي الثانية ٠,٢٧ ويلاحظ على هذه المعاملات أنها أعلى من المعاملات بين الأشقاء المتبنين في بيوت منفصلة .

المجموعة الرابعة :

وكانت تتكون من كل الأطفال في الدراسة وعددهم ٤٠٠ طفلا . وقد

عقدت المقارنة بين النمو العقلي والاجتماعي للأطفال من ناحية ذكاء الآباء بالتبني والمستوى الثقافي للمنزل من ناحية أخرى . فكان معامل الارتباط ٠,٤٨ و بين ذكاء الأطفال ودرجة المستوى الثقافي في بيوت التبني . وقد ارتفع هذا المعامل إلى ٠,٥٢ , لما قصرت المقارنة على الأطفال الذين تم لهم التبني تحت سن سنتين . والمفروض في هؤلاء الأطفال أنهم عاشوا في بيوت التبني منذ سن صغيرة وبالتالي يتبين فيهم أثر بيت التبني في النمو العقلي .

وتبين نتائج هذه الدراسة بوضوح أثر البيئة المنزلية في الذكاء غير أن هذه النتائج يجب أن تؤخذ أيضاً بحذر . فارتفاع معاملات الارتباط بين الأبناء والآباء بالتبني قد تعود إلى السياسة التي تتبعها المؤسسات في توزيع الأطفال ، فهناك في أغلب الأحيان محاولة لوضع الأطفال الأمهات الأذكيا في بيوت مرتفعة في مستواها الفكري والاجتماعي . وقد يؤثر هذا ولو جزئياً في ارتفاع معامل الارتباط .

ومن الدراسات الحديثة دراسات تبين أن الطفل الرضيع إذا هيء له المهذب باللعب وبالألوان الجميلة وكانت بيئة حجرته غنية ، فإن هذا ربما يساعد على تنمية ذكائه . وبينت الدراسات أن هؤلاء الأطفال يكونون أذكى من أطفال لم تتفتح عيونهم على مثل هذا الثراء .

وفي دراسة حديثة قام بها فش Fisch (١٩٧٦) وآخرون تمت فيها المقارنة بين ١٤٤ طفلاً من أبناء التبني و ٢٨٧ من الأطفال الذين ربوا مع آبائهم الطبيعيين ، وعاش أثناء التبني في وسط اقتصادي اجتماعي مرتفع . يتبين زيادة ارتفاع مستوى تحصيل أبناء التبني في القراءة ، والاستهزاء ، والحساب حصيلة لأثر البيئة المرتفع ، بينما لم تؤثر البيئة في ارتفاع مستوى الذكاء الذي يعزى في رأيهم للوراثة .

وفي دراسة قام بها سكار وواينبرج Scarr & Weinberg (١٩٧٨) بمقارنة أبناء التبني منذ الطفولة وبعد أن بلغوا سن ١٦ و ٢٢ سنة بمراهقين ربوا مع الآباء الطبيعيين ، تبين لهم أن الذكاء رابطة أقوى بذكاء الآباء الطبيعيين بدرجة تفوق ارتباطه بذكاء آباء التبني .

والخلاصة أننا نجد أن الدراسات كلها سواء منها التي تدل نتائجها على تأكيد أثر الوراثة أو التي تؤكد أثر البيئة لا يمكن الجزم منها بنتائج قاطعة . وهذا يعود كما ذكرنا إلى أن أثر كل من البيئة والوراثة أثر مشترك ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر كما لا يمكن تحديد أثر أى منهما في أى ظاهرة نفسية بل والجسدية أحياناً .

ملخص

المقصود بالوراثة هو كل ما يأخذه الفرد عن والديه وأجداده عن طريق الكروموزومات والجينات . ويقصد بالبيئة التناج الكلى لكل المؤثرات التي تؤثر في الفرد من بداية الحمل حتى الوفاة . وتؤثر البيئة الداخلية في الرحم على الخلايا كما تؤثر الخلايا في بعضها البعض . وتتعدد الاحتمالات في انقسام خلايا التناسل بالاختزال ، كما تتعدد الاحتمالات في اتحادات الجينات مما يجعل اختلافات الوراثة كبيرة . ولا شك أن هناك صفات جسمية ترجع إلى الوراثة كما هو الحال في حالة الميموفيليا واللون الأزرق . وتبين الدراسات أنه من الممكن إحداث تغييرات في البيئة تؤدي إلى تغييرات في التكوين الجسدي يمكن توريثها .

وهناك دراسات ترجع أثر البيئة على الوراثة ، كما أن هناك دراسات ترجع العكس ، غير أن الاتجاه الحالي يؤكد أهمية التفاعل بين الوراثة والبيئة واستحالة فصل أثر أحدهما عن الآخر ، كما يستحيل تحديد أثر كل منهما .

ولا تؤثر في رأى الكثيرين البيئة على الذكاء إلا إذا كانت عفيفة من ناحية الفقر والقهر والتعذيب .

الفصل الخامس

أسس السلوك

٢ - التكوينات الجسمانية

تبين لنا من دراسة الوراثة أنها لا تؤثر في السلوك بطريق مباشر ، إنما تؤثر فيه بطريق غير مباشر عن طريق التكوينات الجسمانية. وهذه التكوينات لها أهميتها من حيث إنها تحدد إمكانيات التفاعل مع البيئة ، فالإنسان لا يطير لأن تكوينه الجسماني لا يساعده على ذلك . كما أن السلوك لا يتم إلا عن طريق تكوينات جسمانية ، فنحن نرى بالعينين ، ونسمع بالأذنين ، ونتكلم باللسان ونلمس باليدين ، ونمشي بالقدمين . وهذه عمايات سلوكية ظاهرة تتم عن طريق الجسم والتكوينات الجسمانية. كما أننا نفكر ونتذكر ونتخيل ونتصور ، وهذه عمايات سلوكية غير ظاهرة وتتم أيضاً عن طريق تكوينات جسمانية معينة .

وأهم التكوينات الجسمانية ثلاثة وهي :

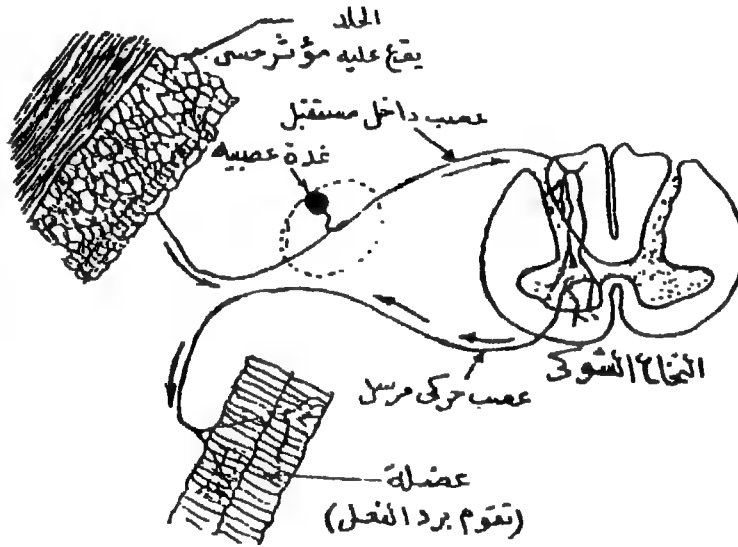
١ - الأعضاء الحسية المستقبلية للمؤثرات الحسية الخارجية والداخلية والمفصلية .

٢ - الجهاز العصبي الذي تصل إليه الإحساسات الآتية عن طريق الأعصاب الحسية المستقبلية ، ويعتبر حلقة الاتصال بينها وبين التكوينات الجسمانية التي تقوم بردود الأفعال المناسبة . ويتكون من الجهاز الحسي الشوكي والجهاز العصبي الأتونيومي « المستقل ذاتياً » .

٣ - التكوينات الجسمانية التي تقوم بردود الأفعال وتتكون من العضلات والغدد الصماء .

وأبسط مثل على وظيفة هذه التكوينات الثلاثة في عملية بسيطة هي عملية الفعل المنعكس وتتم كما يلي :

إذا وقع مؤثر على الجلد استقبلته الأعصاب المستقبلة في الجلد ، فيتولد تيار عصبي ينقله عصب مورد مستقبل efferent nerve إلى مركز عصبي في النخاع الشوكي . وهذا بدوره يحوله إلى عصب مصدر afferent nerve ليقيم برد الفعل المناسب عن طريق عضلة من العضلات أو غدة من الغدد كما يتبين في الشكل رقم ١٢ وتسمى هذه الدورة بدورة الفعل المنعكس . ولنتكلم الآن عن كل من هذه التكوينات على حدة .



(شكل ١٢) يبين دورة الفعل المنعكس

الأعضاء الحسية المستقبلة

يستقبل الكائن الحي المؤثرات الحسية من نواح ثلاث . إذ يستقبلها من خارج جسمه أي من البيئة الخارجية ، كما يستقبل مؤثرات من داخل جسمه أي من بيئته الداخلية . كما يستقبلها من المفاصل والعضلات نتيجة للحركة . والمؤثرات الحسية الخارجية تستقبلها العين ، والأذن ، الأنف ، اللسان والجلد . وهذه الأعضاء لتقبل إحساسات البصر والسمع . الشم والذوق واللمس . وإحساسات الدفء والحرارة والألم . وتأتي بعض الإحساسات من مؤثرات

تؤثر على الأعضاء الحسية عن بعد كالمؤثرات التي تؤثر في حواس السمع والبصر والشم ، ويأتى بعضها من مؤثرات باللمس أو الملامسة كاحساسات اللزق واللمس والدفع والحرارة والألم .

أما الإحساسات التي تنتج عن مؤثرات داخلية فتنتقلها أعصاب مستقبلية داخلية ، وأصدق مثل على هذه الإحساسات احساسات الجوع وامتلاء المثانة بالبول وامتلاء الأمعاء بالبراز وما إلى ذلك .

أما الإحساسات المفصلية والعضلية فتوجد الأعصاب المستقبلية لها في العضلات والمفاصل والمؤثرات التي تبعها هي الحركة وتقلص العضلات .

٢ - الجهاز العصبي

ويعتبر الجهاز العصبي حلقة الوصل بين الأعصاب الموردة المستقبلية التي تستقبل الإحساسات والأعصاب المصدرة الخارجة التي تنقل رد الفعل المناسب إلى عضلة أو غدة من الغدد تقوم به . ويتكون هذا الجهاز من : أ - الجهاز الحسي الشوكي . ب - الجهاز العصبي الأوتونومي « المستقل ذاتيا » . والجهاز الأول - بالإضافة إلى ما يقوم به من الربط بين جهازى الاستقبال ورد الفعل - فإنه يحقق التناسق والتكامل بين الوظائف التي تقوم بها أجزاء الجسم المختلفة ليحقق للكائن الحى القيام بوظيفته ككل . وسيادة هذا الجهاز في الإنسان هي التي تميزه على كل الكائنات الحية .

١ - الجهاز الحسي الشوكي

ويتكون من كتلة من الأنسجة العصبية في الرأس وفي العمود الفقري . وأجزاؤه هي المخ « والخمخ ، والنخاع المستطيل ، والنخاع الشوكي . ويطلق على هذا الجهاز « الجهاز العصبي المركزي » وتتصل به المسالك العصبية التي تذهب إلى كل أجزاء الجسم . وعلى الرغم من أن هذا الجهاز يعمل كوحدة متكاملة فإن لكل جزء فيه وظيفة خاصة يقوم بها .

فالنخاع الشوكي spinal cord هو حلقة الاتصال بين الأعصاب

الموردة والأعصاب المصدرة في الإحساسات البسيطة التي في نطاق الأجزاء السفلى من الجسم . بالإضافة إلى ذلك فإنه يحمل التيارات العصبية إلى اللحاء كما يحمل الردود من اللحاء ويوصلها إلى الخارج في العضلات والغدد .

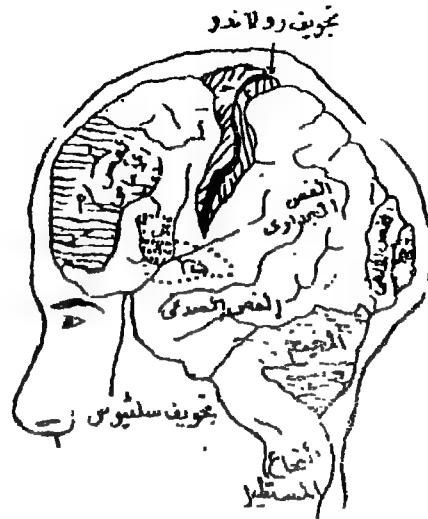
ويعمل النخاع المستطيل medulla كحلقة وصل تسيطر على العمليات الحيوية بالتنفس « وما يقوم به القلب من وظائف « وضغط الدم « والهضم بالإضافة إلى أنه حلقة وصل بين النخاع الشوكي واللحاء باعتباره إمتدادا للجزء الأعلى من النخاع الشوكي عند مدخل الجمجمة .

أما المخيخ cerebellum فيقع في الجزء الخلفي من الرأس ويمتد تحت اللحاء بعض الشيء . ويلعب دوراً هاماً في إيجاد التوافق بين نشاط العضلات وحفظ التوازن . وقد اوحظ أن استئصال أجزاء منه أو استئصاله كله في الحيوانات يؤدي إلى فقدانها السيطرة على تنسيق حركاتها في المشي أو الجري .

أما اللحاء carebal cortex فهو أكبر قسم في هذا الجهاز وأكثرها تعقيداً . وهو يتكون من نصفين الأيمن منها ويسيطر على القسم الأيسر من الجسم « والأيسر ويسيطر على القسم الأيمن من الجسم . وإذا أخذ قطاع منه نجد أنه يتكون من طبقة خارجية رمادية اللون تسمى بالقشرة ، تليها كتلة من الأنسجة التي تبدو كمادة بيضاء . وتظهر فوق سطح اللحاء تلافيف قيل في القديم أن كثرتها في الإنسان ومدى عمقها هي المسئولة عن سمو ذكائه بالنسبة لغيره من الحيوانات ، كما توجد به تجاويف أو شقوق Fissures تقسمه إلى فصوص lobes أهمها فصا المؤخرة occipital lobes ، والفصان الصدغيان temporal loes . والفصان الجداريان Parietal lobes ، وفصا الجبهة Frontal lobes « انظر الشكل رقم ١٣ » .

فصا المؤخرة : Occipital lobes

ويتصل هذان الفصان بحاسة البصر . فإذا التهما تؤدي إلى عمى مسنديم يعجز معه الفرد عن رؤية الأنماط المختلفة . ولا يتمكن من التمييز إلا بين الظلام والنور ويضطر جراح المخ إلى إزالتها في الإنسان حين إصابتها بأورام تسدعى هذه



(شكل ١٣) يبين أجزاء المخ الهامة

الإزالة . وقد لوحظ أن إزالة أى جزء فى منطقة الإبصار الأولية فيها يؤدي إلى تضيق المجال البصرى بنسبة تتفق مع حجم الجزء المزال ، المنطقة « أنظر الشكل رقم ١٣ » .

الفصان الصدغيان : Temporal lobes

المعروف منذ القدم أن لهذين الفصين صلة ما بالسمع والكلام . غير أنهما وظائف أخرى غير ذلك . وهناك بحث قام به كلوفروبوسى Klover & Buecy يقتبس منه الكتاب بيان وظيفة هذين الفصين . قام هذان العالمان بإزالة هذين الفصين فى القردة فكان أثر ذلك أن أصيبت بالعمى النفسى ، ويقصد بالعمى النفسى قدرة القرد على رؤية الشيء مع عجزه عن التعرف عليه من الرؤية وحدها . والمصاب بالعمى النفسى يتقدم من الشيء دون تردد . ولا يتعرف عليه إلا بالنوق أو الشم أو اللمس أو عن طريق الصوت . فقد قدم لهذه القردة مسامير ثم طعام ثم مسامير ثم طعام وهكذا على التوالى ، فكانت تتناول كل منها وتضعه فى الفم وتأكل الطعام وترى المسامير . وعلى الرغم من انتشار المسامير فى أفتافها بعد هذه التجربة فإنها كانت تتناولها وتختبرها بالفم حتى

ولم كانت قد فعلت ذلك منذ حُظّات . ولا تفعل القردة العادية ذلك لأنها تتمكن من التمييز بين المسامير والطعام بالوُزنية فقط .

ويبدو أن القردة تكون لديها دافع قهري للاقتراب من أى شىء . فقد لوحظ أنها كانت تقترب من الثعابين والحيوانات الكبيرة والصغيرة والإنسان دون تمييز ودون إحساس بالخطر أو بالخوف . إذ يبدو أن هذه القردة قد أصيبت بالعمى العاطفى أيضاً أو البلادة العاطفية كما لوحظ عليها زيادة الحدة الجنسية زيادة كبيرة .

فيما عدا ذلك لم تبن البحوث العلاقة بين هذين القصين والسلوك .

الفصان الجداريان Parietal lobes

يعتبر الجزء فى هذين القصين المجاور لفصى الجبهة (الجزء د-انظر الشكل) مركزاً للاحاساسات الجلدية . إذ تؤدى استثارة هذا الجزء إلى الشعور بالنخز والتنميل وما شابه ذلك فى النصف من الجسم المضاد للجزء الذى وقع عليه التأثير . وقد وجد الجراحون أن الورم أو الضرر الذى يلحق بالجزء المركزى فى هذين القصين يؤدى إلى عمو الصورة اتى لدى الفرد عن الجزء من جسمه المضاد للجزء المصاب فيهما . فكل فرد لديه صورة ذهنية يمكن أن يتصورها عن جسمه .

وقد وجد أن المرضى بمرض فى جزء من هذين القصين يفقدون صورة جزء الجسم المضاد لها ، ولا يشعرون بوجود الجذع أو الساق أو اليد فى هذا الجزء . وقد يظنون أن هذه الأجزاء فيهم ليست لهم بل لأفراد آخرين ملتصقين بهم .

فصا الجبهة : Frontal lobes

يبدو أن هذين القصين يعتبران من المناطق الصامتة فى المخ . إذ فشلت أى استثارة فيهما إلى ظهور أى رد فعل فى السلوك يستثنى من ذلك منطقتان فيهما المنطقة - الملاصقة للقصين الجداريين ومنطقة بروكا Broca المنطقة ب . « انظر الشكل » . إذ وجد أن إزالة جزء من المنطقة الأولى يؤدى إلى إصابة

الجزء المضاد من الجسم بالشلل . وإن كان هذا الشلل يزول تحت ظروف خاصة بعد عدة أسابيع كما أن استثارة هذه المنطقة تؤدي إلى القيام بحركات لا إرادية في الجزء المضاد من الجسم . فكان لهذه المنطقة صلة بالحركة . كما وجدت صلة بين منطقة بروكا وما يسمى بفقدان النطق الحركي motor aphasia إذ وجد بتشريح جثث بعض الحالات التي كانت تعاني من فقدان النطق الحركي وجود بعض الضرر اللاحق بهذه المنطقة أو ما حولها . ويقصد بفقدان النطق الحركي « عدم القدرة على الكلام مع فهم الشخص للغة فهماً تاماً » .

كما وجد أن إزالة هذين الفصين في القردة يؤدي إلى تهتة القردة المضطربة . وقد استغل هذه الظاهرة أحد الجراحين البرتغاليين ويدعى مونيز Moniz في سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ في علاج عشرين من المرضى بأمراض عقلية فأدت إلى شفاء سبعة منهم وتحسن حالة سبعة آخرين بينما لم يطرأ أي تغير في ستة . وقد قام فريمان وواتس Freeman & watts بأول عملية من هذا النوع في أمريكا في سبتمبر سنة ١٩٣٦ بعد أن أدخلوا عليها كثيراً من التحسينات . ويقوم الجراح في هذه العملية بفتح ثقبين صغيرين على جانبي الجمجمة ، ثم يدخل آلة حادة يدفعها إلى عمق ستة سنتيمترات تقريباً في المخ في كل ثقب على التوالي ، ويحركها في شكل دائري حتى يتمكن من قطع النسيج الأبيض الذي يفصل بين الجزء من اللحاء المسمى بالثالاماس thalamus وفص الجبهة . وقد أدت مثل هذه العملية إلى نتائج باهرة إذ أدت إلى زوال الآلام النفسية والجسدية المصاحبة والحالات الانفعالية الحادة خاصة حالات الانقباض . وعاد عدد من المرضى بالأمراض العقلية المستعصية إلى الحياة العادية . وكانت أحسن النتائج في المرضى بالعصاب القهري وجنون سن اليأس .

وقد تمكن العلماء فيما بعد ومنذ عام ١٩٤٠ من إجراء عمليات عديدة من هذا النوع وبأشكال مختلفة . وقد أدت هذه العمليات إلى تطور فن جراحة المخ وزيادة المعرفة بالنتائج التي تؤدي إليها .

المهيوثالاماس : Hypothalamus

وهي تكون جزءاً من مركز المخ في الداخل وفيها تتركز السيطرة على وظائف الجسم الحيوية . ففيها نواة تنظيم حرارة الجسم . وكمية المياه . والتنفس والعلاقات بين وظائف بعض الغدد . والتعبيرات الانفعالية ، وتبين أن استثارة هذا الجزء في القوط تؤدي إلى ثورة حادة (المنطقة المنقوطة ث في شكل رقم ١٣) .

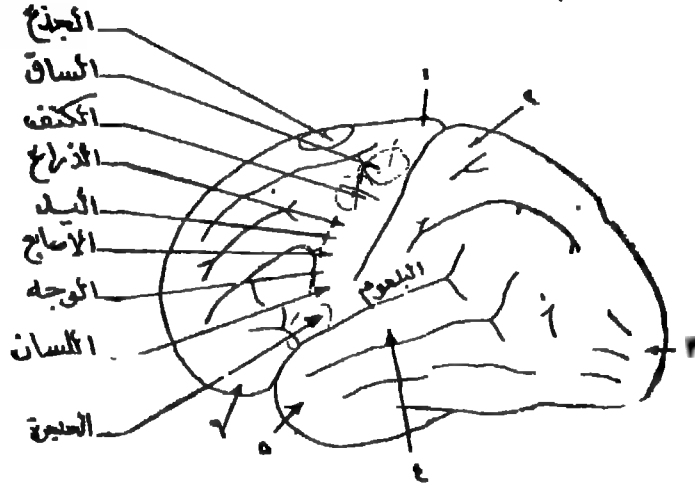
ويبدو أن التعبير الانفعالي ينتظم في أجزاء معينة منها . فقد بين تشريح جثث بعض المرضى بعد الوفاة ممن كانوا يعانون من اضطراب في تعبيراتهم مثل الاضطراب إلى الضحك أو البكاء ، والشلل في تعبيرات الوجه الانفعالية . « أى عدم ارتسام تعابير على الوجه أثناء الانفعال » - بين التشريح - وجود إصابات أو ورم في المهيوثالاماس ، وإن كانت هناك أدلة من بحوث أخرى تناقض ذلك ، غير أنه يبدو أن لهذا الجزء من المخ صلة بالتعبير عن الانفعالات وتنظيمها لا بالانفعالات نفسها والخبرة بها .

يتبين من الشرح السابق أن هناك مناطق في المخ لها وظائف خاصة كالمناطق المتصلة بالحواس والمناطق الخاصة بعمليات الترابط كما رأينا في فقدان الكلام الحركي بإصابة منطقة بروكا . غير أنه لم يثبت حتى الآن وجود مناطق خاصة لعمليات مثل التفكير أو التذكر . إذ تتوقف العمليات العليا من هذا النوع على نشاط اللحاء ككل ، وهذا النشاط هو الذي يؤدي إلى اعتبار اللحاء مركزاً للعمليات العقلية العليا كالإدراك والتفكير والتجريد والتعلم وتكوين المفاهيم والإرادة وما إلى ذلك .

وقد أثبت البحث أنه حتى إذا أصيبت منطقة من مناطق التخصص في المخ فغالباً ما تقوم بعض أجزاء المخ الأخرى بوظيفتها وتعوض عن الجزء المصاب .

ومن التجارب المشهورة التي تبين عمل المخ ككل في عمليات كعملية التعلم ما قام به لاشلي . إذ قام بتحطيم أجزاء مختلفة الحجم من المخ في مجموعة من

الفيضان اليضاء، ثم حاول قياس قدرتها على تعلم الجرى في متاهة أو تعلم فتح باب القفص برفع « سقطة » مقارناً النقص في القدرة على التعلم بحجم الجزء المستأصل من المخ ، فوجد أن القدرة على التعلم تقل كلما زاد حجم الجزء المستأصل ، كما وجد أن النقص في القدرة لا يختلف إذا حطم جزء معين أو جزء آخر طالما أن حجم الأجزاء المحطمة واحداً .



شكل رقم (١٤)

- ١ - منطقة الحركة .
- ٢ - منطقة إحساسات الحرارة والألم واللمس .
- ٣ - منطقة الإبصار
- ٤ - منطقة السمع
- ٥ - منطقة الاحساسات بالنوق
- ٦ - منطقة الشم .

ب - الجهاز العصبي الاتونومي

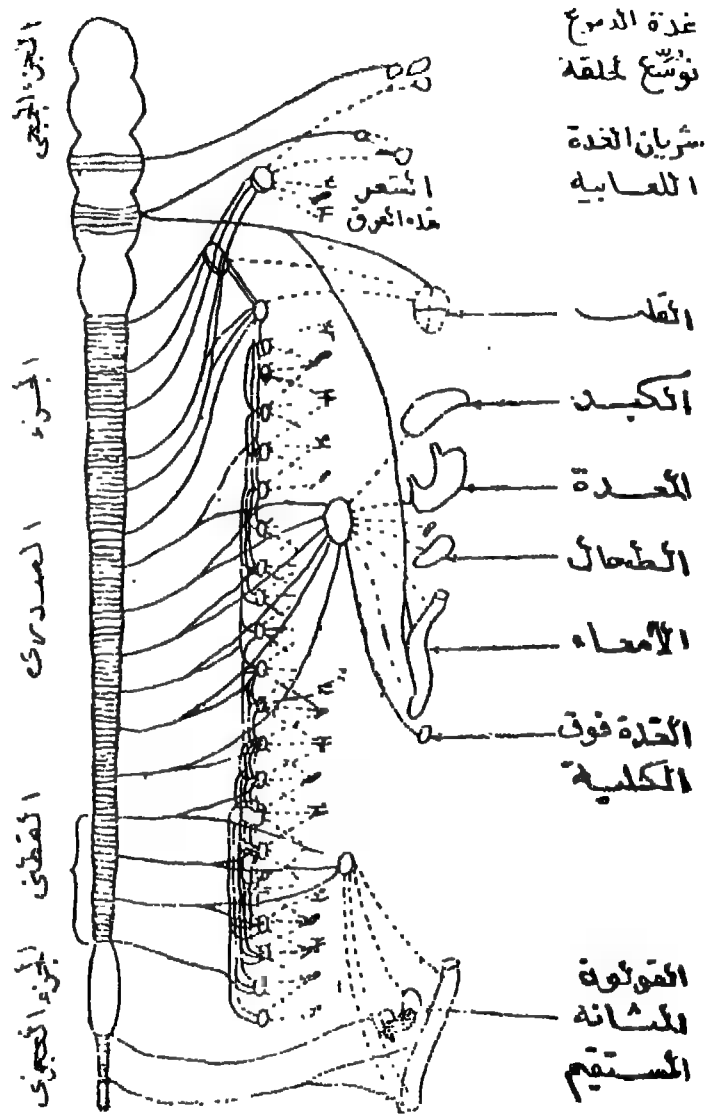
وهذا الجهاز وإن كان يعمل مستقلاً عن الجهاز الحنى الشوكى الرئيسى غير أنه يتصل به ، ويعملان سوياً . ويشبه البعض هذا الجهاز بالحكومات الاقليمية اللامركزية التى تعمل مستقلة فى تنفيذ سياسة الحكومة المركزية العليا مع عدم الرجوع إليها إلا وقت الضرورة ، هذا مع خضوعها ، وتناسق سياستها وتكاملها معها .

ويتكون هذا الجهاز من سلسلة مزدوجة من العقد العصبية ganglin التي توجد خارج المخ وخارج النخاع الشوكي وتوجد على طول العمود الفقري في داخل تجويف الجسم. وتتصل هذه العقد عن طريق أنسجة لامركزية بالجهاز الحنجري الشوكي عن طريق النخاع الشوكي. إذ يتصل الجزء الأعلى من النخاع الشوكي المسمى بالجزء الجمجمي cranial والجزء الأدنى منه المسمى بالجزء العجزى sacral بعقد عصبية من سلسلة العقد ويكونان معها ما يسمى بالجهاز الباراسمبثاوى الاتونومي. بينما يتصل الجزء الأوسط من النخاع الشوكي المسمى بالجزء الصدري القطني thoracico lumbar ببقية العقد مكوناً الجهاز الاتونومي السمبثاوى « أنظر الشكل رقم ١٤ » .

فكان الجهاز العصبي الاتونومي يتكون من قسمين أو جهازين هما السمبثاوى والباراسمبثاوى . وهما يتحكمان في العمليات الضرورية للحياة كالتنفس . والدورة الدموية ، والهضم وما إليها . وهما بذلك يتحكمان في غدد العرق . والشعر ، والمناطق الخارجية للأوعية الدموية ، كما أنهما يتصلان بالقلب والرئتين والجهاز الهضمي ، والجهاز التناسلي ، والأعضاء الإخراجية وغير ذلك من الأحشاء الداخلية .

ولكل من السمبثاوى والباراسمبثاوى وظيفة التي تعارض وظيفة الآخر فوظيفة السمبثاوى زيادة نشاط القلب ومسرعة دقاته كما يحدث في حالات الخوف والغضب ، كذلك تضيق الأوعية الدموية ، وتضييق حدقة العين ، ووقوف الشعر ، وشل حركة الهضم ، وإيقاف إفراز غدد الهضم . وإرخاء العضلات القابضة مما يؤدي إلى فقد السيطرة على البول والبراز أثناء الانفعال . وبالجمله فإن النغمة العامة التي تسود عمل هذا الجهاز نغمة ترتبط بعدم الراحة والتوتر .

أما الباراسمبثاوى فعمله مضاد لعمل السمبثاوى « فكلاهما يشل حركة الآخر أثناء قيامه بوظيفته . وإذا كانت النغمة التي تسود وظيفة السمبثاوى غير سارة فالعكس صحيح بالنسبة لوظيفة الباراسمبثاوى . إذ تتصل وظيفته بالجوع والعطش الجنسية والعمليات الإخراجية » وكلها عمليات في إشباعها لذة تبعث على الراحة ، ويسيطر عليها هذا الجهاز . فوظيفته هي التهدئة .



شكل رقم (١٥) يبين الجهاز العصبي الأوتونومي بقسميه السمبثاوي والباراسمبثاوي

٢ - العضلات والغدد

(أ) العضلات

ذكرنا أن المؤثرات الحسية تستقبلها الحواس ، فتحمل الأعصاب المستقلة الإحساسات إلى مركز عصبي يوصلها إلى عصب مصدر ، فيتم رد الفعل عن طريق غدة أو عضلة . والعضلات التي تقوم برد الفعل في جسم الإنسان نوعان : عضلات إرادية يتحكم في حركتها الإنسان بإرادته ، وعضلات لا إرادية أو ملساء .

وتدخل العضلات الإرادية في الحركات التي يقوم بها الجسم كالمشي والجرى والقفز والتزحلق والزحف والرمي والمد والتثني وما إليها من حركات . كما تدخل في كثير من المهارات الجسدية التي تستعمل فيها اليدين والذراعان والأصابع والجلد وما إلى ذلك . وتتصل هذه العضلات بالهيكل العظمي للجسم بأوتار قابلة للشد والارتخاء ؛ لذا تسمى أحياناً بالعضلات الهيكلية .

أما العضلات اللاإرادية أو الملساء فتكون جزءاً كبيراً من أنسجة الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجهاز التناسلي وأجهزة العمليات الإخراجية . إذ تغطي أغشية الأعضاء الداخلية في الجسم وتتكون منها الأمعاء ، والمعدة ، والقضبة الهوائية ، وأوعية الدم ، ومجاري البول ، والمجاري والممرات الهوائية والتناسلية . أي أنها تدخل في تكوين الأعضاء التي تقوم بالوظائف الأساسية للحياة . وتتصل هذه العضلات وتمتد ببطء . إذ هي في عملها أبداً من العضلات الغليظة . لذلك من السهل للتأثير عليها بالمخدرات وبإفرازات الغدد الصماء .

(ب) الغدد

والغدد في الجسم نوعان « غدد تصب إفرازاتها في مجارى أو قنوات ، أو تظهر إفرازاتها خارج الجسم مثل غدد العرق ، والغدد اللعابية ، والغدد الدمعية ، والبنكرياس ، والكبد . وغدد تصب إفرازاتها مباشرة في الدم دون

قنوات أو مجارى وتسمى إفرازاتها بالهرمونات . وتسمى هذه الغدد بالغدد الصماء .

وتتوقف أهمية الغدد بنوعها على الأثر الذى تحدثه إفرازاتها فى العمليات الجسدية الأخرى . فهى تؤثر فى عمليات الهضم والتنفس ونشاط القلب ودورة الدم والنشاط الجنسى وما إليها .

ويهمنا أن نتعرف على وظيفة الغدد الصماء لما ظهر من أهميتها فى التأثير على مدى تفاعل الإنسان مع بيئته وتكيفه معها وتكوين شخصيته : هرموناتها تسير فى الدم إلى كل أنحاء الجسم . لهذا فهى تقوم بعملية تنسيق وظائف الغدد والعضلات . وتسمى هذه الوظيفة بوظيفة التكامل الكيماوى .

كما أنها تساعد فى النمو الجسدى والعقلى وفى الانفعالات وعمليات الهضم وعمليات الهدم والبناء فى الجسم .

وقد ظهر أثر هذه الغدد بعد العمليات الجراحية التى أدت إلى استئصالها : فإذا إستئصلت غدة ظهرت أعراض معينة كانت تزول إذا تناول الفرد جرعات من هرموناتها . كما تبين أنه إذا زادت إفرازات بعضها زيادة كبيرة أو نقصت نقصاً كبيراً أدت إلى اختلال فى التوازن الغددى وبالتالى إلى أعراض جسمية ونفسية معينة .

والغدد الصماء التى يهمننا دراستها هى الغدة النخامية ، والغدة الدرقية وجاراتها ، والغدة الكظرية أو فوق الكلوية ، والغدة التناسلية ، والغدة الصنوبرية والغدة التيموسية « وجزر لانجهانز بالبنكرياس .
انظر الشكل رقم ١٦ » .

الغدة النخامية:

وتتكون هذه الغدة من فصين أمامى وخلفى بينهما جزء متوسط . وتوجد فى وسط الرأس عند قاعدة المخ بالقرب من قاعدة الجمجمة . وتسمى هذه الغدة بسيدة الغدد لأنها تفرز عدة هرمونات تؤثر فى الغدة الدرقية والغدة التناسلية والغدة فوق الكلوية ، كما تؤثر فى النمو الجسدى ونمو الجهاز العصبى (م ٧ - الطفولة والمراهقة)

فيفرز القص الأمامى فيها هرمونا إذا زاد إفرازه عن الحد فى باكورة الحياة أدى ذلك إلى المرض بطول العظام، أما إذا زاد الإفراز بعد البلوغ فإن شكل الوجه يتغير « إذ تتضخم عظمتا الوجنتين وتفرج الأسنان كما تتضخم الأنف واليدان والقدمان . وقد يصحب هذه التغيرات الجسدية ضعف فى الذاكرة وتشتت فى الذهن وفقدان الدافع الجنسى . أما إذا نقص إفراز هذا الهرمون فينمو الفرد قزما .

ويفرز القص الأمامى هرموناً آخر يساعد على تنظيم الحيض، ولبن الرضاعة فى النساء . كما يؤثر فى الغدد الجنسية عندهن .

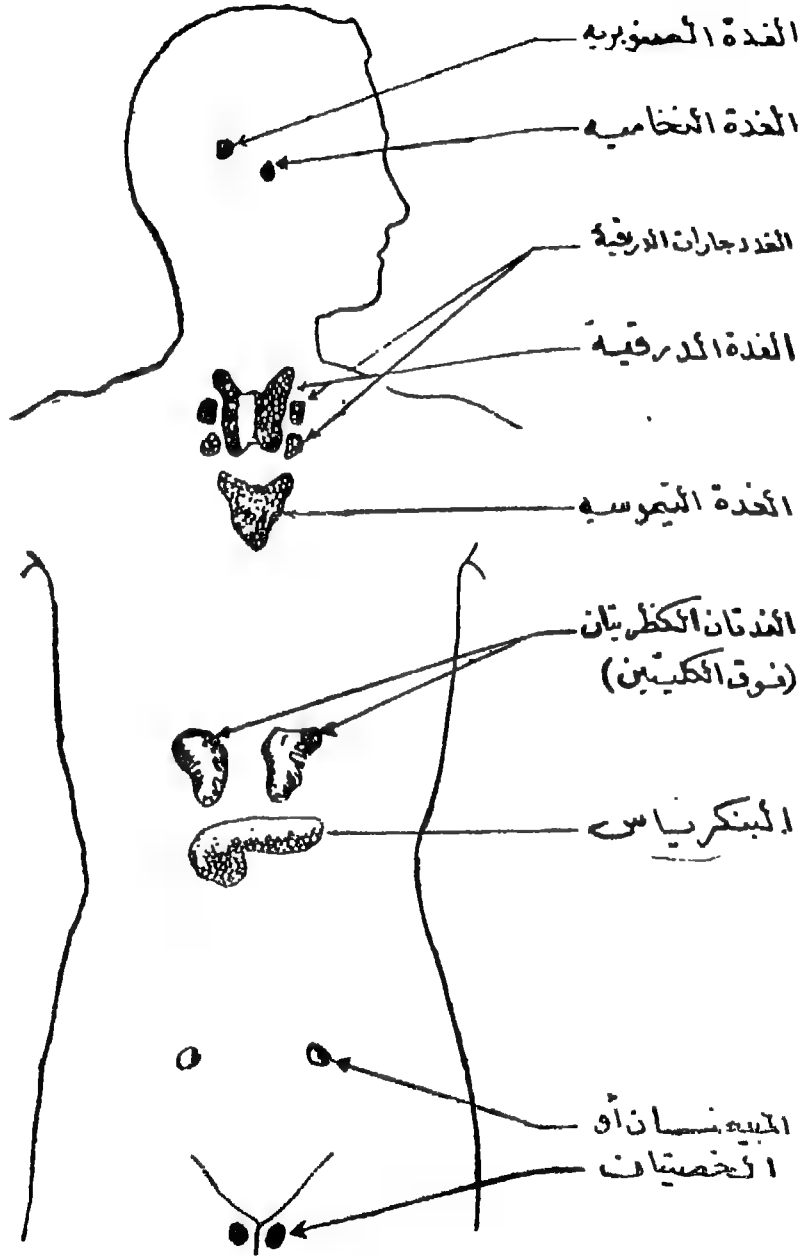
وهناك إفراز يؤثر فى الغدد الدرقية إذ ينشطها . ويؤدى استئصال القص الأمامى فيها إلى انحود هذه الغدة .

وتؤثر بعض افرازات القص الخلفى فى العضلات الملساء مما يؤدى إلى زيادة نشاط الأمعاء والمثانة والرحم . ويستعمل هذا الإفراز أثناء عملية الولادة لأنه يعطى قوة لعضلات الرحم .

الغدة الدرقية وجاراتها :

وتوجد الغدة الدرقية فى الرقبة على جانبي القصبة الهوائية . وتؤثر إفرازاتها فى إيجاد التوازن بين عمليات الهدم والبناء الجسم فى . وإذا ولد طفل بغدة درقية عاجزة فى إفرازها فقد يؤدى هذا إلى القبض على النمو العقلى للطفل ويسمى ضعيف العقل لهذا السبب بالمقصوع أو الكريتيتى . وقد يبلو الطفل عادياً عند الولادة ولا يظهر عليه الانحراف إلا بعد الشهر السادس . ويكون عادة ضخيم الرأس ، قصير الأرجل ، أفتس الأنف ، مترهل الجلد . ويمكن علاج هذه الحالة إذا اكتشفت مبكراً بإفرازات الغدة الدرقية .

وقد عرفت وظيفتها الفسيولوجية من الملاحظات الإكلينيكية قبل إجراء التجارب العملية على الحيوانات . إذ وصف جل Gull فى سنة ١٨٧٤ مجموعة من الأعراض التى أدى إليها نقص إفراز الغدة الدرقية تلخص فى فقدان الشعر وازدياد سمك الجلد وجفافه . وفقدان القوة الجسدية والإعياء والحمول وفقدان



شكل رقم (١٦) يبين الغدد الصماء الهامة في الإنسان

كثير من القدرات العقلية . وقد ظهر أن هذه الأعراض تعقب عملية الاستئصال التام للغدة مما يسبب نقصاً في درجة حرارة الجسم بمقدار ٤ ٪ ، أما إذا زاد إفراز هذه الغدة عن الحد فإن ضغط الدم يرتفع ، وتزداد سرعة النبض ، ويصاب الشخص بفقدان الوزن ، والنشاط الزائد ، وقلة الاستقرار ، وسرعة الاستفزاز ، كما يصاب بالأرق .

أما جارات الغدة الدرقية فعبارة عن أربع غدد صغيرة وظيفتها تمثيل الفسفور والكلسيوم ، وقد وجد أن استئصالها يؤدي إلى تشنجات عضلية ونقص في نسبة الكلسيوم في الدم . ولما كان الكلسيوم ضرورياً في الإنسان لانقباض العضلات طبيعياً ، فإن ذلك يفسر التقلص أو التشنج الذي يحدث عند استئصالها . وتحسن الحالة برفع نسبة الكلسيوم في الدم بحقن لبنات الكلسيوم ، لبنات الجير ، أو تعاطى فيتامين د ، أو تعاطى الهرمون المستخرج منها « الباراثرمون » .

وقد لوحظ تضخم هذه الغدد في حالات الحمل والرضاعة إذا نقص الكلسيوم في دم الأم وإذا نقص فيتامين د في الغذاء كما في حالات الكساح ، كما ينقص الكلسيوم في الدم أيضاً في بعض أمراض السكلى بسبب كثرة إخراجها في البول لتضخم هذه الغدد .

الغدة الكلوية أو فوق الكلوية :

وهما اثنتان توجد كل منهما فوق إحدى الكليتين وتتكون كل غدة منهما من جزأين : جزء خارجي يسمى القشرة وجزء داخلي يسمى بالباب : ويفرز كل جزء منهما هرمونات الخاصة . وإفرازات القشرة ضرورية للحياة . فإذا ضعف هذا الإفراز انخفض ضغط الدم وأصيب الشخص بالضعف الجسماني والتعب السريع واضطراب الجهاز الهضمي كما تضعف مقاومته للأمراض ويؤدي استئصال القشرة إلى الوفاة .

وتلعب هرمونات القشرة دوراً كبيراً في النمو الجنسي ، إذ تؤدي زيادة إفرازاتها إلى النزعة إلى الذكورة في الصبيان والبنات . ويلاحظ أن العنة في

الرجال لاتتأثر بالخصيتين كما تتأثر بضعف إفرازات القشرة .

ويفرز اللبالب الأدرينالين ولهذا الافراز أهميته في علم النفس لصلته بالانفعالات إذ يزداد إفرازه أثناء الانفعال . ويؤدى هذا إلى زيادة ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم . وإذا جرح الفرد تجلط دمه بسرعة . كما يفرز الكبد المخزون فيه من السكر وتوقف عمليات الهضم ، وتضيق مجارى التنفس . وبالجمله يستعد الجسم للعمل العنيف .

الغدد التناسلية :

والغدد التناسلية في الرجل هما الخصيتان وفي المرأة المبيضان . وتفرز هذه الغدد سواء في الرجل أو المرأة إفرازين أحدهما هرموني يصب في الدم مباشرة دون قناة ، والثاني قنوى يصب في قنوات ، أما الهرمونات الصماء فهي مسئولة في الرجل وفي المرأة عن المظاهر الجنسية الثانوية كنمو شعر العارضين والشارب وخشونة الصوت في الرجل وبروز التهدين والتفاف الفخذين والإليتين في المرأة .

وقد لوحظ أن استئصال الخصيتين في البالغين يتبعه تغيير في توزيع الشحم على الجسم ، إذ يستدير ويصبح ذا صفات أنثوية ، كما يخف الشعر في توزيعه على الجسم وتزداد نعومة الجلد ، كما يحدث تناقص في القنوات والغدد الخاصة بالتناسل ، أما إذا تم هذا قبل البلوغ فإن القنوات والغدد التناسلية لاتبلغ حجمها الطبيعي ، كما لا يحدث تغير في الصوت ، ولا ينمو شعر اللحية ، ولا تظهر الصفات الذكورية الأخرى ، ويمكن علاج ذلك في الإنسان وفي الحيوانات المخصية بتعاطي الهرمونات الذكورية .

ولهذا الهرمون خواص أخرى غير ذلك إذ يؤثر في نمو العظام ، وإذا كانت العملية الجنسية لاتتأثر تماما باستئصال الخصية فإن الرغبة الجنسية تتأثر بنسبة الهرمون الموجود في الدم .

وقد ذكرنا أن أحد إفرازات الفص الأمامى للغدة النخامية تسيطر على هذا الهرمون ، فاستئصال هذا الفص ينتج عنه نقص في الخصائص الذكورية ويمكن منع ضمور الخصيتين بتعاطي خلاصة الغدة النخامية .

ولا يؤثر الهرمون الجنسي الأنثوي في الصفات الثانوية للأنوثة فقط ، بل يؤثر أيضاً في تنظيم الحيض ، وإدرار لبن الثديين ، ونشاط الرحم وما إلى ذلك . ويؤدي النقص في هذا الهرمون بعد البلوغ في المرأة إلى اضطراب دورة الحيض ، وسرعة دقات القلب ، وارتفاع في ضغط الدم ، والاضطراب الانفعالي ، وقد وجد أن جنون سن اليأس تخف حدته بتناول هذا الهرمون .

الغدة التيموسية :

وتوجد في تجويف الصدر وهي إحدى غدد الطفولة لأن نشاطها قاصر على الفترة الأولى من الحياة . إذ يكتمل نموها حوالى السنة الثالثة من العمر ، ثم نأخذ في الضمور . وإذا لم يتم ذلك توقف عمل الغدة النخامية وبالتالي عمل الغدد التي تؤثر عليها إفرازات الغدة النخامية وتوقف النمو .

الغدة الصنوبرية pineal gland :

وهي غدة الطفولة الثانية وتوجد بين فصي المخ من الخلف - وهي كالغدة السابقة إذ يقتصر عملها على الفترة الأولى من الحياة . وإذا لم يتم ضمورها تأثرت الغدد الأخرى في نشاطها .

جزر لانجرهانز بالبنكرياس :

وتفرز هذه الجزر مادة الأنسولين ، ووظيفته تحويل السكر إلى نشا حيواني يمتزّن في الكبد والعضلات . وقد لوحظ أنه بعد استئصال البنكرياس ترتفع نسبة السكر في الدم ويظهر الجلوكوز في البول مما هو معروف في البول السكري . ويساعد الأنسولين المستخرج من هذه الجزر في البنكرياس على خفض نسبة السكر في الدم سواء أكان المرض حقيقياً في الإنسان أو مصطنعاً في الحيوانات تحت التجريب . وانخفاض نسبة الأنسولين تؤدي إلى الشعور بالضعف والخور والرعشة وفقدان النشاط بسرعة ، كما يؤدي إلى سرعة الاستنزافات وقد يصاب البعض بالإغماء في الحالات الخاصة .

نظريات في علاقة التكوين الجسماني بالسلوك

حاول العلماء منذ القدم الربط بين الصفات الجسمانية والصفات النفسية فكانت هناك آراء ونظريات ذاع بعضها وانتشر « وإن كان الكثير منها لا يخرج عن نطاق الشعوذة والرجم بالغيب نورد بعضها - لا لأهميتها - ولكن لما لها من سيطرة على عقول البعض حتى يومنا هذا .

١ - الفراسة Physiognomy

ويرى أصحاب الفراسة أن هناك علاقة بين ملامح الوجه والجسم والصفات النفسية للشخصية . وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأي في الفصل الثاني . ويكنى أن نذكر هنا أن سيزار لمبروزو - العالم الفرنسي - حاول في سنة ١٨٧٦ تقسيم الناس إلى مجرمين وغير مجرمين على أساس صفات في الوجه تميز المجرمين عن غيرهم . ولم تقف نظريته أمام الدليل العلمي .

٢ - نتوءات الرأس Phrenology

لقد سبق لنا أن أشرنا في الفصل الثاني إلى أن أصحاب هذا المذهب يرون أن هناك علاقة بين نتوءات جمجمة الرأس والسلوك وأن هذا المذهب كسابقه لا يقوم على أى أساس علمي . وإذا كان هناك فضل لجال صاحب هذا المذهب فهو أنه حقز العلماء إلى البحث في وظائف المخ « مما أدى إلى بيان وظيفته »

٣ - نظرية الأخلاط Humors

قسم الطبيب اليوناني هيبوقراط الناس إلى أنماط تبعاً لكيمياء الدم . وقرر أن هناك رابطة بين هذه الأخلاط والأمزجة . فالباس لديه أربعة أنواع كل نوع له حياته المزاجية الخاصة ، كما أن له الأمراض الخاصة التي يتعرض لها تبعاً لتكوين الدم عنده . وهذه الأنواع هي :

١ - الصفراوي choleric وهو حاد الطبع متقلب المزاج .

٢ - والسوداوى أو الميلانكولي melancholic وهو يميل إلى الحزن والنظر إلى الحياة نظرة سوداء .

٣ - والمفاوى Phelagmatir وهو بارد في طباعه جاف :

٤ - والدموى sanguin وهو يتميز بالمرح والأمل في الحياة ، ولم يثبت العلم صدق نظرية هيبوقراط ، وإن كان قد أثبت العلاقة بين إفرازات الغدد والسلوك كما سبق أن شرحنا .

■ - نظرية كرتشمير :

حاول الطبيب الألماني كرتشمير ما بين سنة ١٩٢٠-١٩٣٠ أخذ مقاييس جسمية للمرضى في المستشفيات بأمراض عقلية . وقد وصل نتيجة لهذه المقاييس إلى ثلاثة أنماط جسمانية هي :

١ - النمط النحيل Asthenic or leptosomic . وصاحب هذا النمط يتميز بالنحافة وضيق العظام وفقر الدم - وجفاف الجلد - وطول الذراعين ونحافة الكتف ، وضعف العضلات أو الافتقار إليها - ورقة اليدين .

٢ - النمط الرياضي Athletic : ويتميز الفرد من هذا النمط بالقوة البدنية وانتشار العضلات في جسمه وضخامتها ، واتساع القفص الصدري ، ونحافة الخصر وضيق الحوض - واكتساء ساقيه وذراعيه بالعضلات .

٣ - النمط السمين Pyknic وفي رأيه أن هذا النوع لا يكتمل النمو فيه إلا في أواسط العمر . ويتميز باستدارة الجسم ، واتساع الحوض ، كذا سمته الأطراف مع قلة العضلات .

ويقرر كرتشمير أن هذه الأنماط ليست متميزة تماما . إذ قد تختلط بميزاتها في بعض الأفراد . وقد وجد بدراسته لمائتين وستين ٢٦٠ من المرضى بالقصام والجنون الدوري أن معظم المرضى بالقصام من النمط النحيل أو النمط الرياضي بينما المرضى بالجنون الدوري من النمط الثالث السمين . ولما حاول تطبيق نظريته على عينة من السويين من غير المرضى - وجد أن السويين من ذوى النزعة الدورية Cyclothymes أى أولئك المتقلبون في عواطفهم الذين

يتذبذبون في مزاجهم بين الفرح والحزن من الغط الثالث السمين . ووجد أن ذوى النزعة الفصامية Schi-othymes ممن يتقلبون بين الحساسية الزائدة والبرود العاطفي وهم المتقلبون نفسيا الجامدون من النوعين الأول والثاني . وخلاصة القول أنه قد وجدت معاملات ارتباط فعالين أنماط كرتشمر الجسدية والصفات النفسية وخاصة مرضى الجنون الدوري والفصام . غير أن هذه النتائج ليست قاطعة .

● - نظرية شلدون :

رأى شلدون أن ما يؤخذ على نظريات الأنماط الجسدية هو أنها تقسم الناس إلى أقسام أو فئات يتفصل بعضها عن البعض . وهذا خطأ لأن أى عامل من العوامل النفسية أو الاجتماعية وحتى الجسدية إنما يمثل ظاهرة متدرجة من أقل درجة إلى أعلى درجة ولا يمكننا تحديد النقطة في هذا المدرج التي يمكننا عندها أن نضع خطاً أو خطوطاً تقسم الناس إلى فئتين أو أكثر . لذا حاول في أنماط أن يضع هذا التارج محل الاعتبار للربط بين الصفات الجسدية والصفات النفسية . وتعتبر نظريته أحدث نظرية في هذا المجال .

لقد حاول أولاً أخذ المميزات الجسدية بأخذ ثلاث صور فوتوغرافية لكل فرد وهو مجرد من ملابسه من الأمام ومن الخلف ومن الجانب ، وقد مكنه هذا من أن يضع الفيلم السلبي للصور الثلاث للفرد الواحد على بعضها ويعكسها على شاشة فأصبح لديه بهذا الشكل صورة لها ثلاثة أبعاد ظاهرة للفرد . وبتطبيق المقاييس الجسدية تمكن من الوصول إلى ثلاثة أنماط أساسية :

١ - النمط البطني endomorphy : ويتميز أصحاب هذا النمط من الناحية الجسدية بامتلاء الجزء حول الجهاز الهضمي أى سمته البطن . وهم عادة ذوو أجسام مستديرة رخوة .

٢ - النمط العضلي mesomorphy : ويسود في هذا النوع العضلات والعظام المتطرفة فيهم النوع القوى من الرجال من رجال الرياضة والسيرك .

٣ - النمط النحيل ectomorphy : ويتميز أصحابه بالنحافة والنعومة .

ولتحديد النمط الذي ينتمي إليه الفرد . يقدر الفرد على ثلاثة موازين تقديرية كل ميزان يمثل نمطا من هذه الأنماط الثلاثة ، ويتكون كل ميزان من سبع درجات أو سبع فئات . يعطى للفرد الواحد درجة على كل هذه الموازين لبيان درجة ما لديه من كل منها . وعلى هذا الأساس يكون نمط الفرد عبارة عن حصيلة درجاته على الموازين الثلاثة . ويتحدد نمطه بسيادة درجته على واحد منها بالنسبة للدرجة على الميزانين الآخرين . فإذا فرضنا أن درجات فرد كانت ٧-١-١ فهو من النمط البطني المتطرف . وإذا كانت درجته ٤-٤-٤ فهو شخص متوازن في بنيته . وانتهى شلدون إلى تحديد ٧٦ نمطا من الأنماط الجسمانية .

ولتقدير الصفات المزاجية لهذه الأنماط اختار ٥٠ سمة من السمات من عدد كبير من السمات التي تمثل الانطوائية والانبساطية . ثم اختار مجموعة من الطلبة وحاول تقديرهم في هذه السمات على ميزان للتقدير درجاته سبع . وحاول إيجاد معاملات الارتباط بين هذه السمات لكي يجد المجموعات التي ترتبط ببعضها . وبعد حذف وإضافة انتهى إلى ميزان لقياس المزاج يتكون من ٦٠ سمة كل منها يتجمع مع بعضها .

وسمى مجموعة السمات الأولى أ : النزعة الإحشائية : viscerotonia

ويتميز من توجد فيه هذه السمات بالبساطة والحياة المرحية واللذة في الأكل والشراب والروح الاجتماعية والصبر واحتمال الغير والحاجة إلى الناس والحاجة إلى اللهو وتسيطر عليه معدته وأمعائه .

(ب) النزعة البدنية Somatonia : ويتميز أصحابها بالنشاط الجسماني والقدرة على بذل الطاقة والمجهود وحب السيطرة والمخاطرة والصراحة في معاملة الناس ويسيطر عليهم الاندفاع والقوة .

(ج) النزعة المخية Cerebrotonia : ويسيطر فيها المخ . وصاحبها مقيد لا يتميز بالطلاقة ويميل إلى العزلة والابتعاد عن المجتمعات .

وقد حاول إيجاد معاملات الارتباط بين هذه النواحي المزاجية وأنماطه الجنسية . فوجد أن كل واحدة منها ترتبط بنحط من أنماطه الجنسية .

ولا ينكر العلماء فائدة النظام الذى وضعه لقياس الصفات الجنسية ، بيد أنهم يتشككون فى الرابطة التى يراها بين هذه الأنماط والصفات المزاجية .

دراسات ليفى فى الأمومة والتكوينات الجنسية

قام ليفى Levy بدراسات عدة لبيان الأسباب التى تؤدى ببعض الأمهات إلى حماية أطفالهن حماية زائدة تؤثر على شخصياتهم فيما بعد . فقد لوحظ أن الأمومة ما هى إلا مظهر من مظاهر شخصية الأم سواء فى الطفولة أو بعد البلوغ . إذ أن الأمهات اللاتي يفترقن إلى الأمومة يزهدن فى أطفالهن ، كن كذلك فى طفولتهن ، وأن الخبرات التى تؤدى بالأم الحنون إلى زيادة نزعة الأمومة عندها كخيانة الزوج وقضاء فترة طويلة من العقم قبل إنجاب الأطفال ومرض الطفل وعجزه الجسدى « تؤدى إلى العكس أو تؤثر فى الأمهات اللاتي يفترقن إلى الأمومة . أدت هذه الملاحظات إلى محاولة البحث عما إذا كانت هناك أسس جنسية لقوة نزعة الأمومة أو ضعفها . والملاحظة العامة تبين أنه يبدو أن هناك من النساء من يولدن ليكن أمهات بصرف النظر عن الخبرة والمران « بينما هناك من يكرهن القيام بهذا الدور ويفترقن منه مهما دربن على ذلك .

وعلى أساس المقابلة والاستفتاءات اختيرت ثلاث مجموعات من النساء ، تضم الأولى نساء يتميزن بقوة نزعة الأمومة عندهن ، وتضم الثانية نساء متوسطات فى هذه النزعة ؛ بينما تضم الثالثة نساء لديهن نزعة الأمومة ضعيفة جداً .

ومن الأمثلة على النساء ذوات النزعة القوية فى المجموعة الأولى امرأة كان لها أربعة أطفال وحامل فى الخامس . كانت « هى طفلة تحب اللعب بالدى » وظلت تلعب بها حتى سن متأخرة (١٤ سنة) وكانت تزور وهى فتاة صديقات أمها لرعاية أطفالهن . وحين تزوجت كانت تمنى إنجاب ستة أطفال

وكانت كلما رأت طفلاً في الطريق تشعر برغبة قوية في أن تحمله بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها. وكانت تهوى التطاع إلى الأطفال في عرباتهم في الطريق قبل الزواج وبعده. وكانت تشعر بالتعاسة لأنها تركت طفلها الأول في رعاية مربية. وقد أرضعت جميع أطفالها رضاعة طبيعية بنفسها. وكان لبنها غزيراً وقد كانت تدلل أولادها كثيراً. كثيراً ما دخلت في معارك مع نفسها وتقسو عليهم أحياناً لكي لا تقوم بذلك.

ومن الأمثلة على النساء ذوات النعومة الضعيفة في المجموعة الثالثة حالة - أم لطفلين لم تابع قط في طفولتها دور الأم بالدمى ولا للأطفال الغير. ولم تكن تميل باللعب بالدمى. وتخلت عن اللعب بها وهي في سن السادسة. ولم يكن يهملها منظر أى طفل جميل في الطريق. ولم يسبح خيالها وهي مرافقة في الرغبة في أن تكون أمّاً لها أطفال. وكانت تتمنى الزواج ولكنها لم تتمكن أبداً أن تكون أمّاً. فلما أنجبت أطفالاً شعرت بأنها غير كفء لهم. ولم تطعم الطفل من ثديها أكثر من أسبوعين لكرهيتها لعملية الرضاعة. وعلت ذلك بأنها شعرت كأنها بقرة حلب. وكانت تكره العناية بأطفالها جسمانياً على الرغم من قيامها بواجباتها نحوهم. ولم تشعر في أى وقت برغبة في القيام بدور الأم بالنسبة لأى رجل. وكانت ميولها على الرغم من ذلك أنثوية ومحبوبة من الرجال.

أما المجموعة التى تضم نساء في درجة متوسطة، فكانت تضم كل الأمهات اللاتي يقعن في منتصف الطريق بين نساء المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة. ومن الأمثلة على هذا النوع أم لها طفل واحد. لعبت بالدمى حتى سن السادسة أو الخامسة. ولم تكن تميل ميلاً خاصاً إلى لعب دور الأم في الطفولة. وظلت لمدة سنتين بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرها ترعى أطفال بعض الجيران لأنها كانت تحب ذلك. لم تفكر قط في عدد الأبناء الذين ترغب فيهم. ولم يسبح خيالها في الأمومة. وكانت إذا رأت طفلاً جميلاً في الطريق تعجب به ولكن لا ترغب ضمه أو حمله. فلما تزوجت حملت مباشرة برغبتها وأنجبت

طفلاً رعته بنفسها وكانت تحنو عليه . وقد وجدت صعوبات في الحمل وحذرهما الأطباء من الحمل مرة ثانية .

وهكذا كانت المعايير التي قسمت النساء لها تبعاً لها في المجموعات هي :

اللعب بالدمى ، القيام عن رغبة بدور الأمومة ، التفكير في عدد الأطفال المزمع إنجابهم ، والخيال في الأمومة ، ونوع الاستجابة للأطفال ، الرغبة في الرضاعة والعناية بالأطفال ، المهنة وتقضية وقت الفراغ ، وتقدير النفس على ميزان التقدير في صفة الأمومة .

جمعت بعد ذلك بيانات عن الوزن ، والطول وعرض الصدر ، وعرض الإليتين ، وحجم الثديين ، وسعة هالة حلمة الثدي ، وطول مدة الحيض ودورته . وشكل الجسم العام .

وقد وجد بمحاولة إيجاد معاملات الارتباط بين هذه العوامل والأمومة ، أن أعلى معاملات الارتباط الإيجابية (٠.٥٨) كان بين الأمومة وطول فترة الحيض . أي أنه كلما قصرت فترة الحيض كلما ضعفت نزعة الأمومة وكلما طالت الفترة قويت النزعة . فكانت غالبية النساء ممن تستمر عندهم فترة الحيض أربعة أيام أو أقل في المجموعة الثالثة من الأمهات ممن تضعف عندهن الأمومة بينما توجد غالبية النساء ممن يستمر عندهن الحيض ستة أيام أو أكثر في المجموعة الأولى ممن لديهن هذه النزعة قوية .

كما كان هناك معامل ارتباط إيجابي بين حجم هالة حلمة الثدي والأمومة ومعامل إيجابي بين حجم الحلمة وقوة الأمومة أيضاً . أما المعاملات بين الأمومة والعوامل الأخرى فكانت منخفضة أو سلبية .

ويرى ليفي أن هذه الارتباطات لا ترجع إلى الصدفة ، وأن هناك صلة بين الأمومة والتكوين الجسماني ، غير أننا لا زلنا في حاجة إلى دراسة أعم من ذلك لتأكيد مثل هذه العلاقة .

ملخص

لا تؤثر الوراثة في السلوك بطريق مباشر ولكن عن طريق التكوينات الجسمية . والتكوينات الجسمية التي لها صلة بالسلوك هي :

١ - الأعضاء المستقبلية للاحاساسات من خارج الجسم أو من داخله أو من المفاصل .

٢ - الجهاز العصبي المركزي الذي يتكون من اللحاء والمخيخ والنخاع المستطيل والنخاع الشوكي ، كذا الجهاز العصبي الأوتونومي بقسميه السمبثاوي والباراسمبثاوي .

٣ - العضلات الإرادية واللاإرادية والغدد . ولكل من هذه الأعضاء وظيفته التي تؤثر تأثيراً مباشراً في السلوك .

والنظريات التي تفسر علاقة التكوينات الجسمية بالسلوك متعددة . ولا يقوم بعضها على أساس علمي سليم كنظرية الفراسة ونبوءات الجمجمة والاختلاط ومن النظريات الهامة التي تبين هذه العلاقة نظرية كرتشمير ونظرية شلدون . والأساس العلمي فيهما واضح ، غير أنهما لا تسلمان من الانتقادات التي توجه إليهما .

وهناك دراسات علمية تحاول إيجاد الرابطة بين تكوينات جسمية معينة ومظاهر معينة في السلوك . من هذه الدراسات دراسة لينج التي حاول فيها إيجاد الصلة بين الأمومة ومظاهر جسمية معينة كطول فترة الحيض وحجم حالة الثدي وحاسته .



الفصل السادس

أسس السلوك

٣ - النضج

ماذا يقصد بالنضج :

النضج من الأسس البيولوجية للسلوك : ويدرس موضوع النضج عادة مع الوراثة كتمهيد لدراسة مراحل النمو . وسوف نتطرق إلى ذلك في الحديث عن هذه المراحل « وهناك محاولة دائمة بين الكتاب للتمييز بين التغيرات التي تطرأ على الكائن نتيجة للنضج والتغيرات التي تطرأ نتيجة للتعلم .

ويذكر كار مايكل في الفصل الذي كتبه في كتاب ستيفنس « علم النفس التجريبي » أن النضج يطلق على عمليات مختلفة من النمو . وأن النضج لا يسبب التغيرات التي تحدث في الكائن الحي كلما نما . إنما هو مصطلح يطلق على عمليات النمو المختلفة التي تؤدي إلى تغيرات في الكائنات الحية يمكن ملاحظتها بمرور الوقت ، وهو يضع معايير ثلاثة تميز التغيرات التي تعزى إلى النضج عن التغيرات التي تعزى إلى التعلم . وهذه المعايير هي :

١ - إذا كان هناك نمط من أنماط السلوك ينمو ويتطور في كل الأفراد الذين يبدوون كأفراد سويين ، لهم نفس التكوين الفسيولوجي ، فيعزى هذا إلى النضج لا إلى التعلم « يستثنى من ذلك بعض العادات السائدة كحركة الذراع مثلاً في تقريب الطعام إلى الفم . فبعض عناصر هذه الحركة متعلمة على الرغم من أن الطفل في مدينة نيويورك يقوم بها كما يقوم بها الطفل في غابات غينيا الجديدة .

كما يوجد بالتالي بعض الاستجابات التي تتم دون أن تسود بين جميع

الأفراد : إذ توجد بعض الآليات العصبية لبعض العمليات تظل خامدة دون أن تنشط مدى حياة الفرد ، فقد لوحظ أن بعض مظاهر الاستجابات الجنسية لا تظهر في أنثى خنزير غينيا إذا ربيت في معزل ولم تهيأ لها المؤثرات الضرورية لاستثارة مثل هذه الاستجابات .

٢ - والمعيار الثاني الذي يميز النضج عن التعلم هو كما يلي : إذا لوحظ تغير في سلوك الكائن الحي ، ولم يصل هذا التغير إلى حد من النضج يمكن معه تكوين العادات ، فيعزى هذا التغير إلى النضج لا إلى التعلم ، وتوجد بعض المظاهر يمكن استثنائها من ذلك كما هو الحال في المعيار الأول .

٣ - أما المعيار الثالث فهو أن السلوك المنظم يظهر أحياناً لأول مرة في الكائن الحي الذي لم تتح له فرصة بعد لتعلم هذا السلوك . وأصدق مثل على هذا أن أحد أنواع السلاحف يهرب بعد مدة للفقس تتراوح ما بين ثلاثة أيام وخمسة ويروح مباشرة إلى البحر ويعوم دون توجيه أو إرشاد سابق . ولعل مثل هذه الاستجابة تستثيرها رؤية الضوء المنعكس على سطح الماء .

ولزيادة إيضاح ما يقصد بالنضج وما يقصد بالتعلم يرى أن التعلم عبارة عن عملية تتضمن تغيرات في الكائن الحي ، ولا يؤدي هذا التغير إلى حدوث استجابة إلا إذا كانت هناك فرصة للكائن الحي للقيام بنشاط معين .

ويرى كارمايكل أن أحسن مثل لعمليات النضج الحالية تلك التغيرات التي تعزى إلى الكائن الحي داخل رحم الأم . ففي رأيه أن هذه التغيرات تتم دون أن يكون للتعلم أى أثر فيها . وهو يؤكد أن هذا لايعنى توقف عمليات النضج بعد الولادة ، إذ تستمر لفترة طويلة من حياة الكائن الحي قبل حدوث تغيرات نتيجة للتعلم . وإن كان في رأى كارمايكل الكثير من الصحة غير أن هناك بحثاً على إمكانية حدوث التعلم داخل الرحم .

لقد استعرضت ماكجرو McGraw في الفصل الذي كتبه في كتاب كارمايكل « المرجع في سيكولوجية الطفولة » النشأة التاريخية لمصطلح النضج وهي تعزو الفضل إلى جيزل Gesell (١٩٢٩) في محاولة نشر هذا المصطلح كمصطلح علمي في دراسة النمو وسيكولوجية الطفولة . وتذكر أن الأصل في استعمال هذا المصطلح هو أن علماء الجينات وعلماء الأجنة كانوا يطلقونه على فترة النمو التي تسبق عملية الإخصاب، والتي تحول فيها الخلايا الجنسية غير مكتملة العدد في كروموزوماتها إلى خلايا ناضجة مكتملة في عدد الكروموزومات. وقد سبق لنا أن شرحنا هذه العملية إذ بينا أن الخلايا الجنسية لا يكتمل فيها عدد الصبغيات أو الكروموزومات نتيجة لعملية الانقسام - الاختزال . وتعود الخلايا إلى تكوينها الطبيعي في الكروموزومات أثناء عملية الإخصاب. وهذا ما كان يطلق عليه العلماء بالنضج. فكأن هذه اللفظة كان لها استعمال خاص تطور بمرور الزمن على أيدي علماء النفس فأصبح لها معنى أعم .

وقد استعرضت التعاريف المختلفة التي أعطاها الكتاب المختلفون في علم النفس لهذا المصطلح . وبينت كيف تضاربت الأقوال في محاولة التمييز بين العمليات التي تتم عن طريق النضج والعمليات التي يبدو فيها أثر التعلم . غير أنها تذكر أنهم في تحديد النضج كانوا يقصدون جميعاً ظهور قدرات خاصة دون أي أثر للمران كما كانوا يقصدون الظهور المفاجيء لمظاهر سلوكية جديدة ، واطراد أنماط السلوك وتسلسلها بنظام واحد في أفراد النوع الواحد مع الاستمرار التدريجي في النمو . ومن الأمثلة على ذلك أن كل الأطفال يحاولون مد أيديهم للمسك بأي شيء في المجال البصري قبل محاولتهم الجلوس، وأنهم يقفون قبل أن يتمكنوا من المشي وأنهم يزحفون قبل أن يتمكنوا من الوقوف . وأن هذه العمليات تتم في تسلسل مطرد لا يختاف من طفل إلى طفل . فهذا في رأيهم يتم عن طريق النضج .

وبعد أن استعرضت البحوث المختلفة التي تدل على عمليات النضج انتهت إلى أنه لا شك أن لفظة النضج لها معنى خاص عند علماء النفس فهم يقصدون

بها التغير في السلوك الناشئ عن تطور تشريحي أو فسيولوجي في الجهاز العصبي للفرقة بينه وبين التغير الذي يتم بالمران أو الوظيفة . وهناك من الأدلة ما يدل على أن بعض تغيرات التكوينات الجسمانية تتم قبل قيام هذه التكوينات بوظيفتها ، غير أن هناك من الأدلة أيضاً على أن بلوغ النضج والاكتمال في التكوينات العصبية لا يعني بداية هذه التكوينات بوظيفتها ، كما تساعد الظروف المناسبة التي تساعدها على القيام بهذه الوظيفة « كما تساعد الظروف المناسبة على تطور ونمو تكوينات الجهاز العصبي وهذا الشكل لا يمكننا الفصل فصلاً تاماً بين اكتمال نضج العضو وقيامه بوظيفته كعمليتين مستقلتين من عمليات النمو . إذ هما عمليتان متصلتان وقد يكون أثر أحدهما أكبر من أثر الآخر أحياناً وبالعكس .

النضج ومراحله قبل الولادة :

يقول تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (سورة المؤمنون) .

يمر الكائن البشري منذ اللحظة التي يتم فيها تلقيح البويضة حتى انولاده بثلاث مراحل في داخل الرحم وهي :

- ١ - مرحلة العلقة أو المرحلة الجرثومية
period of the ovum
- ٢ - مرحلة المضغة
the embryonic period
- ٣ - المرحلة الجنينية
the fetal period

١ - مرحلة العلقة : وتمتد هذه الفترة من لحظة الإخصاب حتى نهاية الأسبوع الثاني إذ يتقابل الحيوان المنوي للرجل مع بويضة المرأة ويكونان خلية واحدة تسمى بالزيجوت Zygote . تنقسم هذه الخلية إلى اثنين ثم إلى أربع وثمانية وهكذا حتى تتكون مجموعة من الخلايا . يحدث تمايز بين هذه الخلايا ينتج عنه تكامل البعض في الداخل وتكامل البعض حوله الكتلة الداخلية أي خارجها . وتطور الكتلة الخارجية إلى زوائد للحماية وللتغذية . وفي خلال

الأسبوع الثاني تثبت هذه العلفة نفسها في رحم الأم وتستمد تغذيتها من الأم، وبذا تم المرحلة الأولى .

٢ - مرحلة المضغة : وتمتد هذه المرحلة من نهاية الأسبوع الثالث حتى نهاية الأسبوع الثامن : وتتميز هذه المرحلة بالتغير السريع ، وأهم مظاهر هذا التغير هو نمو المضغة في اتجاهات مختلفة لتكوين أجزاء الجسم المختلفة : إذ يمكن في نهاية الأسبوع الرابع تمييز الفم والجذع والأعضاء الداخلية . وتتخذ المضغة في نهاية الأسبوع الثامن الشكل الأدنى بوضوح . فتبدو الرأس ضخمة ويكاد حجمها يوازي حجم بقية الجسم . وتتخذ الذراعان والساقان سبيلها في طريق التطور والنمو : وتكون العضلات قد تكونت . وتدب الحركة التلقائية في المخلوق . وهذه المرحلة هي المرحلة التي تتكون فيها أعضاء الجسم أو يبدأ تكوينها على الأقل .

٣ - المرحلة الجنينية : وتمتد هذه المرحلة من نهاية الأسبوع الثامن حتى الميلاد وهي فترة نمو سريع تتميز بنزائد في حجم الأعضاء التي ظهرت في المرحلة السابقة ويتغير في نسب أجزاء الجسم بعضها إلى بعض . كما تتميز ببدء ظهور السلوك وتطوره السريع . إذ يظهر نشاط الجنين في الداخل رداً على مؤثر خارجي حول الأسبوع السادس عشر . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الحركة التلقائية تدب في المضغة في الأسبوع الثامن . وتشمل الحركات التلقائية الآن حركة الذراعين والساقين . وتتمكن الأم من الإحساس بمثل هذه الحركات . وأول ظهور الأفعال المنعكسة في الجنين يكون حول ذلك الوقت تقريباً . وكلما مرت الأيام كلما كان من الممكن الحصول على استجابات مختلفة من الجنين بالاستثارة الخارجية . إذ تنمو التكوينات الجسمية التي تتصل مباشرة بالنشاط أو السلوك مثل أعضاء الحس والجهاز العصبي والعضلات والغدد . وقرب الوضع لا يكون هناك أي فرق ملاحظ بين استجابات الجنين ، واستجابات الطفل حديث الولادة .

دراسات في نضج الأجنة :

كانت الطرق التي اتبعت في دراسة النضج ومراحل النمو للأجنة واحدة من ثلاثة . إما دراسات تجريبية على أجنة الحيوانات ، أو دراسة الأجنة الآدمية غير مكتملة الحمل التي استخلصت نتيجة لعمليات الاجهاض أو العمليات القيصرية ، أو دراسة حركات الجنين بالأجهزة الخاصة . بالإضافة إلى تقارير الأمهات عن حركات الأجنة في بطونهن . ويجد القارئ عرضاً تاماً لهذه البحوث في كثير من مراجع النمو والطفولة الأجنبية لذا سنكتفي بعرض أهم البحوث ذات الدلالة في هذا الفصل .

١ - دراسات على الحيوان :

١ - دراسات كوجيل Coghill

وتعتبر هذه الدراسات من أهم الدراسات في الموضوع لما كان لها من أثر من الناحية التجريبية والناحية النظرية . ولعل أشهر هذه الدراسات دراسة أجنة السلامندر المعروفة بالامبليوستوما ، إذ لاحظ كوجيل أن النضج الجسماني الذي يساعد هذا الحيوان على السباحة يمر بخمس مراحل هي :

- ١ - مرحلة السكون أو عدم الحركة : وفي هذه المرحلة يؤدي التأثير على الحيوان بمؤثر آلي كهربائي إلى تقلص عضلي واستجابة يمكن ملاحظتها .
- ٢ - أما مرحلة النمو التالية ففيها ينتهي الحيوان مكوناً شكل حرف C إذا لمس جلده لمسة خفيفة في أي مكان . ٣ - يؤدي لمس الجلد في المرحلة الثالثة إلى انثناء قوية تشبه الانثناء في المرحلة السابقة ، غير أن العضلات في هذه المرحلة تكون مشدودة شداً قوياً والانثناء أقوى . ٤ - ويتميز رد الفعل في المرحلة الرابعة بانثناء الرأس وانثناء الذيل في اتجاه مضاد مكوناً الحيوان شكل الحرف S .

■ - أما المرحلة الخامسة فتتميز بتوالي الانثناءات للرأس والذيل انثناءات متتالية مميزة لحركة السباحة لفصيلة هذا النوع من الحيوان .

وقد اتخذ العلماء تتالى هذه المراحل كنموذج لمرحل النمو الحركى التى تمر بها كثير من الحيوانات . وقد أدت هذه الدراسة وغيرها إلى استخلاص بعض مبادئ النمو التى أصبحت شبه ثابتة وأهمها :

١ - مبدأ التفرد individuation : إن السلوك تكون أنماطه عامة وتتفرد منه وحدات صغيرة بالتدرج متمايزة . وهذا يخالف الآراء القديمة السائدة التى ترى أن أنماط السلوك تتكامل من مجرد أفعال منعكسة بسيطة ينضم بعضها إلى بعض ، فحركات العضو الواحد الأولى عبارة عن حركة عامة متداخلة مع حركة كل الجسم ، وتتفرد بالتدرج وتصبح لها حركتها الذاتية المستقلة .

٢ - مبدأ تسلسل النمو : إذ يسير النمو من الرأس إلى القدم أو من أعلى إلى أسفل proximo-distal ومن الداخلى إلى الخارج cephalo-caudal إذ تظهر حركة الرأس أولاً قبل حركة بقية الجسم . وبلى ذلك حركة الأجزاء التالية للرأس نازلة إلى أسفل . كما يسير النمو من الداخلى إلى الخارج إذ ينضج الجذع أولاً ويتدرج النضج من الأجزاء الأقرب إلى الجذع فالخارج .

وقد أكدت هذه المبادئ دراسات مماثلة قام بها كورونيوس على أجنة القبط ودراسات قام بها كيو على أجنة الدجاج ، ودراسات كارميكل على أجنة أرنب التجارب ■ خنزير غينيا ■ .

٢ - دراسات كارميكل :

استغل كارميكل الامبايومستوما أيضاً فى دراساته . إذ أخذ مجموعة كبيرة منها قبل أن تصل إلى مرحلة الحركة فى نموها وقسمها إلى مجموعتين ، اتخذت إحداها كمجموعة ضابطة والثانية كمجموعة تجريبية . وضعت المجموعة التجريبية فى ماء به محلول مخدر ■ محلول الكاوريثون ■ وتركّت المجموعة الضابطة لتنمو فى الماء العادى ، فظهر فى مرحلة معينة من النمو أن المجموعة الضابطة بدأت تقوم باستجابات عنيفة وسبحت ، بينما لم تقم المجموعة التجريبية بمثل

هذه الاستجابات بتأثير المخدر على الرغم من استمرار نموها الجسدى « وبعد أن نقلت إلى الماء العادى بدقيقة أو اثنتين ، لما زال أثر المخدر ، بدأت تسبح ، وتمكن عدد منها فى بحر نصف ساعة من إجادة السباحة إجادة أفراد المجموعة الضابطة ، حتى أنه كان من الصعب تمييزها عن بعضها « على الرغم من أن أفراد المجموعة الضابطة ظلت تسبح قبل التجريبية لمدة خمسة أيام .

وتتخذ هذه الدراسات دليلا على أن النمو العصبى والنمو الآلى الذى يتوقف عليه السلوك يتم فى هذه الكائنات سواء أكانت هناك عوامل خارجية مؤثرة أم لا .

(ب) دراسات على الأجنة البشرية :

١ - دراسة هوكر Hoo er

حاول هوكر فى هذه الدراسة الحصول على ردود أفعال لثمانية وتسعين جنينا تراوح مدة الحمل فيها ما بين سبعة أسابيع من بدء الحمل إلى مدة تتعدى الحمل الكامل قدرها خمسة وأربعين أسبوعا . إذ أن مدة الحمل تكون عادة أربعين أسبوعا من بدء الحمل . وكانت غالبية الحالات حتى سن ٢٥ أسبوعا من تاريخ الحمل للحالات استخلصت بعمليات جراحية تمت لأسباب طبية لم يكن للأمهات رأى فيها ، وكان الجنين يستخرج فى هذه الحالات من الرحم بعد قطع الأجزاء التى تربطه بالأم ، وينقل إلى المعمل فىوضع فى محلول معين تحت عدسات التصوير ، وتوضع المشيمة فى وعاء منفصل فى جو مرطب من الأوكسجين . وكان الوقت الذى يمر بين فصل الجنين وبدء الملاحظة فى غالبية الحالات لا يتعدى الدقيقة والنصف أو الدقيقتين .

وفى حالات الإجهاض التلقائى للأجنة التى تزيد مدة حملها على خمسة وعشرين أسبوعا كانت المحاولة تبذل لإنعاش الجنين إذا كان هذا ممكنا ، ووضعه فى سرير خاص « ومدّه بالأوكسجين ، وفحصه قبل نقله إلى المكان الخاص بالأطفال فى المستشفى .

وكان المؤثر الذى استعمل للحصول على استجابات من هذه الأجنة عبارة عن شعيرات مختلفة الوزن مرتبة ترتيباً تقريبياً من حيث أقصى ما يمكن أن تعطيه من درجات فى الضغط . وكانت هذه الشعيرات متينة . يزن ضغطها ما بين ١٠ و ٢٥ و ٥٠ و ١٠٠ مليجرام ، واثنين و ١٠ جرام . وكانت كل شعيرة تنتهى من طرفها بنحزتين من أسمنت اللوكو حتى لا ياحق أى أذى بجلد الجنين من الشعيرة .

وقد بينت الدراسة ما يأتى :

١ - يبدأ السلوك فى حوالى الأسبوع السابع والنصف أو الأسبوع الثامن من تاريخ بدء الحمل فى شكل تقلص جانبي « غالباً فى اتجاه مضاد للجانب الذى أثر فيه المؤثر . وكان هذا يتم بانتظام فى الجزء العلوى من الجذع وعضلات الرقبة . ومن الجائز أن باكورة هذه الاستجابة لاتتضمن حركة الأطراف . غير أن حركة هذه الأجزاء وخاصة الأطراف العليا تنسق مبكراً مع الجذع .

٢ - تسرى الاستجابة المبكرة سريعاً من أعلى إلى أسفل لتشمل أسفل الجذع والردفين فى حركة ينحني فيها الجسم فى الاتجاه المضاد للجزء الذى وقع عليه المؤثر.

٣ - تظهر الأفعال المنعكسة النوعية - وهى عادة محاية - منذ بداية الأسبوع العاشر أو الأسبوع الحادى عشر ، وينتهى انحناء الجذع انحناء جانبياً مضاداً ليحل محله حركة مط الجذع .

٤ - وتبدل بين الأسبوع الثالث عشر والأسبوع الرابع عشر كل الحركات الهامة تقريباً فى شكل أفعال منعكسة نوعية ترتبط مع بعضها فى أوجه نشاط معقدة متعددة .

تظهر بعض عناصر النشاط الجديدة فى الأسبوع الرابع عشر من بينها المص والنفس وحركة الحنجرة وحركة المساك وما إلى ذلك . وفيما عدا ذلك

يكون تطور الجنين خلال الأشهر الستة أو السبعة التمرية عبارة عن عملية نضج للأفعال المنعكسة الموجودة وللجهاز العصبي العضلي الذي يقوم بها .

٦ - يتمشى هذا التسلسل تماماً مع مبادئ كوجهل في النمو .

٢ - دراسة سبلت spelt :

وتختلف هذه الدراسة عن الدراسة السابقة في أنها تبين إمكانية التعلم في داخل الرحم . كما أنها دراسة تمت فيها ملاحظة حركة الجنين من الخارج بالأجهزة . فالمعروف أن الصوت العالي يؤدي إلى استجابة الطفل داخل الرحم وتكون الاستجابة عادة عبارة عن حركة عنيفة من الرأس أو الأطراف يمكن تسجيلها بجهاز ملتصق بأسفل بطن الأم . كما تتمكن الأم نفسها من الإحساس بها . تمكن سبلت من تكوين فعل منعكس شرطى متعلم في مدة الشهرين الأخيرين من الحمل بتكرار إحداث صوت عال من ١٥ إلى ٥٩ مرة . يصحبه إحداث ذبذبة من مؤثر ملتصق بأسفل بطن الأم . فلما كانت تحدث الذبذبة وحدها بعد ذلك دون مصاحبة الصوت كان الطفل يقوم بنفس الاستجابات التي تحدث كرد فعل للصوت . بمعنى آخر تعلم الطفل الاستجابة للذبذبات لا تعتبر في الأصل مثيرة لأى رد فعل . ويقال الآن أن الطفل يسمع داخل الرحم إذ بينت التجارب ذلك (جرموود وآخرون ١٩٧٠) .

العلاقة بين النضج والمران :

إن العلاقة بين هاتين العمليتين كما تقرر ماكجرو هي ضرورة بلوغ النضج والاكتمال للتكوينات الجسمية المعينة حتى تتمكن هذه التكوينات من القيام بوظيفتها . كما أنه من المحتم وجود الظروف المناسبة التي تحفز على قيام العضو المكتمل بوظيفته ، ولعل أحسن مثل على العلاقة بين النضج والمران هو تعلم اللغة . فلكى يتعلم الطفل الكلام لا بد أن تصل عنده أعضاء الكلام إلى مرحلة من النضج معينة . كما يتحتم سماع الطفل للكلام حتى يستعمل أعضائه الناضجة المهيأة للاستعمال .

ويستخلص هيلجارد (١٩٧٠) من التجارب التي أجريت لتحديد أثر النضج وأثر المراتب المبادئ الآتية التالية :

١ - يسهل أداء نمط معين من السلوك إذا قام هذا النمط على أنماط موجودة فعلاً وناضجة . فكل أطفال العالم يصلون إلى مرحلة من النضج يخرجون معها أصوات مثل ما - با . لذا يمكن استغلال هذه الأصوات الطبيعية التي أدى إليها النضج لتعليم كلمات لغوية تشبه هذه الأصوات مثل ماما وبابا وبابى وبابى .

٢ - تظل درجة النمو واحدة في الفرد بصرف النظر عما يتعرض له من خبرات ، فهناك تجربة لجيزل وتومبسون حاولا فيها تدريب توأمين متحدين على صعود السلم . فلما كان عمرهما ٤٦ أسبوعاً أعطيت إحداها تمريناً يومياً مدته عشر دقائق لصعود السلم . واستمر تمرينها لمدة ستة أسابيع ثم أوقف تمرينها . وبعد أسبوع من إيقاف التمرين بدى في تمرين أختها لمدة أسبوعين فقط فتمكنت من أن تعادل بل تتفوق عليها في صعود السلم . علماً بأن أختها قد مرت مدة أطول من مدتها . ويرجع الباحثون ذلك إلى أن الأخت الثانية كانت أكبر سناً حين بدى في تمرينها ، أى أنها كانت أنضج واستعدادها أتم . حقاً لقد أدى التمرين المبكر إلى التذكير في تعليم إحداها صعود السلم قبل الأوان ، وأدى التأخير إلى تعطيل الثانية قليلاً . غير أنهما تساوتا بعد مدة ولم يكن للتذكير أو التأخير أى قيمة . فالطفل يتعلم المشى والكلام وما إلى ذلك حين يكون مستعداً لذلك . ويتقدم فيما يتعلمه تبعاً لقدرته وطاقته وهذا يتوقف على النضج .

٣ - تقل مدة التمرين على عملية من العمليات كلما زاد نضج الكائن الحي . إذ تبين الدراسات أن الأطفال الكبار يجيدون بعض العمليات أسرع من غيرهم من الصغار لنضجهم ، غير أن هذا لا ينطبق على كل العمليات .
■ لا يؤدى التمرين المبكر قبل اكتمال النضج إلى أى تحسن ، وإذا تحسن فيكون وقتياً .

■ - قد يؤدى التمرين المبكر قبل اكتمال النضج إذا كان مصحوباً بالأكراه والإرغام إلى الصراع والإحباط والشعور بالفشل .

لهذا يجب علينا فهم هذه المبادئ وفهم عمليات النضج لأن بعض الآباء وبعض المعلمين كثيراً ما يحاولون تعليم أبنائهم نواح من النشاط لا يكونون على استعداد لتعلمها لعدم اكتمال نضجهم لها .

ملخص :

النضج هو التغير في السلوك الناشئ عن تطور تشريحي أو فسيولوجي في الجهاز العصبي ، وهو بذلك يختلف عن التغير الذي يتم بالمران . ويشترط وجود الظروف المناسبة التي تساعد على القيام بوظيفته .

والنضج في داخل الرحم يتوقف على العمليات البيولوجية دون المran ، وإن كان البعض يرى أن هناك فرصاً للتعليم والمران في داخل الرحم . ويمر الجنين في داخل الرحم بالمرحلة الجرثومية ثم مرحلة المضغ ثم المرحلة الجنينية ويرى العلماء أن مبادئ النضج هي :

١ - مبدأ التفرد : أي أن السلوك تكون أنماطه عامة وتتفرد منه وحدات صغيرة بالتدرج متميزة .

٢ - مبدأ تسلسل النمو : إذ يسير النمو من الرأس إلى القدم أو من أعلى إلى أسفل ومن الداخل إلى الخارج .

٣ - تختلف مرعة نمو أجزاء الجسم المختلفة من جزء إلى جزء .

٤ - يتوقف اكتساب أي عملية من العمليات على عمليات النضج السابقة لها .

٥ - درجة النمو واحدة في الفرد بصرف النظر عما يتعرض له من تمرين من عدمه .



الفصل السابع

أسس السلوك

١ - التنشئة الاجتماعية

سنعالج في هذا الباب الأسس الاجتماعية للسلوك وأهمها عملية التنشئة الاجتماعية بعواملها ونتائجها خاصة اكتساب المرء فكرته عن نفسه واكتسابه للاتجاهات والقيم .

ماذا نقصد بالتنشئة الاجتماعية :

لقد بينا أن كلا من الوراثة والبيئة تؤثر في الكائن الحي منذ اللحظة الأولى في الإخصاب . وقد ذكرنا أن الوراثة لا تؤثر في السلوك بطريق مباشر، ولكن تؤثر فيه عن طريق التكوينات الجسمية . وأثر الوراثة في هذه التكوينات كبير . هذا بالإضافة إلى أن هذه التكوينات هي التي تحدد إمكانية تفاعل الكائن الحي مع بيئته ومدى هذا التفاعل . ولقد تحدثنا في الفصول السابقة عن أهم هذه التكوينات . ولإيضاح أثر البيئة - خاصة في عملية النمو - يهنا أن نعرض في هذا الفصل أثر البيئة الاجتماعية أو الثقافة في نمو الإنسان .

ونقصد بالثقافة هذا الكل المعقد الذي يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والقواعد الأخلاقية والقوانين والعادات وغيرها من المهارات والقدرات التي يكتسبها الفرد من المجتمع الذي يعيش فيه . بمعنى آخر - الثقافة هي المجموع الكلي لطرق التفكير والتنفيذ في الماضي والحاضر لجماعة من الجماعات . وهي مكتسبة أى متعلمة . تنقلها الجماعة للأبناء «الأحفاد» كما ينقلها الآباء عن الأجداد . وهي من صنع الجماعة نفسها . فهي الميراث الاجتماعي الذي يولد الطفل وينشأ فيه ويتعلمه .

والنشئة الاجتماعية تبعاً لذلك هي تشكيل الفرد عن طريق ثقافته حتى يتمكن من الحياة في هذه الثقافة . ففي ثقافتنا مثلاً نعلم الفتاة الطهي وحياسة الملابس . والعناية بالأطفال لتعدها لدورها كأم وربة منزل . بينما نعلم الولد كيف يحرث الأرض ويرويها ويزرع الزرع « أو نعلمه أى حرفة أخرى يكتسب منها ليعول الأسرة ويقوم بدوره كغيره من الرجال في ثقافتنا .

ولكل ثقافة من الثقافات طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الثقافات . وتحاول كل ثقافة طبع أفرادها بطابعها ؛ لذلك ينشأ أفراد الثقافة الواحدة ولهم طابع مشترك يميزهم عن غيرهم من أفراد الثقافات الأخرى . ويؤدي تشرب هذا الطابع إلى وحدة الميول والاتجاهات النفسية والتفكير والعمل « وهذا ما يدفع أبناء الوطن الواحد إلى إكبار كل ما يمت إلى وطنهم وثقافتهم بصلة وانتقاد ما عداه . وليس أدل على وجود الطابع المشترك من السهولة التي يتعرف بها الغريب في ثقافة غريبة على أبناء جلدته وتميزهم من غيرهم ، لامن ملاحظهم الجسمانية فقط . ولكن من مظاهر عامة في سلوكهم كنغمة الصوت وطريقه الكلام ، أو الضحك ، أو المشي « بل طريقة الأكل ورد التحية .

وعلى الرغم من وجود التشابه بين أفراد الثقافة الواحدة بحكم النشأة المشتركة فيها « فإننا نجد اختلافات بين الأفراد في نفس الثقافة الواحدة ، وتحتم مثل هذه الاختلافات ، الاختلافات الإقليمية الجغرافية ، كالاختلافات الموجودة بين أبناء صعيد الجمهورية وأبناء الوجه البحري ، والاختلافات بين أهل الريف وأهل الحضر .

كما توجد اختلافات تحتمها الطبقة الاجتماعية . فالثقافة التي تجمع بين أفرادها في إطار واحد تضم في هذا الإطار طبقية . فقد يختلف أبناء الطبقة الدنيا عن أبناء الطبقة الوسطى في سلوكهم بحكم النشأة في ثقافة طبقتين مختلفتين

والأسرة هي الوحدة الاجتماعية في كل ثقافة « وهي المسئول عن إعداد الطفل لثقافته حتى يتمكن من الحياة فيها . فهي التي تنقل إليه الآراء والأفكار والمعتقدات والقيم والعادات السائدة في ثقافته . غير أن وظيفة الأسرة لا تقتصر على ذلك ، إذ أن كل أسرة تختار من بين ما هو سائد في ثقافتها

ماتنقله إلى أطفالها ومالاتنقله كما أنها تفسر لهم ماتنقله من وجهة نظرها الخاصة .
وتبعاً لذلك نحد أن أطفال الثقافة الواحدة يختلفون فيما بينهم .

والخلاصة هي أن الثقافة تشكل وتبلور أطفالها مما يوجد التشابه بينهم
ويجعل لهم طابعاً خاصاً مميزاً لهم غير أن الاختلافات الجغرافية والإقليمية
والطبقية واختلاف الأسر يؤدي إلى وجود اختلافات بين أفراد الثقافة الواحدة :

النظم الأولية أو طرق التنشئة الاجتماعية :

تبلور الثقافة أطفالها وتشكلهم في سنى حياتهم الأولى لتحويلهم من مجرد
كائنات حية إلى كائنات بشرية اجتماعية عن طريقة العمليات التي تسمى بالنظم
الأولية primary institutions . وتوجد هذه النظم في كل الثقافات .
غير أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلماء الاجتماع قد وجدوا أن
الثقافات تختلف فيما بينها في العادات المتصلة بهذه النظم . ويرى فريق من
العلماء يزعهم كاردنر Kardiner أن هذه النظم مسئولة عن تكوين ما
يسمونه بالشخصية الأساسية للأفراد في ثقافتهم basic personality ويقصدون
بهما التكوين النفسى الاجتماعى الذى يتشابه فيه الأفراد بحكم نشأتهم في
ثقافة واحدة وتربيتهم تبعاً لنظم أولية متشابهة .

يرى كاردنر وتلاميذه أن هذه النظم تشمل الخبرات وأنماط السلوك
المتصلة بالعناية بالطفل كالرضاعة ، والفظام « وضبط حركة المعدة ، وكذلك
التدريب على الاستقلال ، والتصرف إزاء الانفعالات ، ومعاملة الكبار
والأشقاء ، والتربية الجنسية والحياء .

وهناك دراسات عدة قام بها العلماء لدراسة العادات المتصلة بهذه النظم
في الثقافات المختلفة البدائية منها والمتحضرة . ويحاولون في ضوءها الكشف
عن مكونات الشخصية الأساسية في كل ثقافة ، كما يحاولون تفسير مايسود
الثقافة من نظم كنظام الأسرة والزواج والطلاق والدين ونظام الحكومة وما
إليها ممايسمونها بالنظم الثانويه في ضوء الشخصية الأساسية التي يكتشفونها .
ويرون أن مثل هذه النظم اثنائية نتاج حتمى للشخصية الأساسية ، كما
يفسرون السمات النفسية الموجودة في ثقافة من الثقافات كالقلق والزمت ،

والشحو والكرم وما إليها بتتبعها والبحث عن أصولها في العادات المتبعة في النظم الأولى .

وسنتكلم الآن عن بعض النظم في ثقافتنا والثقافات الأخرى وأهميتها وأثرها في تنشئة الطفل .

١ - الرضاعة

لا تقتصر أهمية عملية الرضاعة على مجرد إطعام الطفل وتغذيته . إذ أن الأم حين ترضع طفلها تضمه إلى صدرها وتلاعبه وتداعبه . ويحس الطفل خلال ذلك بالحب والعطف والطمأنينة . لذا ينصح علماء النفس الأمهات اللاتي يرضعن أطفالهن بالزجاجة أن تحمل الأم طفلها وتضمه إلى صدرها كما هو الحال في الرضاعة الطبيعية ، حتى يشعر الطفل بحنانها وحرارتها ، على أن يقوم بهذه العملية فرد واحد ، فلا تتبدل الأيدي في القيام بها ، حتى يكون هناك نوع من الاستقرار فيها ، نظراً للاختلافات المتوقعة بين الأفراد في الطريقة التي قد يحملون بها الطفل . وإن كنا في ثقافتنا نرى خلاف ذلك ، إذ نقول « من إيد لإيد يكبر ويزيد » أي أن الفائدة في تفاعل الطفل أكثر من فرد .

فلا تقتصر أهمية الرضاعة إذن على مجرد مد الطفل بالطعام ، بل تتضمن أيضاً ضرورة شعوره بالطمأنينة والعطف والحنان .

يضاف إلى ذلك أن الأم بتنظيمها عملية الرضاعة للطفل تمهد لإعداده لنظام التغذية المتبع في الثقافة التي يعيش فيها . فنحن في ثقافتنا وخاصة في الطبقة الوسطى - نتبع نظام الثلاث وجبات في اليوم . وتعتبر عناية تنظيم الرضاعة في الطفولة عملية تمهيدية لتعويد الطفل على هذا النظام في المستقبل . وكان الأطباء في أوروبا وأمريكا في الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٤٠ - وفي مصر إلى عهد قريب - ينصحون الأمهات بأن تتم عملية الرضاعة كل أربع ساعات يومياً أي خمس مرات في اليوم . تبدأ أولها في الساعة الثانية صباحاً والأخيرة في السادسة مساءً وتتخلص الأم تدريجياً من رضاعة الساعة الثانية صباحاً ، وتقتصر على أربع مرات لتوفى بذلك بين الرضاعة ونظام الثلاث وجبات في المستقبل .

لقد قامت ماركويز Marquis بدراسة لتبين أثر المواعيد المختلفة في الرضاعة . لقد أخذت ١٦ طفلاً بعد الولادة مباشرة ودربتهم على نظام الرضاعة كل أربع ساعات لمدة ثمانية أيام . وأخذت ١٨ طفلاً آخرين ، ودربتهم على الرضاعة كل ثلاث ساعات . وعلقت بمهد كل طفل مجموعة من الزنبركات متصلة بجهاز يسجل حركات الطفل ليبيان مدى النشاط الذى يقوم به كل طفل بين رضاعة والثانية . فوجدت أن الأطفال الذين تم رضاعتهم كل أربع ساعات يتحركون ويركلون ويقومون بنشاط يدل على عدم الاستقرار بنسبة تزيد عن النشاط الذى يقوم به الأطفال في المجموعة الثانية ممن كانت تم رضاعتهم كل ثلاث ساعات . فلما غيرت نظام الرضاعة لأطفال المجموعة الثانية وجعلته كل أربع ساعات كأطفال المجموعة الأولى زاد نشاطهم زيادة ملحوظة في الساعة الرابعة .

تدل هذه الدراسة على أنه كلما طالت الفترة التي تفصل بين الوجبة والوجبة كان الطفل أقل استقراراً الجوعه .

لقد حاولت ماركويز في نفس التجربة أن ترضع أربعة أطفال كلما جاعوا دون نظام معين ، أى كلما بكى الطفل ، على ألا تقل الفترة بين الرضاعة ، والرضاعة عن ساعة ، فوجدت أن متوسط طول الفترة التي كانت تنقضى بين الوجبة والوجبة للأطفال الأربعة على التوالي كما يلي : ٢,٩ ساعة و ٣,٣ ساعة و ٣,٣ ساعة و ٣,٩ ساعة ، أى أن الفترة التي تنقضى على طلب الطفل التذى بعد إرضاعه لا تتعدى الأربع ساعات .

لذا نجد أن الأطباء قد بدأوا من بعد عام ١٩٤٠ ينصحون الأمهات بإعطاء التذى للطفل كلما جاع وطلب الرضاعة ، وخاصة أن الأطفال يختلفون فيما بينهم في الفترة التي يقضونها بين الرضاعة والثانية « غير أن هناك من ينتقد ذلك أيضاً ، لأن ضرر عدم النظام قد يعادل أو يزيد على ضرر اتباع نظام جامد » ، لأننا يجب ألا نتجاهل الثقافة التي يعد لها الطفل ونظام الوجبات فيها .

إن عملية الرضاعة على أية حال عملية معقدة . فبالإضافة إلى ضرورة شعور

الطفل بخنان الأم وعطفها أثناء الرضاعة ، وبالإضافة إلى ضرورة تنظيم المواعيد بما يتفق وقدرة الطفل ورغبته « فهو في حاجة إلى أن يتمتع بعملية المص .

فقد وجدت ريببل Ribble في إحدى دراساتها أن الطفل الذي يتدفق اللبن فيه سرياً أو الذي لا يتمتع بوقت كاف في المص أثناء الرضاعة يعرض عن ذلك بمص أصابعه أو مص أى شيء آخر . وهي ترى أن متوسط الوقت الذي يجب أن يقضيه الطفل في عملية المص في اليوم هو ساعتان موزعة على مرات الرضاعة « وهناك من يرى خلاف هذا الرأي « ففي دراسة أخرى وجد الباحثون أن الرغبة في المص ناتجة عن تعود الطفل ذلك من عملية الرضاعة نفسها « إذ أن الأطفال الذين يتعودون على الرضاعة من الفئجال تكون رغبتهم في المص أقل من الأطفال الذين يتعودون على الرضاعة من الثدي بالمص .

وتتساءل الأمهات عن طول الفترة التي يجب أن يقضها الطفل في الرضاعة الواحدة ، ونحن لا ننصح بمدة معينة . إذ أن طول المدة يحددها الطفل نفسه لأن الأطفال يختلفون فيما بينهم في طول المدة التي يقضونها في الرضاعة . فقد تمتد هذه المدة مع بعض الأطفال إلى نصف ساعة بل وساعة في بعض الأحيان ، والمشهد للطفل أثناء الرضاعة يلاحظ أنه لا يقضي كل الوقت في عملية المص فقد يترك الثدي ليتطلع حوله أو ينشغل بالمنغاة ثم يعود ثانية إلى الرضاعة وهكذا « مما قد يسبب ضيقاً لبعض الأمهات لرغبتهم في الانتهاء من هذه العملية لذا تؤكد ضرورة ترك الطفل ليتمتع بعملية الرضاعة وتركه الثدي برغبته لا برغبة الأم .

٢ - الفطام :

وتتصل عملية الفطام بعملية الرضاعة . وتختلف الثقافات فيما بينها في توقيت ميعاد نظام الفطام . فقد وجد إريكسون مثلاً أن جماعة السو — وهي قبيلة هندية من هنود أمريكا كانت تعيش على صيد الجاموس البري ، أن رضاعة الطفل عندها كانت تستمر مدة طويلة قد تطول إلى ثلاث سنوات أو خمس . بل كان يسمح للطفل بعد أن يتعود على تناول الأطعمة الأخرى أن يمص ثدي

أمة أو ثدى أى مرضعة أخرى من نساء القبيلة من وقت لآخر . هذا على الرغم من ظهور أسنان الطفل وعضه الثدى ومحاولة الأم حماية نفسها ، مما كان يؤدي إلى غضب الطفل وثورته ، وكان الأب ينقطع عن الاتصال الجنسي بزوجه طول فترة الرضاعة للاعتقاد السائد بأن العملية الجنسية تفسد لبن الرضاعة . هذا بينما كان الحال على عكس ذلك تماماً في جماعة اليوروك ، وهي قبيلة هندية أخرى يعيش أهلها على صيد السمك وجمع الثمار والتجارة . إذ يذكر إريكسون أن هذه القبيلة تظم أطفالها بعد ستة أشهر ويرغم الطفل على الفطام بابتعاد الأم عنه عدة أيام إذا اقتضى الحال .

ويقرر إريكسون إن لكلا النظامين أثره في شخصية الكبار . إذ يتصف السو بالكرم والشجاعة وحب القسوة ، بينما يتصف اليوروك بالبخل والشح والشدّة والحزن الدائم إلى بديل الأم الذي يشعر معه الفرد بالوحدة والقلق ،

ولا يعزو إريكسون هذه المظاهر إلى عملية الرضاعة والفطام وحدها بل يعزوها إلى أثر النظم الأولية كلها والتي تختلف تماماً في كلتا القبيلتين .

وفي دراسة لهوينج وتشايلد Whiting & Child قارنا فيها النظم الخاصة بتربية الأطفال في عدد من المجتمعات البدائية ، فوجدنا أن الفطام في حوالي ٥٢ من هذه المجتمعات يتم في المتوسط ما بين سنتين وثلاث سنوات . وإن كانت هناك بعض الثقافات تتم فيها هذه العملية متأخرة عن ذلك بكثير كما هو الحال في جماعتي التشتشو Chenchu واللبتشا Lepcha في الهند .

ويقارن هوينج وتشايلد العادات المتبعة بين أفراد هذه الثقافات والعادات المتبعة في الطبقة المتوسطة الأمريكية ، ويقرر أن الطبقة المتوسطة الأمريكية تعتبر متطرفة في هذه الناحية لأنها تحاول فطام أبنائها بعد ستة أشهر .

ولست لدينا معلومات مستقاة من بحوث علمية عن العادات المتعلقة بالفطام في مجتمعات أوالسن الذي يتم فيه الفطام . ولابد أن يبين بحث كهذا مدى الاختلافات الموجودة بين أفراد الطبقات المختلفة وبين أهل الريف ، والحضر ، إذ يبدو أن أهل الريف والطبقات الدنيا في الحضر لا يتعجلون فطام (م ٩ - الطفولة والمراهقة)

الأبناء إلا إذا حتمت ذلك ظروف خاصة كحمل جديد أو مرض الأم ويبدو أن متوسط الفطام بين هذه الجماعات هو ما بين ستة ونصف وستين كما يبدو أن الطبقة المتوسطة والمتعلمين من أهل الحضر يحاولون فطام الأطفال في سن يقع ما بين ستة وستة ونصف .

وكما تختلف الثقافات فيما بينها في توقيت عملية الفطام تختلف أيضاً في الطريقة التي تتم بها هذه العملية إذ تتم في بعض الثقافات بشيء من القسوة . بينما تتم في البعض الآخر بكثير من اللين والتدريج . غير أن الثقافات كلها تشترك في أنها تبدأ عملية الفطام بإطعام الطفل بالسوائل والمواد اللينة وزيادة كميتها بالتدريج بالإضافة إلى الرضاعة . وتستعمل الأمهات طرقاً مختلفة لمنع الطفل عن الثدي منها - كما هو الحال عندنا - دهن الثدي بأي شيء مر المذاق كالصبار ، أو دهنه بمادة حريقة كالفلفل . وقد تهجر الأم طفلها لبضعة أيام حتى يتعود على فراق الثدي .

وتؤدي القسوة في الفطام إلى ترك آثار نفسية عميقة في الطفل قد يكون لها أثرها في المستقبل . وليس غريباً أن يشعر الطفل بقلق دائم لا يعرف مصدره أو يعوض عن الثدي بمص أصابعه وقضم أظافره .

ويتفق الآراء على ضرورة إتمام عملية الفطام بالتدريج بتعويد الطفل تدريجياً على تناول السوائل وغيرها من الأطعمة اللينة مبكراً وزيادتها بالتدريج مع اختصار عدد مرات الرضاعة وقصرها على وجبة في الصباح ووجبة في المساء . ولا بأس من إتمام عملية الفطام في نهاية العام الأول على أن تراعى الفروق الفردية بين الأطفال والحالة الصحية لكل طفل .

يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الحرمان المبكر من الثدي من الأم له ضرره . كما أن الإفراط في تعويد الطفل على رضاعة الثدي له ضرره أيضاً . فكلاهما يلون شخصية الطفل في المستقبل بلون يتفق والحرمان أو زيادة الشبع .

٣ - ضبط المعدة والنظافة :

تحاول الأم أن تبقى وليدها نظيفاً دائماً فتغير ملابسه له إذا ابتل بالتبول أو التبرز حتى لا يسبب له ذلك أى التهاب أو أى ضرر جسدي، ولكي يبقى نظيفاً .

وتحاول الأم تدريجياً في ثقافتنا خلال السنة الثانية تعويد الطفل على ضبط حركة معدته وضبط التبول وأداء هاتين العمليتين في مكان خاص . وتفخر الأم بطفلها إذا تمكن من أداء ذلك في سن مبكرة .

وتختلف الثقافات كذلك في السن الذي تبدأ فيه في تعويد الطفل على ضبط حركة معدته ، وفي الطريقة التي تتبع في تحقيق ذلك . فيذكر لنتون Linton مثلاً عن جماعة التانالا Tanala في مدغشقر أن الأم لا تضع سرة حول مخرجي الطفل للتبول والتبرز . مما يؤدي بالطفل إلى تلوث ملابسه بالببول والبراز ، ولما كان الصعب على الأم تغيير ملابسه ، فهذا يدفعها إلى تدريب الطفل مبكراً على ضبط حركة معدته ، وتبدأ في ذلك بعد شهرين أو ثلاثة من الولادة . وهذا وقت مبكر جداً . وتوقع من طفلها أن يتم تدريبه إذا ما بلغ الستة أشهر . فإذا ما تبرز عليها بعد ذلك عاقبته بقسوة .

وتختلف جماعة اليوروك الهندية التي درسها إريكسون عن هذه القبيلة في شدتها في تدريب الطفل على ضبط معدته مبكراً ، لاعتقاد أفراد القبيلة في ضرورة النظافة التامة ، وتظهر خوفاً من أن تمنع القنطرة سملك السلمون من الحياة لأن حياتهم تتوقف عليه . وقد لوحظ أن الطبقة المتوسطة في أمريكا تحاول تدريب أطفالها مبكراً أيضاً . وتتميز طريقة التدريب عندهم بالقسوة النسبية . تشبه في ذلك الطبقات المتوسطة والراقية عندنا ، بينما نجد كثيراً من التحرر في تدريب الأطفال على ضبط المعدة في الريف والطبقات الدنيا . ويصل التحرر في بعض الثقافات البدائية إلى حد أنهم لا يبدأون تدريب الأطفال على ضبط المعدة إلا بعد ست سنوات .

ويرى بعض العلماء أن من نتائج التعسف في تدريب الأطفال على العمليات

الإخراجية أن ينشأ الطفل مترمماً يعاني من القلق . كما قد يعاني من الأفعال القهرية كحب النظافة المطلق . فيسعى في تصرفاته مع نفسه ومع غيره إلى الكمال مما يسبب له وانغره الضيق . وقد قيل إن التعسف في التدريب على هذه العملية قد يؤدي إلى أن ينشأ الفرد بغيلاً شحيحاً محباً لجمع المال لذاته » بالإضافة إلى ما قد يعانيه من قلق وأفكار وأفعال قهرية .

وقد ثبت أنه لا يسهل تدريب الطفل على ضبط حركة معدته قبل سن سنة ونصف . ففي هذه السن يكون الطفل قد تعلم المشي وتعلم الكلام والتعبير عن رغباته وفهم رغبات الكبار باللغة أو بالإشارة . وحينئذ يكون الوقت مواتياً لتدريبه على ذلك .

« - الحياء والتربية الجنسية :

ويقصد علماء الأنثروبولوجيا بالحياء ستر الأعضاء التناسلية والإخراجية وعدم الكشف عنها . ويقصدون بالتربية الجنسية العادات الجنسية ومدى سماحة الثقافة أو تزمها في تنشئة الأطفال عليها » والفروق الثقافية موجودة فيما يتعلق بالحياء والنواحي الجنسية في تنشئة الأطفال .

ففي ثقافتنا مثلاً نعود الطفل على ستر عورته في سن مبكرة خاصة في الطبقة الوسطى والمتعلمة . كما نحتم أداء العمليات الإخراجية في أماكن معينة . ونحتم عدم الكشف عن الأعضاء التناسلية أو التحدث عن عملها . كما تفصل بين البنين والبنات ونحرم عليهم اللعب الجنسي أيضاً منذ الطفولة » ويتعلم بذلك الطفل الشعور بالعار والحجل عن طريق اتجاهات الأسرة نحو هذه الأعضاء . ولا يفهم الطفل الصغير في البداية ولا يميز بين ما هو حسن وما هو سيء فيما يختص بهذه العمليات وهذه الأعضاء . غير أن اتجاهات الآباء وحج الاستطلاع يؤديان به إلى التساؤل والرغبة في المعرفة عن هذه النواحي . ويختلط الأمر عليه فيجد أن هذه الأعضاء تتصل بالتحفظ والنظافة والشعور بالذنب والعار . ومن هنا تنشأ المشاكل التي قد يكون لها نتائجها الوخيمة في المستقبل .

ولاشك أننا نشبه في ترممتنا من ناحية الأعضاء التناسلية وعملياتها غيرنا من الثقافات المتعدنية والبدائية . غير أننا نختلف كذلك عن كثير منها . فتذكر ديبوا Dubois مثلاً عن قبائل الألويز Alorese في أندونيسيا أن وسيلة من الوسائل المفضلة لدى الأمهات لصرف الطفل عن الثدي أثناء الرضاعة هي اللعب له في عضوه التناسلي لتهديته . ومن الأمور العادية رؤية الأطفال يلعبون في أعضائهم التناسلية أمام الكبار . فإذا ما بلغ الطفل السن المتنامية لستر عورته فإنه يعزف عن ذلك . وإن كان الآباء ينظرون ببعض الغضاظة لما قد يقوم به الأطفال من ممارسة للعمليات الجنسية فيما بعد فإنهم يكتفون بتوبيخهم . ولا يتعدى الأمر عندهم حد التوبيخ . وكثيراً ما تخلو جماعة من الصبيان بجماعة من البنات في منازل الحقول لعدة أيام . ويشك الكبار عادة فيما يدور بينهم في هذه الخلوات . إذ غالباً ما يقوم أفراد هذه الجماعات بتقليد الكبار في العملية الجنسية . وهذا يعتبر من بين لعب الأطفال في نظر الكبار إذا ما بلغ إلى علمهم ويذكر نتون عن جماعة المركيزان Marquesans أن اللعب الجنسي أمر عادي بين الأطفال من وقت مبكر .

وتبعاً لذلك نجد أن ستر العورة لا يتم في كثير من هذه الثقافات وشبهاتها إلا في سن متأخرة . وإذا كانت هناك ثقافات تحتم ستر العورة في سن مبكرة وتقسو على الأطفال في التدريب على العادات الجنسية ، فهناك ثقافات أخرى معتدلة في ذلك .

٥ - الاستقلال :

لابد أن يتعلم الطفل الاعتماد على نفسه في سنى حياته الأولى في إطعام نفسه بنفسه ، وفي ارتداء ملابسه ، وفي نظافة نفسه ، وفي أداء عملياته الإخراجية وما إلى ذلك . ويقرر هويتنج وتشايلد في دراستهما أن متوسط السن الذي يبدأ فيه تعليم الطفل الاعتماد على نفسه في الثقافات التي تمت دراستها هو ما بين ثلاث سنوات وثلاث سنوات ونصف ، وأن هذه السن تتراوح في كل الثقافات ما بين سنتين وأربع سنوات ونصف . وتبدأ الطبقة المتوسطة في أمريكا في تدريب أبنائها على الاستقلال حوالي سن سنتين ونصف .

وتختلف التمايزات فيما بينها أيضاً في مدى الشدة أو اللين في تدريب الطفل على الاستقلال . فمن الشعوب التي تتصف بشدتها وقسوتها في هذه العمالية شعب كووما Kwoma في غينيا الجديدة . فيذكر هويتنج أنه لا يسمح للطفل بعد فطامه التربع في حجر أمه أو النوم بجوارها بالليل . وتعتبر هذه أقصى خبرة يمر بها الطفل عندهم . إذ لا تستجيب الأم لطفائها مهما بكى ومهما حاول لاكتساب الميزات التي كان يتمتع بها قبل الفطام « فإذا استمر الطفل في بكائه وعناده فإنها قد تلجأ إلى ضربه وعقابه . وبهذا ينزل الطفل من عليائه ويحرم مما تتمتع به في طفولته الأولى كي يتعلم الاستقلال والاعتماد على النفس .

تقابل هذه الشدة في شعب كووما معاملة تناقضها بين حيرانه شعب - الأرابش Arapesh . إذ يظل الطفل معتمداً على الغير لمدة طويلة . فمن دراسة مارجریت ميد Mead لهذا الشعب تقرر أن الطفل كلما كبر صعب على الأم حمله في تنقلاتها في ذهابها إلى الحقل . فتتركه الأم في القرية مع الأب أو إحدى الأقارب وتذهب إلى عملها . وكلما كبر الطفل كلما تحولت العناية به إلى الآخرين . إذ قد يذهب الطفل إلى إحدى عماته أو خالاته ليبقى عندها بضعة أيام ، وتسلمه هذه بدورها إلى قرية أخرى وهكذا . ثم يعود بعد مدة لوالديه فينشأ الطفل وصورة العالم في ذهنه عبارة عن عالم مليء بالآباء ، وليس مجرد مكان تتوقف حياته فيه على والديه فقط . ولم تلاحظ ميد في هذه الثقافة أى عجالة لإنهاء مرحلة الطفولة ، أو أى إصرار لكي يحصل الطفل على مهارات معينة . وتستخلص من ذلك أن الطفل ينشأ في مثل هذه الثقافة وكله طمأنينة وثقة في الآخرين .

مظاهر التنشئة الاجتماعية :

يتبين لنا من العرض السابق أن الطفل يولد وهو لايزيد عن كونه كائناً حياً لديه استعدادات معينة . وتقوم الثقافة عن طريق الأسرة بتشكيل هذه الاستعدادات وتنميتها وتوجيهها طبقاً لنظم وعادات معينة . ولذا يرى البعض أن الطفل عند ميلاده ليس بكائن بشري « وليس بكائن اجتماعي . ولا يمكن النظر إليه ككائن اجتماعي إلا حين يبدأ في الاستجابة للكبار . ولا تسبغ عليه

صفة البشرية التامة إلا حين يبدأ في اللغة والكلام ويستعملها . ولا تتم تنشئته اجتماعيا إلا إذا تمكن من التأثير على الآخرين والتأثر بهم عن طريق اللغة وبالتالي تعلم السلوك المقبول في ثقافته نحو الأفراد ونحو الأشياء .

ويرى العلماء أن التنشئة الاجتماعية تستغرق السبع أو الثمان سنوات الأولى من حياة الطفل . وإن كان الاتجاه الحالي يرى أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة « إذ أن على الطفل إذا ما كبر أن يتعلم أدوار الكبار وهذه العملية في صميمها تنشئة اجتماعية .

ويمكننا تلخيص مظاهر التنشئة الاجتماعية في الخمس سنوات الأولى في ثقافتنا فيما يلي :

- ١ - تعلم تناول الأطعمة الجافة .
 - ٢ - تعلم المشي .
 - ٣ - تعلم ضبط حركة المعدة .
 - ٤ - تعلم الحياء الجنسي .
 - ٥ - فهم العالم المادى في البيئة المباشرة في المنزل والشارع والحى .
 - ٦ - التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ .
 - ٧ - تعلم السلوك المناسب مع الإخوة ومع الكبار .
- وتتلخص مظاهرها في السنوات التالية التى تسبق المراهقة فيما يلي :
- ١ - تعلم العناية بالنفس كالاستحمام وارتداء الملابس دون مساعدة .
 - ٢ - اكتساب بعض المهارات في اللعب كالجري والوثب والتزحلق .
 - ٣ - معرفة الدور الجنسي « فيسلك الولد كولد والبنت كأبنتى .
 - ٤ - تعلم التعامل مع الغير ممن هم في نفس السن .
 - ٥ - تعلم القراءة والكتابة والحساب .
 - ٦ - فهم ضرورات الحياة اليومية .
 - ٧ - تكوين بعض القيم .

٨ - تكوين اتجاهات نفسية نحو الأسرة والمدرسة والدين والحكومة والدولة وما إلى ذلك .

٩ - التحكم في الانفعالات والعواطف .

١٠ - تكوين اتجاهات سليمة نحو النفس .

أثر اللبن أو القسوة في تنشئة الاجتماعية :

لقد ذكرنا في معرض حديثنا عن النظم الأولية أن العلماء يرون أن العادات المتبعة في تنشئة الأطفال في أي ثقافة من الثقافات بما فيها من شدة أو لين تطبع أفرادها بطابع يميزهم عن أفراد الثقافة الأخرى . ويرى كاردنر أن هذه النظم تكون مسئولة عن تكوين ما يسمى بالشخصية الأساسية في هذه الثقافة . فقد نجد أفراد ثقافة من الثقافات يتميزون بالجشع وحب المال والرغبة في الاستحواذ عليه والتفتير فيه . بينما نجد أفراد ثقافة أخرى يتميزون بالكرم والسماحة . كما نجد من بين ثقافات من يتميز أفرادها بحب السلم والحياة الرادعة ، بينما يتميز غيرهم في ثقافة مخالفة بالمغامرة وحب الاعتداء والقسوة وما إلى ذلك .

يرى المحللون النفسيون أن الطفل في نموه الجنسي يمر بمراحل أولاها المرحلة القمية التي يكون محور اللذة فيها هو الفم وعملية الرضاعة . ثم ينتقل الطفل إلى مرحلة تتركز فيها اللذة حول العمليات الإخراجية وتسمى بالمرحلة الشرجية التي ينتقل منها الطفل إلى المرحلة التالية لها والتي تسمى بالمرحلة القضيية . وفيها يشق الطفل لذته في اللعب في أعضائه التناسلية . وهم يرون أن الطفل إذا مر بمخبرات معينة في أي مرحلة من هذه المراحل . فقد تؤدي به هذه الخبرات إلى نوع من الالتصاق بها أو الثبوت فيها ، مما يؤدي إلى العجز النسبي عن الانتقال إلى المرحلة التي تليها . فالثبات مثلا على المرحلة القمية يعني عندهم استمرار اشتقاق اللذة من الخبرات القمية . ومن مظاهر هذا الثبات اشتقاق اللذة من التدخين وأكل الحلوى والإفراط في الطعام والشراب والتميز بنمط في الحياة محوره الفم في معاملة الغير .

غير أن تشايلد وهو ينتج يحاولان الإفادة من نظريات التعلم ، ويميزان بين أثر زيادة اللذة نتيجة للين في التدريب على كل عملية من عمليات النظم الأولية ، وأثر الشدة في التدريب عليها . إذ يؤدي زيادة اللين والشبع إلى ما يسميانه بالتثبيت الإيجابي Positive Fixation بينما تؤدي الشدة إلى الحرمان إلى ما يسميانه بالتثبيت السلبي Negative Fixation . فإذا كانت هناك أنماط من السلوك كالرضاعة مثلا تصبحها لذة مستمرة ، فلا بد لنا أن نتوقع أن يؤدي مثل هذا النمط والمثيرات التي تؤدي إليه إلى تكوين استعداد قوى يدفع إلى تكراره للحصول على اللذة التي تعودها الفرد . إذ تصبح هذه الأنماط وما تثيرها مصادر للإشباع والطمأنينة لأنها ستؤدي إلى الراحة والاسترخاء في حالة وجود القلق . هذا بينما يؤدي العقاب الزائد للقيام بأي نمط من أنماط السلوك - كالعقاب لمنع الطفل عن الثدي - إلى استجابات انفعالية يشعر معها الفرد بالقلق خشية العقاب أو خشية الحرمان المستمر .

فكان كلا من الشبع الزائد والقسوة يؤدي إلى تكوين شعور عميق بالقلق . فيسعى من شبع وتلذذ إلى تكرار السلوك اللذيذ - كالمص مثلا - لا لإشباع جوع عنده ولكن للذة المص في حد ذاتها لتخفيف قلقه . ويشعر من حرم بالقلق نتيجة لحرمانه وعقابه . ويصبح القلق نفسه دافعا عنده إلى السلوك بشكل معين ليخفف من حدة قلقه .

وأحسن مثل للتثبيت الإيجابي نتيجة لزيادة الشبع في عملية الرضاعة واللين الزائد في عملية القضم عملية مص الأصابع . إذ يبدو أنها عملية لذيدة لبعض الأفراد يلجأون إليها في حالة الجوع أو الشعور بالحجل أو الشعور بالذنب . إذ تؤدي إلى تخفيف حدة التوتر عندهم . وهم بذلك لا يحاولون إشباع حاجة أولية كالجوع ، ولكن يحاولون اشتقاق لذة من عملية المص نفسها التي تشبه مص الثدي في الطفولة .

ومن الأمثلة على التثبيت السلبي ما نراه من خوف بعض الأفراد من

الفشل في الحصول على كميات كافية من الطعام . ويبدأ مثل هؤلاء الأفراد عادة شراة وجشعاً في التهام الطعام .

ومن مظاهر التثبيت السلبي أيضاً الخوف من العقاب أو الشعور بالذنب فيما يخص أى نشاط في . أو مجرد الشعور بالرغبة في القيام بهذا النشاط إذ تؤدي الرغبة في التلذذ بالأكل أو التقبيل أو مص عصير البرتقال مثلاً إلى توقع الفرد لتقد الغير إذا لم ينتقد نفسه بنفسه . لذا نجده لا يحاول القيام بأى نشاط في فيه لذة سبق أن عوقب عليه .

أما فيما يخص ضبط حركة المائدة فيكون التثبيت الإيجابي بتلذذ الشخص البالغ بالعمليات الإخراجية . إذ يجد في التبول والتبرز تخفيفاً لقلق غامض عنده فيقضى وقتاً طويلاً يجد فيه المتعة في دورة المياه .

ويتضح التثبيت السلبي على هذه المرحلة بالتبفس على العمليات الإخراجية كما هو الحال مع من يعانون من الإمساك المزمن والمتزميتين في تطبيق قواعد النظافة على أنفسهم وعلى الغير .

ويكون التثبيت الإيجابي في الناحية الجنسية بالسعى إلى العملية الجنسية في وقت الملمات لإعادة الثقة إلى النفس وتخفيف حدة القلق والتوتر . بينما يكون التثبيت السلبي بما نلاحظه فيما يعترى بعض الأفراد من قلق أمام المغريات الجنسية والخوف منها . وقد يعاني مثل هؤلاء الأفراد من خوف دائم خشية فقدان القدرة الجنسية والإصابة بالعنة أو الإصابة بأى مرض في الجهاز التناسلي .

ويمكننا أن نمثل التثبيت الإيجابي في التدريب على الاستقلال بسلوك الأفراد الذين يلجأون إلى الغير للمشورة في كل كبيرة وصغيرة . وهم لا يسعون للمشورة الحقيقية بقدر ما يسعون للغير ليشعروا أنفسهم بأن هناك من يمكنهم الاعتماد عليه فيخفف قلقهم . ونجد الحال على عكس ذلك في التثبيت السابي في هذه الناحية . إذ يشعر الفرد بالقلق كلما شعر باحتمال

إعتماده على الغير . وكثيراً ما يؤدي مثل هذا الشعور إلى التماس في الحياة الزوجية أو في العمل للرغبة في الاستقلال التام وعدم الاعتماد على الغير . غير أن هذا يؤدي أحياناً إلى النجاح دون معاونة من أحد في ميادين الحياة العامة .

ونختتم هذا الفصل بدراسة قامت بها جامعات هارفارد وبيبل وكورنل (١٩٦٦) على ممارسات تدريب الأطفال على انظم الأولية « والخلفية الايكولوجيه (البيئة الاجتماعية) والنظم الاقتصادية في ستة مجتمعات هي : أمريكا وكينيا والهند وأوكيناوا والمكسيك والفلبين . وتختلف هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات السابقة التي كانت تعتمد على المعلومات المستقاة بطريق غير مباشر تمت على أيدي ملاحظين مدربين عاشوا في هذه المجتمعات . وجمعوا بياناتهم بطريق مباشر وطبقاً لمعايير صارمة . وكانت الملاحظات التي جمعت عن تدريب الأطفال على النظم الأولية في كل مجتمع تقارن بأنماط السلوك في عينات من الكبار لتدعيم الغرض بأن الأنماط المختلفة في تدريب الأطفال تؤدي إلى اختلاف في شخصيات الأطفال وبالتالي إلى اختلاف في شخصيات الكبار وقد أثبتت الدراسة ذلك .

فالطفل في أمريكا ينظر إليه الآباء على أنه من الإمكانات التي تعتبر رصيدها لهم في المستقبل . بينما ينظر إليه في كينيا على أنه أداة للخدمة في المنزل ، وينظر الآباء للطفل في الهند على أنه هبة من الله « وفي أوكيناوا على أنه عاجز ويستحق الشفقة « وفي المكسيك على أنه لا وعي له « وفي الفلبين على أنه رائع وعاجز .

وكانت استجابات الأمهات لبكاء الطفل في المجتمعات الستة هي إطعامه « فهو يبكي لأنه جائع . أما فيما عدا ذلك فقد كانت استجابات الأمهات الأمريكيات للبكاء ما دام الطفل غير جائع هي التجاهل لأن هذا أمر لا مفر منه وله فائدته لتقوية شخصيته ورثته . بينما كانت استجابة الأم الكينية إذا النوع من البكاء هي الضيق والتهديد والعقاب الجسدي . أما في الهند

فاستجابتها هي التهدة إما بتحويل انتباهه أو إعطائه جرعة من الأفيون . وفي أوكيناوا تحويل الانتباه والتدليل « وفي المكسيك التوبيخ والعقاب الجسدي ، وفي الفلبين التدليل وتحويل الانتباه .

وكان التلريب على ضبط المعدة في أمريكا صارما باستخدام المذبح والدم « وفي كينيا بالضرب ، وكان التسامح هو الأسلوب السائد في المجتمعات الأخرى .

وفي معاملة الكبار كان الاتجاه المتوقع في أمريكا هو الأدب دون جفاء ودون عدوان ، وفي كينيا الطاعة « وكذلك الهند وكذلك في المكسيك « ودون أى توقعات في كينيا .

ملخص

تناولنا في هذا الفصل التنشئة الاجتماعية كما درسها علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية بمقارنة الشعوب المختلفة من ناحية تطبيق النظم الأولية : الرضاعة والقطام وضبط المعدة ، والاستقلال ومعاملة الكبار والحياء والتربية الجنسية وأثر الدين والقسوة في التلريب على هذه العمليات وسوف نتناول في الفصول التالية عوامل الضبط الاجتماعى ، ونتائج التنشئة الاجتماعية وما تؤدي إلى اكتسابه من فكرة المرء عن نفسه « واتجاهاته وقيمه « ودوافعه الاجتماعية .



الفصل الثامن

مصادر الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية

يعالج هذا الفصل مصادر الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية إذ أن الفرد يتم تدريبه عن قصد بواسطة آخرين لينتشر قيم مجتمعه ومعتقداته « والاعراف السائدة » وإعداداته ليتم استيعابه القيام بدوره كشخص بالغ في هذا المجتمع . ومصادر الضبط والتنشئة هي الأسرة ، وجماعة الأصدقاء « يضاف إلى ذلك المعتقدات الخرافية والدينية السائدة في المجتمع .

١ - الأسرة :

تنوب الأسرة عن الثقافة في تنشئة الطفل اجتماعياً وتحويله إلى كائن اجتماعي . وقد رأينا كيف تقوم الأسرة بهذه الوظيفة عن طريق النظم الأولية . كما رأينا كيف يؤثر التعسف أو اللين في تعليم هذه النظم في شخصية الطفل . إلا أن دور الأسرة أكبر من ذلك بكثير في نقل الثقافة وتعليم عاداتها ، إذ أن لاتجاهات الآباء نحو أبنائهم والركن الأساسي في العلاقة الولديه هو الحب والحنان وحرارة الالتصاق . ولما كان الأبوان يمثلان مجتمع الكبار فتعاملهما مع الطفل يعطيه النماذج التي يتبعها في معاملة الآخرين وإن كان الطفل بعد فطامه عن المنزل يجد كباراً آخرين مثل المعلمين وغيرهم ممن يؤثرون عليه وعلى تنشئته الاجتماعية . إذ أن الآباء والكبار يعلمونه ويسمى هذا النوع من التعليم بالتعليم الاجتماعي بتطبيق أنواع مختلفة من الثواب أو المكافأة وأنواع مختلفة من العقوبات كما أنهم يمدونه بالنماذج التي تحتذى في ممارسة السلوك الاجتماعي .

ونكرر بأن الآباء ينتمون إلى طبقة اجتماعية معينة . وقد أثبتت الدراسات اختلاف الطبقات في طرق إعدادها للأبناء . كما أن انتساب الأسرة إلى الريف أو الحضر مما يؤثر في طرق التنشئة ، ويعد الطفل ليلعب دوره في المجتمع كذكر أو أنثى وهذه أيضاً من مسؤوليات الأسرة .

- ١٤٢ -

ولييان أهرية الخلفية الأسرية في التنشئة الاجتماعية نسوق القصة التالية .
دخل التليزيون أحد سجون النساء ، وقامت المذيعة بمقابلة بعض السجينات .
دار هذا الحديث بينها وبين واحدة منهن :

- لماذا أنت هنا في السجن ؟

- لأنني نشالة

- هل هذه أول مرة تدخلين السجن ؟

- لا . هذه رابع مرة

- ما هو السبب في كل مرة ؟

- قلت لك لأنني نشالة

- هل أنت متزوجة ؟

- نعم ، وزوجي في سجن الرجال

- لماذا ؟

- لأنه نشال

- أنت نشالة وزوجك نشال ؟

- نعم - كلنا نشالين . وأمي كانت نشالة وأبي كان نشالا . ومعنى هذا في
السجن ابنة أختي لأنها نشالة أيضاً .

- يعني كل الاسرة نشالة ؟

- والله طلعتنا فوجدنا أنفسنا نشالين .

- ماذا تتعلمين هنا في السجن ؟

- أتعلم الخياطة .

- عند خروجك هل ستعملين خياطة أم نشالة ؟

- وبمنظرة كلها سخرية ، ردت عليها إن شاء الله خياطة .

وهكذا يبدو لنا رغم براءة سؤال المذيعة الأخير إلا أن فيه سداجة .
فهذه المرأة نشأت في وسط كله من النشالين « وستعود إلى نفس الوسط »
وقد اكتسبت المهارات الاجتماعية التي تعلمتها من محيطها .

الحب وراحة الالتصاق .

إن أهم ما تعطيه الأسرة للطفل هو الحب دون تدليل زائد ودون حماية زائدة إذ أن الحماية الزائدة للأبناء غالباً ما تكون غطاء للكراهية للطفل أو التعاسة في طفولة الأم أو الأب مما يؤدي إلى تمنى عدم إنجاب الأطفال على الإطلاق . ويحدد العلماء أهم ما يعطيه الآباء لأبنائهم فيما يلي :

- ١ - الشعور بالتقارب والالتصاق والمحبة .
- ٢ - تهيئة الجو المناسب لتنمية مواهب الطفل وقدراته .
- ٣ - إشباع الحاجة للتقدير .
- ٤ - تعلم الدرس الأول في كيفية التعامل مع الآخرين .
- ٥ - تكوين الاتجاهات النفسية نحو الناس والأشياء والمبادئ .
- ٦ - كما تعلمه الأسرة اللغة والعادات التي تبقى معه مدى الحياة .

ولعل أهم ما تعطيه الأسرة للطفل هو تحديد دوره في ثقافته تبعاً لجنسه ودوره ومستواه الاقتصادي والاجتماعي ، وتحديد مركزه ، وفكرته عن نفسه ، وستقتصر هنا على شرح الشعور بالتقارب والالتصاق والمحبة ، وتناول النواحي الأخرى في الفصول التالية .

لقد بينت الدراسات أن الأطفال الذين لا يتمتعون في الأشهر الأولى من العمر وطيلة السنة الأولى بالتفاعل الحار مع الأم ومع الكبار وتبادل الابتسامات معهم واحتضانهم للطفل وتدليله ينشأون ببلادة عاطفية وخمود في النشاط والذكاء كما بينت مقارنة أطفال الملاجيء بأطفال الأمهات السجينات التي سمح لهن برعاية أطفالهن أثناء تواجدهن في السجن أن أطفال الملاجيء المحرومين من حب الأم وحنانها ورعايتها أقل نشاطاً وأقل حيوية وأقل ذكاء .

وعلى الرغم من أن هناك رأياً يقول بأن الأمومة غريزة عامة يشترك فيها الإنسان والحيوان . فهناك من الأدلة ما يشكك في ذلك . ففي جزائر موراي

مثلاً يتم الاحتفاظ دائماً بتعادل عدد الرجال مع عدد النساء . وذلك بقتل العدد الزائد من أى من الجنسين . كما أن كثيراً من الأمهات فى مجتمعاتنا يتخلين عن الأبناء للغير بالتبني برضاهن . وقد بين بيرش (١٩٥٦) Birch أن إناث الفيران التى تربى وحول عنقها ياقة من المطاط تمنعها من شم أعضائها التناسلية ولحسها لا تظهر عندها غريزة الأمومة . كما أنها إذا لم تتمكن من لعق صغارها أثناء ولادتها فإنها تهملها بل قد تأكلها . وفى مستعمرة جامعة ييل للفيران أكلت فأرة وادت ١٨ فأراً مرة واحدة كل صغارها لمجرد أن أحد المساعدين فى المعمل قد نسبها ولوث الفيران الصغيرة برائحته . ويعرف من يقومون على رعاية الحيوانات جيداً أن الرائحة من المؤثرات الهامة التى تقرر السلوك الأموى .

وهناك من علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا من يرون أن حب الأطفال للأم يتم تعلمه عن طريق ارتباط وجه الأم وجسمها وغيرها من الخصائص الجسمانية بما توفره من تخفيف التوتر البيولوجى الداخلى للطفل وخاصة الجوع والعطش . وأعطى المحللون النفسيون التقليديون أهمية لعملية الرضاعة ومص الثدي كأساس لنمو الحب لدى الطفل . بيد أن هناك من الإخصائيين النفسيين من يتشككون حالياً فى مثل هذه الشروح ويرون أن تناول الطفل بحنان فى عملية الرضاعة هو العامل الهام . بينما يرى عدد من العلماء أن حب الطفل لأمه ينشأ نتيجة لمزيج من العوامل منها الرضاعة والملامسة والاحتضان بل والرؤية والسمع .

قام هارلو (١٩٥٨) Harlow وزملاؤه بجامعة وسكونسن بمحاولة دراسة ماذا تقدم الأم لطفلها مما يعتبر فريداً فى العلاقة بين الأم والطفل . وللإجابة عن هذا السؤال استخدم قرود عزلت عن أمهاتها بعد الولادة مباشرة ووضعت مع أمهات بديلة صناعية . إذ قاموا بصنع بديلين صناعيتين للأم إحدهما من الخشب المغطى بالإسفنج والقماش الناعم وأخرى بنفس الحجم والشكل مصنوعة من السلك ، وضعتا فى قفص تربية الصغار . كان عدد القرود الصغار التى استخدمت فى هذا البحث ثمانية . وضع واحد منها منفرداً فى

قفص مع اثنين من هذين النوعين من الأمهات . وكانت تتم رضاعة أربعة منها من زجاجة مثبتة في صدر الأم المصنوعة من السلك ، وأربعة من زجاجة مثبتة في صدر الأم المصنوعة من الإسفنج . وكان لكل الصغار حرية الذهاب إلى أى أم من الإثنتين بعد الرضاعة . وكان الوقت الذى يقضيه الطفل القرد مع كل منهما يتم تسجيله . لوحظ أنه بزيادة العمر وزيادة الفرصة للتعلم أخذ الوقت الذى يقضيه الصغار الذين يرضعون من الأم السلك يقل ويزداد الوقت الذى يقضونه مع الأم القماش مع أنها لا تقوم بالرضاعة . وبهذا غطت راحة الالتصاق على عملية الرضاعة في تقرير اختيار الأم . هذا بالإضافة إلى أنه عند إدخال عامل الخوف (وضع دمية لدبة تضرب على طبلة) كانت القردة باستمرار تجرى إلى الأم القماش للاحتواء بها سواء أكانت هي المرضعة أم غير المرضعة .

تبين هذه التجارب أهمية الالتصاق الجسماني والراحة التي يؤدي إليها في تكوين تعلق الطفل بأمه . ويذكر هارلو أن خبرته وزملائه تبين أن الأم القماش كانت تحقق الأمومة بدرجة كافية لأنها موجودة ٢٤ ساعة في اليوم لإشباع رغبة طفلها الملحة للالتصاق الجسماني . ولم يكن صبرها ينفد . ولم تكن لتوبخه أبداً أو لتعضه إذا غضبت . لهذا كانت في رأيهم تفوق الأم الحية .

لقد أكدت الاختبارات الحقلية المفتوحة ردود فعل الأطفال . فلمدة ثمانية أسابيع ، كان كل قرد يوضع أسبوعياً مرتين في حجرة مليئة بالأشياء التي تبعث على حب الاستطلاع وتحفز القردة الصغار على اللعب بها . وكانت الأم القماش توضع مرة في الحجرة ولا توضع في الحجرة الثانية . لوحظ أن القردة كانت تجرى إلى الأم وتعلق بها متخذة إياها كقاعدة لعملياتها للترود بالأمن لتنتقل بعد ذلك لاستكشاف أحد الأشياء ، ثم تعود إلى الأم قبل أن تحاول استكشاف شيء آخر . وفي غيابها كانت تقف حامدة في وضع متحفز أو تهرع إلى المكان الذى كانت توجد فيه الأم عادة وتجري من شيء لآخر وهي تصرخ وتصبح .

(م ١٠ - الطفولة والمراهقة)

ثم عزلت القردة بعد ذلك عن الأمهات البديلة وتم اختبارها في الاحتفاظ بالحلب يوميا لمدة تسعة الأيام الأولى « ثم كل ثلاثين يوما كل خمسة أشهر بالاختبارات الحقلية المفتوحة . في هذه المرات كانت القردة تقضى وقتها مع الأم ولا تحاول استكشاف الأشياء الأخرى فيما عدا أنها كانت في بعض الأحيان تحضر ورقة مطوية إلى الأم . وفي غياب الأم كانت تتصرف في الاختبارات الأولى ولكنها تدريجيا كانت تتغلب على خوفها وتعتاد موقف الحقل المفتوح . ولما غطيت الأم بصندوق من البلاستيك الشفاف أصابها الانزعاج في البداية ، ولكن انزعاجها كان أقل مما كان في حالة غيابها « واستمرت تستخدمها كقاعدة لعملياتها ، ولم ينقص حب القردة للأمهات القماش أبداً خلال هذه الفترة .

وعموما كان سلوك صغار القردة نحو الأمهات القماش يكاد يماثل ذلك الذى تبديه القردة الأخرى نحو الأم الحقيقية . ويبدو وكأن القردة الصغار قد تكونت عندها رابطة انفعالية ووجدانية نحو الأمهات القماش استمرت مدة طويلة . ومن المضامين الأولية لهذه النتائج أن العامل الجوهرى في الأمومة هو الراحة الناتجة عن الالتصاق التى يمكن أن تقوم بها أم من القماش . غير أن هذه الصغار لما كبرت ظهرت عليها أنماط من السلوك تجعلنا نحذر من التسرع بالقول بأنه يمكن الاستغناء عن الأمهات .

ماذا حدث حين كبرت القردة التى ترعرعت دون أمهات وأصبحت هى نفسها تقوم بدور الأمومة ؟

كان سلوك هذه المجموعة الجنسى غير عادى . فعلى الرغم من كل ماهية لها للممارسة الجنس (بما فى ذلك وضعها على جزيرة غير مأهولة فى حديقة الحيوان وتقديمها لقردة برية كفاءتها الجنسية مضمونة) فإن التزاوج لم يتم . وبعد شهور طويلة لم تحمل من بين الثمان عشرة أنثى التى ولدت فى المعمل سوى أربع وولدت .

لقد تجاهات أول أم منها وليدها تماماً وجلست دون حركة تقريباً على أحد

جانبى القفص تتطلع إلى الفراغ الساعة بعد الساعة . فإذا ما اقرب منها أو من وليدها أحد الملاحظين لم تبد أى شعور بالتهديد . ولما كبر الطفل وأصبح قادراً على الحركة قام بمحاولات يائسة ليستحث الأم على أن تلتصقه . فكانت الأم تنبذ كل محاولاته . إذ كانت تدفعه بعيداً عنها أو تشل حركته بتمرير وجهه في أرض الحجرة .

وتم تلقيح عدد من القردة التي ربيت دون أمهات صناعيا بالإضافة إلى المجموعة التي حملت من ذكور ذات إصرار وقوة وصبر . وقد لوحظت ثلاثة أنماط للأمومة بين هذه المجموعة الجديدة من الأمهات المكونة من عشرين قامت ثمان من الأمهات بتعذيب أطفالها بوحشية . فن عض أصابع اليد أو القدم إلى خبط الصغار في الأرض ، وكادت تقتلها لولا تدخل المشرفين . وكانت سبع من الأمهات غير عابثات بالصغار تماماً . إذ تجاهلنها ولم تستجب لرغباتها ولم تقم بحمايتها . أما الخمس الباقيات فقد وصف سلوكها الأموى بأنه يقع على هامش السلوك المناسب ، وكانت ثلاث منها لها خبرة الاتصال بقردة أخرى ولكن على نطاق ضيق جداً في طفولتها .

وعلى الرغم من العقاب المستمر الذي كانت الصغار تتلقاه كلما اقتربت من الأمهات فلأنها استمرت في نضالها لإيجاد الاتصال الأموى . وفي النهاية كانت العملية عملية تبني الطفل للأم وليس تبني الأم لطفلها ، هارلو (١٩٦٥) ومن حسن الحظ أن السلوك الأموى لتلك القردة قد تحسن في الولادة التالية .

لقد وجد هارلو و هارلو في الدراسات التي تلت ذلك أن القردة التي لم يكن لها سوى أمهات من القماش قد توصلت ولكن متأخرة إلى تكيف جنسى مع الجنس الآخر وخاصة إذا أعطيت فرصة كافية للتفاعل مع غيرها من صغار القردة في نموها . ويقولان : « إن مضامين هذه الدراسات هي أن الأمومة عامل هام لا مصدر للأمن الاجتماعى فحسب ولكن كعامل قوى جداً أيضاً في التدريب الاجتماعى للصغار . ويسعدنا أن نقرر أننا نعتقد الآن أن الأمومة

القطيعة — بشرية أو فردية — عامل اجتماعي هام » وأن الأمومة الحققة قد وجدت لتبقى » هارلو و هارلو (١٩٦٦) .

ومن الحالات التي عرضت للمؤلف حالة شاب في التاسعة عشرة من عمره أتى للعلاج النفسي بعد محاولته الانتحار الرسوب في الثانوية العامة . ولد هذا الشاب في أسرة عدد أفرادها ستة ، ثلاثة ذكور وثلاث من الإناث عدا الأب والأم ، وكان ترتيبه الثالث في الأسرة بعد ولدين وقبل البنات الثلاث .

وكان الأب تاجراً يعمل في محله طيلة اليوم يترك تصريف أمور أولاده للأم . ولم تكن الأم متعلمة ويبدو أنها كانت عصبية سريعة الاستفزاز . فلما أنجبت ولدين كانت تتمنى أن يكون ثالثهم الولد صاحب الحالة بنتا . فلم تهتم به اهتمامها بالطفلين الأولين . فلما أنجبت بنتا بعد سنة واحدة من ولادته صرفت عنايتها كلها نحو البنت . فشب الطفل وهو يشعر بأنه غير مرغوب فيه ، وكان سوء طالع له أن ولد أحوالاً مما كانت تعيره به أمه وإخوته . وهذا كان يزيد من شعوره بالضميم . ومرض بالسرقة من المنزل في سن مبكرة مما كان يزيد من قسوة أمه عليه . ويذكر أن أباه اضطرب إلى تقييده وهو في سن السابعة في السرير لمدة يوم وليلة بعد أن أئتمنه ضرباً .

وبدأ يحس في سن المراهقة بمنافسة أخته له في الدراسة ، إذ سبقته وتخلف هو عنها في المرحلة الإعدادية مما كان يزيد من حملة والديه عليه . ويذكر أنه وضع هدفاً أمامه منذ المرحلة الإعدادية . وهذا الهدف هو أن يكون عظيم . فلعب الرياضة البدنية العنيفة غير أنه لم يستمر فيها لإصابته بالسل . وكان من المتوقع أن يؤدي مرضه إلى عناية الأسرة به . غير أنه يقرر أنهم وإن كانوا قد بذلوا جهداً في علاجه إلا أنهم كانوا ينجشون الأكل معه أو الاقتراب منه . فلما شفى من مرضه انخرط في سلك جماعة دينية متطرفة واشترك فيما كانت تقوم به من تخريب حتى انتهى أمر هذه الجماعة .

ولما انتقل إلى المرحلة الثانوية التف بجماعة من زملائه كانوا من طبقة

اجتماعية أرقى من طبقته فكان يضطر إلى السرقة من محل والده ليجاريهم في سلوكهم . وكان يرغب في بعض الأحيان في استضافتهم لديه في منزله لتناول القهوة أو المرطبات . فكانت أمه تنهره على مسمع منهم وكلمتها الماثورة « يا صايع أنت جايب الصبيح بتوعك هنا ليه » فكان لا يحجر جوابا أمامها رغم شعوره برغبة ملحة في أن ينسف بها الأرض .

وبدأت تنتابه نوبات اعتدائية فجائية في المدرسة كلما شعر بقسوة أى مدرس على أى تلميذ . ورأى ناظر المدرسة مرة يوبخ أحد المدرسين فهب يسبه ويلعنه وهو يخط رأسه في الحائط مما أضطر المدرسة إلى تحويله إلى الصحة المدرسية . وعجزت الصحة المدرسية عن تشخيص حالته . فذهب إلى أحد أطباء الأمراض العصبية فأعطاه بعض الصلصات الكهربائية التي لم تفده . ورغم هذا التاريخ الحافل من المشاكل دخل امتحان الثانوية العامة . وكان أمرا طبيعيا أن يرسب . فلما عرف النتيجة حاول الانتحار . وهذا هو الوقت الذى بدأ فيه الاتصال بالمؤلف للعلاج .

يتبين لنا من هذه الحالة أن اضطرابات الشخصية لا تأتى من مجرد الطريقة التي اتبعت مع الطفل في عملية الرضاعة والفظام وضبط المعدة وما إلى ذلك فقط . بل تعزى أيضاً إلى الجو الذى يسود المنزل والمعاملة الخاصة التي يعامل بها الآباء أبناءهم . إذ يتوقف ما يصيب الطفل من قلق وفقدان الطمأنينة على نوع الخبرات التي اكتسبها في تفاعله مع والديه . وهناك من الأطفال من يمر بهذه الخبرات بسلام رغم صعوبتها إذا لم يصادف في مستقبل حياته من المواقف ما يبعثها من مرقدتها .

العوامل التي تؤثر في معاملة الأسرة للطفل :

١ - حجم الأسرة وطبيعة تكوينها :

الأسرة هي الوحدة الاجتماعية التي يولد فيها الطفل . وتتكون أسرة التوالد في كل المجتمعات تقريباً من أب وأم وإخوة . ولهذا الأسرة عادة أقارب من

ناحية الأب ومن ناحية الأم . وقد يعيش أفراد الأسر جميعاً في مكان واحد كما هو الحال عندنا في كثير من بقاع الريف . وتقع مسئولية التنشئة الاجتماعية على كاهل أسرة التوالد والأقارب في مثل هذه الحالة . لذا يتم التفاعل بين الطفل وبين عدد كبير من أفراد أسرته إذا كانت الدار الواحدة تلم شمل الجميع . غير أننا نلاحظ الآن نوعاً من الاستقلال والانفصالية بين أسرة التولد وأسرة الأقارب . إذ يستقل الزوجان خاصة في المدن عن بقية الأسرة . فلم يعد للجدات والحالات والعمات وغيرهن من الأقارب ما كان لهن من أثر في حياة الطفل .

لقد أدى مثل هذا التغير في حجم الأسرة وفي طبيعة تكوينها إلى التأثير في تنشئة الطفل . إذ بسط مواقف التنشئة الاجتماعية . فلم يعد لدى الطفل أفراد كثيرون يسعى لإرضائهم . كما أدى إلى زيادة الرابطة بين الطفل وأبويه . فقديمًا كان يجد بديلاً للأبوين في الأقارب العديدين . ويرى بعض العلماء أن هذا قد يؤدي إلى شعور الطفل المستمر بعدم الاطمئنان لعدم وجود من يلجأ إليهم إذا فقد الأفراد القليلين الذين يعتمد عليهم .

وقد أدى الاتصال المباشر بين الطفل ووالديه في الأسرة الصغيرة إلى زيادة سلطة الأبوين .

ولعل أهم أثر للتغير الذي طرأ على حجم الأسرة في المدينة كما يراه بوسارد ضرورة مقارنة الطفل المستمرة بغيره من أطفال أسر غربية لها نفس التكوين بينما كانت المقارنة تتم قديمًا بين الطفل والأطفال من أبناء الأقارب في نفس أسرته . وهذا يعتبر أحد الضغوط المستمرة التي تضغط بها الأسرة على الطفل لكي يكون كغيره من الأطفال أو يتفوقون عليهم .

٢- شعور الآباء نحو دور الأبوة :

يجمع الزواج بين رجل وامرأة لكل منهما مكونات شخصية خاصة ، وتقرض الثقافة أن يعال كل رجل وكل امرأة في سن معينة إلى مرحلة

الاستعداد للزواج والإقبال عليه • ويؤدى الضغط الثقافى بكثير من الرجال والنساء إلى الزواج لاهداف واضح سوى أن المجتمع يتوقع منهم ذلك • ويتم الزواج •

وقد لاحظنا أن الكثيرين يقبلون على الزواج بخوف ، وبشعور بالشك فى القدرة على تحمل مسئولياته • ويزيد من شك الرجل أو المرأة فى القدرة على تحمل مسئوليات الزواج انعدام الخبرات الجنسية ، والمعلومات الجنسية الخاطئة عن طبيعة الرجل وطبيعة المرأة • ونوع خبرات الطفولة التى مر بها كل منهما فى أسرته • إذ وجد العلماء فى بحوثهم أن شروط الزواج السعيد نشأة الزوج والزوجة فى بيت لم تهدده الخلافات الزوجية أو الموت أو الطلاق ، لأن الآباء يضرّبون لأبنائهم المثل على ماستكون عليه حياتهم الزوجية فى المستقبل • ويجد الأبناء ممن لديهم مثل هذه الخبرات صعوبة فى الأيام الأولى للزواج فى التكيف للحياة الجديدة • فلماذا ما فوجئنا بالحمل فقد يؤدى هذا إلى تعقد مشاكلها لتوقع زيادة المسئولية •

ولاشك أن الحمل يصحبه تغيرات فسيولوجية عند الزوجة تشعر معها بالضيق وسرعة الاستفزاز • فإذا أضفنا إلى ذلك ما يؤدى إليه الحمل من تغير فى المظهر الجسمانى مما يسبب ضيقاً للزوجة المعجبة بمظهرها وجمالها ، أدركنا مدى ماقد يسببه لها ذلك من مشاكل تضاف إلى حصيلة مشاكلها الأولى مما يحدد اتجاهاتها نحو الطفل فقد تكرهه قبل مجيئه •

وتتحدد •عامله الآباء للطفل بعامل آخر هو مدى رغبتهم فى طفل من جنس معين فقد يرغبان فى ولد فينجبان بنتاً أو العكس بالعكس • وكما رأينا من الأزواج من ينفرون من بيوت الزوجية ليجرد أن الزوجة قد أنجبت بنتاً بينما كانوا يرغبون فى طفل ولد • ولعل الكثيرات من بناتنا قد عانين من معاملة الآباء لمن ولأمهاتهن لهذا السبب الذى لم يكن لأحد يد فيه •

وتؤدى ولادة طفل جديد فى الأسرة إلى تغيير نمط حياة الأسرة • إذ يضطر الأب وتضطر الام إلى التخلي عن كثير من حريتهما للعناية بالطفل • إذ

تضطر الأم إلى صرف وقت أطول في المنزل لتنشئته في عمل مستمر لإرضاء مطالب الطفل « وقد يؤدي هذا إلى صرفها عن الاستجابة لمطالب الأب الذي يتحتم عليه أن يعتمد على نفسه في كثير من الأمور التي كانت تؤذيها له زوجته « وقد يتطلب منه الطفل الإسهام في العناية به في بعض الأحيان « بالإضافة إلى الأعباء المالية الجديدة التي يفرضها الطفل على الأسرة .

ولابد أن يؤدي مجيء الطفل إلى إحكام الرابطة بين الأب والأم . ولن يكون الطفل في الزواج التبعي منحة بل نقمة على والديه . فإذا كان أحدهما أو كلاهما يكره الآخر ويود فصم عرى الزوجية « فلن ييسر لهما مجيء الطفل مشكلتهما بل يزيداهما تعقداً « وقد يعتبر الطفل مسئولاً في نظرهما بعد ذلك عن التعاسة التي قد يرغمان على أن يقضيا حياتهما فيها . فينعكس هذا على تصرفاتهما نحوه وفي معاملتهما له . ولن يحصد الطفل من علاقتهما واستمرار الحياة الزوجية سوى التعاسة والشقاء .

وتزداد مشاكل الطفل إذا كان شبيها لأحدهما . فيرى الزوج الذي يكره زوجته صورتها في ولده أو العكس بالعكس . كما تزداد مشاكله إذا ولد بنقص جسماني أو عقلي ملحوظ يشعر معه الآباء بالعار .

ويرى المحللون النفسيون أن تعاسة الزوجين في الحياة الزوجية كثيراً ما تؤدي إلى استغلال الطفل لإشباع الحاجات التي عجز الطرف الآخر عن إشباعها ، ويرون أن هذا الاستغلال قد يصل في بعض الأحيان إلى حد الاستغلال الجنسي عن غير عمد ، فكم من الأمهات يتعلقن بأبنائهن تعلقاً زائداً فيه إشباع جنسي لهن وقضاء على الصحة العقلية للطفل .

٣ - جماعة القرناء :

تكون الأسرة في بداية حياة الطفل مسئولة عن تنشئته الاجتماعية وتعليمه أساليب مجتمعه . فإذا ما ذهب إلى المدرسة يشارك المعلمون الآباء في عملية التنشئة الاجتماعية . وكلما كبر الطفل وزادت مشاركته الاجتماعية بتفاعله

مع الآخرين تحتل جماعة القراء مركزاً هاماً في التأثير على سلوكه . إذ يصبح هؤلاء اقراء وسيلة لإظهار التقبل أو النبذ وبالتالي الإثابة أو العقاب وتشكيل سلوك الطفل في الاتجاه الذي ترغبه الجماعة . مع مده بالتخوذج الذي يجب عليه أن يتخذه . إلا أننا يجب أن نشير إلى أنه بالرغم من أهمية جماعة القراء في تشكيل سلوك الطفل ، إلا أن تأثير هذه الجماعة لا يحل محل دور الآباء والمعلمين وغيرهم من الكبار إلا بعد بلوغ الفرد سن النضج . وتم عملية التحول من الوقوع تحت تأثير الآباء إلى الوقوع تحت تأثير القراء تدريجياً إذ تستمر حوالى عشرين سنة من العمر .

وتوجد بذور الانصياع لضغوط القراء في الاعتماد الأولى للطفل على الأم . وكلما كبر الطفل زادت حاجته للانتماء إلى الآخرين . ويصبح الانتماء لجماعة القراء مجزياً ومثيباً والأبتعاد عنهم فيه عقوبة . ويمتص الطفل معايير جماعة القراء ثم يحكمها في نفسه .

ويميز رايسمان Reisman بين ثلاثة أنواع من الناس حسب مدى الانصياع للآخرين والضبط الاجتماعى للسلوك . وهذه الأنماط هي :

(أ) الأشخاص الذين توجههم التقاليد ، وهؤلاء يتحكم في سلوكهم المعايير الاجتماعية والأعراف . (ب) الأشخاص الذين يتحكم في سلوكهم ضبط داخلي أساسه المعايير الشخصية . (ج) الأفراد الذين يتوقف سلوكهم على توجيه الآخرين لهم ، أى الجماعة التى يمجّد نفسه فيها . وتصنع المجتمعات أفرادها بالصيغة التى تفرضها التنشئة الاجتماعية . ويعانى من ينصاع للآخرين من الخوف من العزلة والخوف من النبذ . وتوجد حالياً اختبارات لقياس مدى الضبط الداخلى والضبط الخارجى لدى الأفراد .

وفى بحث قام به نيمان Neiman (١٩٥٤) تم تقسيم عينة من البنين والبنات من مستوى اجتماعى اقتصادى منخفض إلى ثلاث مجموعات يتساوى فى كـ منها عدد البنين والبنات . مجموعة تتكون من أطفال قبل سن المراهقة (١١-١٣ سنة) ومجموعة تتكون من أفراد فى سن المراهقة (١٥-١٨ سنة

ومجموعة تتكون من أفراد تجاوزوا سن المراهقة (٢٠-٢٤ سنة) طبق عليهم استبيان يتناول قضايا عن الأنوثة في مجالات المركز الأسرى والسلطة، والسلوك الجنسي والأخلاق ، والحقوق السياسية والقانونية ، والامتيازات الاقتصادية، طلب من أفراد المجموعات الثلاث أن يعطوا إجاباتهم فيما يختص بإتجاهاتهم الذاتية نحو هذه القضايا . كما يعطون الاجابات التي تعبر عن اتجاهات كل من الوالدين . وكذلك الإجابات التي يمكن أن تعبر عن رأى قرنائهم . بينت معاملات الارتباط أنه بداية من سن ١١ سنة ظهر التحول المستمر بعيداً عن اتجاهات الآباء فيما يختص بالدور الأنثوى . والاتجاه نحو فكرة القرناء عن هذا الدور ، واستمر هذا التزحزح إلى سن البلوغ . وظهر هذا الاتجاه بين الذكور بزيادة الاتجاه الذكري والاحتقار للدور الأنثوى .

وهناك من الدراسات ما يبين أن التفوق الدراسي من علمه إنما يتوقف إلى حد كبير على مدى التعصيد الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد سواء من الأسرة أو المعلمين أو جماعة القرناء .

ومن واقع الحياة العملية نجد أن أبناء المدارس وبناتها يعانون كثيراً من مقارنة أنفسهم بالغير في الملبس والمظهر والسلوك ، وقد تؤدي الرغبة في الحصول على تأييد الجماعة وتعصيدها إلى انحراف البعض مادام هذا الانحراف يؤدي إلى الحصول على تعصيد الآخرين .

وقد أعطى بعض العلماء الذين درسوا ظاهرة الانحراف الأهمية لجماعة القرناء في تفسيرهم لظاهرة الانحراف . فقد أكد ثراشر (Thrasher ١٩٣٦) وهوايت (White ١٩٤٣) أهمية الجماعة الصغيرة التي ينتمى إليها الحدث كعامل من عوامل التنشئة المضادة للمجتمع ووصفا هذه التنظيمات المعقدة وصفا مسهباً . وهناك عدة نظريات تشرح لماذا توجد مثل هذه الجماعات، وكيف تتخذ شكلها والمراحل التي تمر بها للمران على الانحراف .

وقدم كوهين (١٩٥٥) إحدى هذه النظريات التي تؤكد أن الخواصة

الواضحة لعصبة الرفقاء كثافة غرعية هي معارضتها لبعض القيم السائدة لمجتمع البالغين المحترم . وهذا الاتجاه السلبي الذي يسود أفراد العصابة يجد تعبيراً له في السلوك المنحرف كالتخريب . إذ كثيراً ما يصحب السرقة التخريب . ويعتبر كوهين هذا السلوك كنوع من الاحتجاج الموجه ضد المجتمع الذي يضع العمال وأبناءهم في ظروف من الحرمان . ويرى كوهين أن السلوك المنحرف يعوض أبناء المحرومين الفرص التي لا يجدونها في مكان آخر .

ويرى آخرون أن الاتجاهات الإجرامية والسلوك الإجرامى يتم تعديها ببساطة من الصبغة كغيرها من الاتجاهات . وللدلالة على مدى أهمية جماعة القرناء حالة فتاة كان عمرها ستة عشر عاماً بالسنة الأولى بإحدى المدارس الثانوية وجدت في مساء أحد الأيام تسبح في بركة من دماها في فناء أحد المنازل المهجورة .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي حاولت فيها الانتحار . كانت من أسرة الأب فيها مثقف ثقافة عالية ويشغل وظيفة محترمة . غير أن الأم كانت غير متعلمة ، وكانت الفتاة أكبر أخواتها البالغ عددهم أربعة . ظلت حياتها طبيعية في المدرسة الإعدادية وفي الأسرة « اللهم إلا من بعض الشكاوى التي ذكرتها بعض المدرسات من أن الفتاة كانت عدوانية في سلوكها . فلما انتقلت إلى المدرسة الثانوية كان الأب قد بدأ يهجر المنزل لزوجته بفتاة صغيرة ، وأثر هذا في اتجاه الأم نحو نفسها ونحو أولادها « إذ بدأت تهمل في العناية بالمنزل وفي العناية بالأطفال ، ولم يكن دخل الأب كافياً للصرف على بيتين ، فلم يتمكن بذلك من تحقيق رغبات الفتاة في الظهور بالمظهر الذي يرضى ذاتها بين قريبتها . فبدأت تشعر بالعار من مظهرها وملابسها . وكنوع من التحدي زادت هي في إهمال نفسها ، مما أدى إلى نفور الفتيات منها أو إغاضتها بمظهرها . وفشلت في تكوين صداقات معهن في الوقت الذي كانت تمنى فيه صداقة أى واحدة ودعوة أى صديقة إلى منزلها ، إذ باءت كل محاولاتها لتحقيق ذلك بالفشل . وذكرت أنها كانت تخشى دعوة أى بنت إلى المنزل خشية اطلاعها

على مظاهر الإهمال فيه « مما يزيد من سوء فكرته عنها . ولم تجد أما لفهمها إذ كانت غارقة في همومها ، وتصب جام غضبها عليها بحكم كونها البنت الكبرى ، كما أنها لم تجد في المدرسة أى معلمة توليها عنايتها واهتمامها « بل كانت المعلمات على عكس ذلك يتعاملن عليها لمظهرها وإهمالها في واجباتها . فحاولت الانتحار في دورة مياه المدرسة بعد توزيع إحدى المدرسات لها « وكانت المحاولة محاولة طفلية لجذب الانتباه إليها « غير أنها لم تحقق الهدف ، بل زادت في عارها أمام زميلاتهن . وبعد يومين خرجت من المدرسة بعد الظهر فأوت إلى فناء المنزل المهجور وقطعت شرايين راسها بقسوة .

تبين هذه الحالة مدى تأثير الضغوط الاجتماعية ، ومدى الحاجة إلى تقبل الآخرين وإلى أى حد يمثل النبذ عقوبة اجتماعية « وأن العزلة الاجتماعية ربما تؤدي إلى الانتحار .

٤ - الأفكار الدينية والدين :

ومن ضوابط التنشئة الاجتماعية وعواملها ما يسود المجتمع من أفكار غيبية بالاضافة إلى المعتقدات الدينية والمعايير الاجتماعية للسلوك المقبول اجتماعياً في مجتمع من المجتمعات والتي يتم غرسها في الطفل منذ أن تفتح عيناه على الحياة بالدعاء له أو الدعاء عليه « والدعاء له يعنى الاستعانة بالقوة الإلهية لمكافأته وإثابته ، بينما الدعاء عليه يعنى الاستعانة بهذه القوة للانتقام منه وعقابه . فمن المألوف في ثقافتنا مثلاً أن يسمع الطفل الدعاء له بأن يحبه الله ويحفظه ويرد عنه عين الحاسدين « ويسدد خطاه ، وينصره على الأعداء ، ويهيء له النجاح « كما يسمع استعداد الله عليه بأن ينتقم منه إذا فعل شراً ويؤذيه ويسلط عليه من هو أقوى منه وما إلى ذلك . ولما كان الإنسان لديه القدرة على توقع الخير أو الأذى قبل أن يحدث أى منهما ، فهو يؤجل إشباع حاجاته توقعا للإشباع المؤجل ، وهذا يمثل ناحية من نواحي الضبط للسلوك فإذا أدت الصدقة إلى تحقيق خير يأتيه عزا هذا إلى الله أو القوة الغيبية « وإذا

ناه شرعاً أيضاً إلى نفس القوة التي تمنح وتمنع وتكافئ وتعاقب . ويبدو أن توقع الشر أقوى لدى الكثيرين من توقع الخير مما يولد القلق ، ويصبح هذا مصدراً من مصادر ضبط السلوك . وقد بينت البحوث عن القوى الغيبية في كثير من الشعوب أن هذه القوى تمثل مصدراً للعقاب على الأفعال الخاطئة أكثر مما هي للمنح والعطاء . والملاحظ بالفعل أن القوى الغيبية تستخدم أو يتم طلبها للمساعدة في الإيذاء أكثر من طلبها للمنح . ففي إحدى مدارس الحضانة سأل طفل عمره ثلاث سنوات ونصف زميلة له عن قلمه الذي ضاع ، فقالت له لا أعرف . فرد عليها قائلاً « أنت أخذتيه وربنا جيد خلحك النار . فلما سئل كيف عرفت هذا قال أبله قالت : لنا كده .

وفي زيارة للمؤلف لإحدى دور الحضانة في بلد عربي وجد الأطفال يحفرون حفرة كبيرة « فسألهم « ماذا تفعلون » فردوا « نحفر حفرة لندفن فيها ربي » فسألهم لماذا ؟ فردوا إذا عملنا أي شيء في المنزل تقول الأم ربي يعاقبك ، وفي المدرسة تقول المعلمات ربي يعاقبك ، لهذا نحن ندفن ربي قبل أن يعاقبنا . وهكذا تعلم الأطفال مبكراً أن الله يعاقب ، وهكذا بدلاً من أن تسبق رحمته عقابه « يتعلم الأطفال أنه يعاقب فحسب . وهذا مثل واضح على سوء التربية الدينية .

ونحن نعرف الكثير مما يسود مجتمعاتنا من خرافات وشعوذة وسحر وطقوس يلجأ إليها السذج ، بل وكثير من المتعلمين للأستعانة بها إذا ما أصبح الواقع مراراً . وقد صادف المؤلف كثيراً من المتعلمين بل والقيادات السياسية ذات السطوة التي تؤمن بكثير من الخرافات ، بل وتمارس محاولة الاستعانة بالمشعوذين والسحرة ليتنبأوا لهم بالأحداث ويستكشفون لهم الطالع .

وفي دراسة قام بها نين Nen (١٩٦٤) على ٣٦٧ أسرة تبين أن الضبط الاجتماعي يتحالف الآباء مع الله - أي قول الآباء الأبناء بأن الله سوف يعاقبهم إذا أساءوا السلوك - أمر مألوف . ويستعين بهذا التحالف ويستخدمه الأبوان اللذان يشعران بالضعف أو العجز أمام الأبناء وأمام المجتمع ككل « ويأملان بذلك الحصول بطريق غير مباشر على السيطرة على الأبناء .

وفي دراسة قام بها لامبرت وترينانديس وولف Lambert, Triandis & Wolf (١٩٥٩) على ٦٢ مجتدعا تنتشر جغرافياً انتشاراً عريضاً، وذلك لمحاولة بيان أن الاعتماد في القوى الغيبية التي تعاقب ينعكس في ممارسات عقابية في تنشئة الطفل وأن الاعتماد في القوى الغيبية الطيبة ينعكس أيضاً في ممارسات عطائية في التنشئة . وقد أيدت نتائج الدراسة ذلك . إذ يرى المؤلفون أن الإيذاء والألم في الطفولة في المجتمعات التي تتصف آلهتها بالعدوانية والعتاب يؤديان إلى تواجد القلق في الطفل للصراع بين توقعاته للإيذاء وتوقعاته للعطاء . ويخف قلق الطفل بتفكيره في الآلهة على أنها ذات قوة عدوانية وهذا يتفق مع توقعه للأذى ، وتخفيف القلق بهذا الشكل يصاحبه قلق الآباء من ناحية مستقبل الطفل . ويتم تخفيف قلق الآباء بقيامهم بممارسات تؤدي بالطفل إلى اعتمادهم على نفسه . واستقلاليته مما يهيمه لأن يكون مستعداً لمواجهة العالم المليء بالأذى والذي سوف يواجهه كشخص بالغ . أما في المجتمعات التي تتصف الآلهة فيها بالعطاء فلا يوجد ضغط على الطفل « وتسم ممارسات التنشئة هنا بالإثابة » وتشجع اتخاذ الطفل لأنماط السلوك التي فيها عطاء عن طريق عمليتي التقمص والتقليد .

ويدخل في الغيبيات كقوى ضابطة للسلوك الاشكال المختلفة من التفكير الخرافي كالتأويل بأشياء معينة والتشاؤم من أشياء أخرى . ومن العجيب أن وسائل الإعلام كثيراً ما تدعّم مثل هذه الخرافات . وأحسن مثل على ذلك ما تنشره معظم الصحف اليومية إن لم يكن كلها عن حظك اليوم ، ولا يفوت القراء قراءتها يومياً ، ويحكم طالعهم في سر حياتهم طيلة اليوم انتظاراً لطالع الغد .

وإن كانت معظم المجتمعات حتى المتقدمة منها تسود فيها الكثير من هذه الخرافات إلا أنها تؤكد امتصاص الفرد للمبادئ الدينية والخلقية كمعايير للخبرات الذاتية مثل الاعتزاز بالنفس أو الشعور بالذنب . والاعتزاز بالنفس أمر فيه مكافأة ذاتية ، بينما الشعور بالذنب أمر فيه عقوبة ذاتية .

ومهما يكن من أمر الغيبيات والتفكير الخرافي ، فكلها تعتبر من ضوابط السلوك ومن أساليب التنشئة الاجتماعية .

ملخص

تناولنا في هذا الفصل مصادر الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية الثلاثة الأساسية وهي الأسرة ؛ وجماعة القرناء ؛ والأفكار الغيبية وأكدنا أن الأسرة هي أهم هذه المصادر « بل إن العلماء يطلقون على ما تقوم به الأسرة في السنة الأولى بالتنشئة الأولية . وأهم ما تعطيه الأسرة للطفل هو الحب دون تدليل . وراحة الالتصاق وحرارته . وقد بينت كثير من البحوث أن الأطفال الذين يحرمون من حنان الكبار وخاصة الأم في السنوات الأولى من العمر يكونون أقل نشاطاً وأقل ذكاء من غيرهم الأطفال .

ثم تناولنا بعد ذلك جماعة القرناء ، وبيننا أن تأثيرها يكون الأقوى إذا ما بدأ فطام الطفل عن الأسرة . وأن جماعة القرناء تؤدي إلى تنشئة أعضائها طبقاً لمعاييرها .

وأخيراً بيننا أهمية الأفكار الغيبية والخرافية والدين كمصادر للضبط الاجتماعي .



الفصل التاسع

مظاهر التنشئة الاجتماعية

الدور ، والمركز ، وفكرة المرء عن نفسه ، والقيم الخلقية

العمليات النفسية في التنشئة الاجتماعية

تقوم عمليات التنشئة الاجتماعية على ما يسمى بالتعلم الاجتماعي . والتعلم مصطلح يستخدمه علماء النفس ليدل على تغيرات مستديمة نسبياً في سلوك الكائن الحي يتم اكتسابها بالخبرة . ويستخدم مصطلح التعلم أيضاً ليدل على تلك العمليات التي تتم في داخل الكائن الحي التي تؤدي إلى إحداث هذه التغيرات . أما التغيرات التي تحدث نتيجة للنضج ، أو التكيف الحسي ، أو الإصابة في حادث ، أو الجراحة الطبية ، أو العقاقير ، أو التعب ، أو المرض فلا تدخل في تعريف التعلم . والإنسان بطبيعته ينزع إلى الارتباط بالآخرين ليضمن بقاءه، ويحصل على ما يستثير نشاطه ، وعلى المعاني، والذاتية. وفي لغة التعلم يعتبر الارتباط بالآخرين هدفاً في حد ذاته ، ويؤدي النجاح في تحقيق هذا الهدف إلى تدعيم السلوك الذي يحقق الاتصال بالآخرين . ويكون الناس الذين في استطاعتهم الانتباه إلينا والتفاعل معنا في موقف يسمح لهم باختيار أنواع السلوك الذي يكافئونه ، ونحن بالتالي نجد الطرق التي تؤدي إلى الحصول على هذه المكافأة : وهكذا يكافئ الآخرون من ذوي الأهمية لنا أنواعاً من السلوك فيتم تعلمه . وهذا التعلم تعلم اجتماعي . والعمليات التي يتم بها تعلم السلوك الاجتماعي هي :

١ - التقليد : يكتسب الإنسان خلال تنشئته الاجتماعية كثيراً من المهارات أو العادات والاتجاهات والقيم أثناء تفاعله مع الآخرين . ويقوم الناس من حولنا بتدعيم أو مكافأة السلوك الذي يرغبونه فينا . إلا أن عملية التدعيم أو المكافأة

وحدها لا تنكفى . إذ أن الأساس في القيام بالسلوك هو عملية التقليد . فالطفل بحاجة إلى الأم لإشباع حاجاته الجسمانية « وبحاجته إلى حرارة الالتصاق ، والاستشارة الحسية « والحركات الجسمانية ، وتنشيط عملياته العقلية : يجد نفسه معتمداً على الأم والأب لإشباع كل هذه الحاجات . ويكون الأبوان في هذه الحالة أداة للاشباع . ويحدث خلال ذلك أن يقوم الطفل بأنواع من السلوك تماثل سلوك الأبوين « إذ يبدأ في تقليدهما في الصوت وفي الحركات التي يقومان بها .. وهكذا يتم تقليد الأبوين دون تدعيم أو التعليم عن قصد . ويقبل الأبناء الآباء فيما هو مرغوب أو غير مرغوب .

ومن التجارب التي تبين أهمية التقليد دون وجود إثابة أو تدعيم التجارب التي قام بها فولترز وباندورا (١٩٦٣) ، وباندورا (١٩٦٥) . في واحدة من هذه التجارب كان الطفل يدخل حجرة مليئة باللعب فيجد شخصاً بالغاً مثل المعلم أو يجد طفلاً آخر . كان هذا الشخص الآخر يمثل دور النموذج للطفل إذ يقوم بضرب الدمية الكبيرة والتصرف عدوانياً لزاء اللعب والدمى الأخرى كانت هذه المرحلة تسمى المرحلة التدريبية . بعدها يخرج الطفل من الحجرة . وبعد فترة من الزمن يعود وحده للحجرة وفيها نفس الدمى بما في ذلك الدمية الكبيرة التي ضربت أمامه فيما سبق . لقد وجد باندورا وزملاؤه (١٩٦٥) أن الطفل السوي في العادة يقوم بتقليد النموذج « إذ يتصرف مثله بأن يضرب الدمية الكبيرة ويسلك سلوكاً عدوانياً نحو الدمى الأخرى سواء رأى الطفل النموذج وهو يكافأ على ما قام به أو لم يكافأ .

٢ - التقمص :

يعنى التقمص في اللغة ارتداء القميص . ويقال على الاستعارة تقمص الولاية والإمارة وتقمص لباس العز أى لبس ذلك كما يلبس القميص . ويقال تقمصت الروح أى انتقلت من جسد إلى جسد آخر على زعم بعضهم وهو على جعل الأجساد أقصبة للأرواح تنتقل من واحد إلى آخر منها .

والتقمص كصطلح نفسى هو عملية يمتص فيها الفرد الصفات المحيية إلى النفس والتي يرجو أن تكون مكملة له من شخصية يحبها ويحاول أن يتخذها

مثلا يحتذيه « ويتم ذلك بطريقة لاشعورية » مما يؤدي إلى أن يأخذ الشخص عن هذا النموذج صفاته جميعها السي « منها والحسن .

والطفل في تقليد اللام والأب في سلوكهما إنما يتم ذلك نتيجة لعملية التقمص ، وتنشأ عملية التقمص من زيادة اعتماد الطفل عليهما « وقد ضربنا مثلا للتقليد بتجربة باندورا وزملائه « وقد حاول هؤلاء في تجربتهم اختبار النظريات التي تتناول عملية التقمص . وهذه النظريات هي نظرية « الحسد للمركز » ونظرية « التفرد الاجتماعي » ونظرية التدعيم الثانوي . وتعطى كل من هذه النظريات تفسيراً خاصاً لعملية التقمص للشخص الذي يصبح نموذجاً للتقليد . فرويد يرى مثلاً أن نظرية الحسد للمركز تبين اختيار منافس ناجح يكون نموذجاً له . في عقدة أوديب يرى الطفل أن أحد الأبوين المماثل له في الجنس منافس خطير له في حب أحد الأبوين من غير جنسه . ونظراً لعدم التكافؤ في المنافسة يقوم الطفل بحل هذا الصراع بأن يصبح ممثلاً لمن ينافسه ، فيصبح الولد كأبيه وتصبح البنت كأمها تقليداً وتقمصاً . والواقع أن باندورا وزملاءه لا يميزون بين التقليد والتقمص « فالشخص يقلد من يتقمص .

أما نظرية « النفوذ الاجتماعي » فإنها ترى أن أي أحد له نفوذ ليتحكم في أنواع الإثابة الهامة سوف يتم اختياره كنموذج للتقليد . فالمهم هنا ليس تمتع شخص بالإثابة ولكن سيطرته على حق المنح والمنع بالنسبة للطفل « وليس من الواضح هنا ما إذا كان الباعث هو إرضاء الشخص صاحب النفوذ أو مشاركته في قوته .

أما نظرية « التدعيم الثانوي » للتقمص فتري أن مفتاح هذه العملية هو عملية الارتباط التي تتم أثناء حدوث الإثابة . إذ أننا نربط بين الإثابة وبين ما يصاحبها أثناء العطاء . والارتباط الشرطي يحدث نتيجة لتكرار ارتباط صورة الآباء بإرضاء الرغبات البيولوجية والاجتماعية المبكرة لدى الطفل ، أي ترتبط في ذهن الطفل قيمة الإثابة بأفعال الوالدين . فإذا ما

استطاع الطفل القيام بنفسه بفعل من هذه الأفعال التي يقوم بها الوالدان فإنه يشعر بالإثابة ذاتيا . ويرى بعض العلماء أن هذه العملية هي أساس تعلم الطفل للغة وتقليده للآباء .

تقوم نظرية « الحسد للمركز » إذن على القيام باختيار منافس ناجح واتخاذ كمنموذج ، ويرى فرويد أن هذا يكون نتاجاً للموقف الأوديبى الذى يتنافس فيه الطفل مع من يماثله فى الجنس من الأبوين سعيا لحب من يخالفه فى الجنس من الأبوين . ولما كان من يتم التنافس معه أقوى من أن يتغلب الطفل عليه ، فالحل السليم هو أن يصبح الطفل مثله بتقمصه لشخصيته .

أما نظرية النفوذ الاجتماعى فهي تقوم على أساس أن الفرد الذى فى يده حق المنح والمنع يتم اختياره كمنموذج للتقليد . وليس من الواضح هنا ما إذا كان الهدف هو الحصول على المنح أو مشاركة الآخر فى قوته وقدرته على المنح أو كلا الأمرين : المهم هو أن صاحب النفوذ هو الذى يتم تقليده .

وترى نظرية التدعيم الثانوى أننا نربط بين المنح وما يصاحب عادة عملية المنح، وهكذا بالاشتراط، ويؤدى استمرار ارتباط الوالدين بالراحة البيولوجية والمكافأة الاجتماعية إلى أن يربط الطفل الإثابة أو المنح بالوالدين . ولما كان الطفل يستطيع القيام ببعض الأفعال التي يقوم بها ، فإن هذا يؤدى إلى إثابته فكلما اقتربت أفعاله فى مستواها من مستوى النموذج ، كلما زاد الارتباط بالنموذج الذى أصبح يرتبط بالإثابة الأولية . ويعتبر ماورر Mowrer هذه العملية هي الأساس فى عملية التقمص عامة وتعلم اللغة على وجه الخصوص .

٣ - التطبيع :

التطبيع مصطلح أدخله فى علم النفس كونراد لورنز فى سنة ١٩٥٢ وهو أحد العلماء الذين قاموا بدراسة سلوك الحيوانات . إذ لاحظ من دراسته لصغار الأوز أن الأوزة بعد الفقس مباشرة تكون لديها نزعة قوية لأن تتبع فى سيرها أى شىء كبير يتحرك تراه أمامها . فإذا كان هذا الشىء هو إنسان وليس الأوزة الأم فإنها تسير خلفه وينطبع هذا فى سلوك الأوزة الصغيرة . وهذا

نوع من التعلم الاجتماعي الذي أطلق عليه كونراد لورنز التطبيع ليميزه عن الأنواع الأخرى من التعلم .

ويرى بعض علماء الحياة أن هذا النوع من التعلم لا يختلف عن غيره من أنواع التعلم اللهم إلا من ناحية استعداد الأوزة في وقت معين في دورة حياتها للقيام بهذا السلوك . فإذا فات هذا الوقت لا يحدث هذا النوع من التعلم . ولهذا نجد من العلماء من يؤكد أهمية « المراحل الحرجة » التي يتم فيها ما أسماه سكوت (١٩٥٨) بالتنشئة الاجتماعية الأولية . ويبدو أن كل الحيوانات الاجتماعية الراقية بما في ذلك الإنسان لديها في باكورة حياتها هذه المرحلة الحرجة التي تتم فيها عملية التطبيع (تتأقلم في الحيوانات المختلفة من عدة ساعات إلى عدة أشهر) . وتحدد خبرة الحيوان في هذه الفترة نوع الفرد الذي سوف يتعلق به بقية حياته . وتمثل الأم في معظم الحالات المصدر الأساسي للتنشئة الاجتماعية الأولية . ويبدو أن دراسات هارلو على القردة توحى بأن هذه العملية تصدق على الإنسان كما تصدق على الحيوان ، إلا أنه يجدر بنا أن ننبه إلى أن التعلم عند الإنسان لا يقوم على مجرد تكوينات جسمانية كالحيوانات الأخرى . إذ أن الاحتمال كبير أن تتميز التنشئة الاجتماعية الأولية عند الإنسان بمزيد من التنوع عن الحيوانات الأخرى . ولا زالت قضية ما إذا كانت هناك مرحلة حرجة للتطبيع في حياة الإنسان قضية لم تحسم بعد .

تشترك هذه النظريات الثلاث في التسليم بأن الخبرات الأولى للطفل التي يتم مكافأتها ترتبط بآخرين وخاصة الأبوين ، وتسلم كلها باعتماد الطفل في باكورة حياته وبقدرة على التعلم . وتشترك كلها في نتائجها من ناحية تقمص الطفل للوالدين .

مظاهر التنشئة الاجتماعية :

١ - تحديد الدور :

تحدد الثقافة الدور العام للطفل . فللولد دوره كولد ، وللبنت دورها كفتاة . لذا نجد أن الأسرة تطلق على الوالد اسماً ذكراً ، وتطلق على الفتاة

اسما مؤنثا « ويدلل الطفل بأسماء مذكرة » كما تدلل الفتاة بأسماء مؤنثة . ويرتدى الولد ملابس الصبيان « وترتدى الفتاة ملابس الفتيات . وهكذا يعامل الطفل الذكر منذ اللحظة الأولى في حياته ليعد لدوره كرجل ، وتعامل الأنثى لتعد لدورها كفتاة . فيدرب كل منهما على أسلوب معين في الحياة أى يتعلم دوره فيها « ويتحدد هذا بسن الطفل وجنسه « فدوره وهو فى الخامسة من عمره غير دوره وهو مراهق غير دوره وهو رجل .

ويتضمن الدور العام للرجل أو المرأة أدوارا مختلفة . فهو عبارة عن مجموعة من الأدوار تنتظم كلها وتبلور تحت ما يسمى بفكرة المراهق عن نفسه .

ففى ثنيات الدور العام للرجل مثلا دوره كابن « ودوره كرجل بين أصدقائه « ودوره كعامل أو موظف فى العمل ، ودوره كفرد يكسب لقمة عيشه ، ودوره كزوج إذا كان متزوجا ، ودوره كأب إذا كان له أطفال . وتعدد الأدوار التى تنضوى تحت الدور العام بتعدد المواقف التى يتعرض لها الفرد فى حياته اليومية .

وهذه الأدوار المختلفة هى حصيلة الخبرات الاجتماعية للفرد أثناء تفاعله مع أسرته والمجتمع الخارجى . وتعود كلها فى نشأتها إلى نوع التدرج الذى تلقاه الطفل فى أسرته والفرص التى مربها لاكتساب هذه الأدوار .

٢ - المركز :

ويعرف علماء الاجتماع المركز بمكانة الفرد فى المجتمع بين أقرانه . وليس للطفل مركز واحد بل له عدة مراكز مختلفة . إذ يتحدد له الأسرة مركزه فيها . فهل هو الطفل الأوسط أو الأول أو الأخير . ويتحدد مركزه فى الأسرة على ما تضيفه عليه الأسرة من امتيازات « أى أن الأسرة هى التى تمنحه مركزه فيها وتحدده له . وكثيرا ما تؤدى صفات الطفل الخاصة إلى اكتسابه مركزا جديدا فيها . فقد يؤدى ذكاء الطفل وبخاصة فى المدرسة أو لباقة وخفة دمه إلى تغيير مركزه بين إخوته .

ويتوقف المركز على ترتيب الطفل بين إخوته وعلى سنه وعلى جنسه وعلى مميزاته الفردية .

ويهمنا هنا المركز الذى تحدده الأسرة للطفل فى المجتمع الأكبر . ويتحدد هذا المركز بمستوى الأسرة الاجتماعى والاقتصادى ، وبمقارنة الطفل نفسه وأسرته بالأطفال وأسرهم . فابن العامل يعرف مركز والديه ومركز أسرته وبالتالي مركزه بالنسبة لغيره من الأطفال . كذلك ابن الطبيب وابن الحاكم . وهذه المراكز تكون عادة جامدة فى المجتمعات الطبقة الجامدة التى يصعب التحرك فيها من طبقة لطبقة . غير أنها تتغير فى المجتمعات المتطورة . إذ يؤدى التعليم . والاجتهاد الشخصى ، والمال ، والزواج إلى تغير مركز الفرد وتحرره من المركز الذى حدده له ميلاده فى أسرة معينة .

ويتصل المركز اتصالاً وثيقاً بتحديد فكرة المرء عن نفسه . وهذه الفكرة هى الناحية التى سنتكلم عنها فيما يلى :

٣ - فكرة المرء عن نفسه (الذات أو النفس) :

نقول فى استعمالنا اليومية « فلان حاطط نفسه فى السما » ، « وفلان نفسه عزيزة » ، و « فلان نفسه منحطة » ، « وفلان يجهد نفسه من أجل أبنائه » .

فما هى هذه النفس ، أو الذات ، وكيف تتكون ؟

يولد الطفل فى عالم مليء بالضجيج والضوضاء وليس لديه أى فكرة عن نفسه . فجسمه والعالم الخارجى يكونان وحدة واحدة لا يستطيع الطفل أن يفرق بينهما . وتستمر فكرة الطفل عن نفسه طيلة السنوات الخمس الأولى من حياته غامضة ، ولا تتضح ولا تبلور حتى تنفصل ذاته تماماً عن العالم الخارجى ، ويتمكن من رؤية نفسه كما يراها الغير . ومن الأدلة على عدم تبلور ذات الطفل فى سنه الأولى ما يأتى :

١ - يلاحظ أن الطفل فى السنة الأولى من حياته لا يفرق بين ما هو جزء من جسمه وما هو مادى فى بيئته . فإذا وضعت فى يده قطعة من الحجر جذبها

إلى فمه ، وكذلك إذا وضعت يده على أذنه حاول جذبها ليضعها في فمه ، لا فرق في ذلك بينها وبين قطعة الطوب التي ليست جزءاً منه .

٢ - وفي السنة الثانية وحتى في خلال السنة الثالثة يعزو الطفل الصفات البشرية إلى الجماد . فإذا ضربنا المادة فأنها ستألم كما يتألم هو ، وإذا قذفنا بنميتها إلى الأرض فإن الدماء ستسيل منها وكأنها بشر .

٣ - ويستمر الطفل خلال السنوات الخمس الأولى وهو يخلط في استعمال الضمائر . فيخلط في استعمال هو وهي وأنت وأنت ، فقد يخاطب الفتاة بضمير المذكر ويتكلم عن نفسه بضمير المؤنث . وهكذا .

وتتكون الذات بالتفاعل الاجتماعي وعن طريق التنشئة الاجتماعية . ويرجع الفضل إلى جورج ميد في إخراج نظرية عن تكوين الذات محوراً هذا التفاعل وهذه التنشئة .

ويعتقد البعض أن أول مرحلة من مراحل تكوين الذات هي انفصال الجسم عن العالم الخارجي . ويعزو ألبورت بداية الذات وانفصال الجسم عن العالم الخارجي إلى الاحساسات المفصلية التي تؤدي إلى انتصاب القامة وتعلم الجلوس والوقوف . ويخالفه ميد في ذلك إذ يرى أن شعور الطفل بجسمه إنما يأتي عن طريق استجابات الآخرين ومعاملتهم للطفل وكلماتهم واتجاهاتهم النفسية نحو هذا الطفل ، فيمتص الطفل هذه الاستجابات ونوع المعاملة التي يعامله بها غيره . ويساعد امتصاص هذه الاستجابات على ربط الإحساسات الجسدية المختلفة وسماع الطفل لصوته وما إلى ذلك بعضها ببعض . فيعرف الطفل نفسه بطريق غير مباشر عن طريق الآخرين الذين يتفاعل معهم . ولن يتمكن الطفل من معرفة جسمه إلا إذا تمكن من تمثيل أدوار الآخرين ممن يتفاعل معهم ، أي معرفة أدوار الآخرين بالنسبة له ، كلور الأم وعلاقته به « ودور الأب والإخوة وما إلى ذلك . فعملية التفاعل الاجتماعي تسبق عملية شعور الطفل بالجزء الجسدي من ذاته .

وتحدد الأسرة للطفل اسماً عند ميلاده « وتحدد له دوره تبعاً لجنسه في حدود الدور الذى تحدده له الثقافة . فيطلق على الولد الذكر اسم ذكر « ويلبس ملابس الذكور « ويدل بصفاتهم . وكذلك الحال بالنسبة للبنات فاسمها مؤنث ، وترتدى ملابس الإناث ، وتدل بصفات الإناث « وهكذا . كذلك تحدد الأسرة مركزه . فيعامل الطفل المرغوب فيه معاملة تختلف عن التى يعامل بها الطفل الذى لا يرغب فيه .

فالدور والمركز والتسمية والملابس كلها عوامل اجتماعية تلعب دورها في تكوين الذات .

ومن العمليات النفسية الاجتماعية الديناميكية التى تساعد على تكوين الذات ما يأتى :

١ - الامتنصاص :- إذ يمتص الطفل من المجتمع الخارجى وخاصة من الأفراد الذين يتفاعل معهم تفاعلاً مباشراً - كالأب والأم والإخوة - نوع المعاملة التى يعامل بها هؤلاء وموقفهم من ردود أفعاله . فإذا ما قلنا إن الطفل قد امتص أمه فإنما نقصد أنه امتص موقفها من أفعاله « وأصبح هذا الموقف مرتبطاً بموقفه نحوها . فى عملية الامتنصاص ربط لأفعال الآخرين بأفعالنا نحن فنسلك نحو أنفسنا كما يسلك الآخرون . لذا يقول كولى Cooley « إن المجتمع مرآة يرى الفرد فيها نفسه « . فالطفل المكروه يعامله الكبار معاملة تنم عن هذه الكراهية فيمتص الطفل هذه المعاملة ويصبح موقفه من نفسه مماثلاً لموقف الآخرين منه وهو كراهية النفس أو الذات . والطفل الوحيد المدلل يعامله الكبار معاملة تنم بما يمنحونه من امتيازات كثيرة فيمتص الطفل هذه المعاملة فيصبح موقفه من نفسه موقف المحب لذاته المدلل لها .

٢ - التوقع - ويقصد بذلك أن يسلك الطفل مع الآخرين السلوك الذى يتوقعونه منه ، كما أنه يستطيع أن يتوقع ردود أفعاله نحوه . فإذا قرأت على رجل السلام فانك تتوقع ردأ معيناً . ولعلك قرأت عليه السلام لأنه توقع منك ذلك .

ويرى ميد أن الذات في نموها وتطورها تمر بمراحل ثلاث هي :

١ - الأدوار الخاصة : وفيه يلاحظ الطفل أدوار الآخرين في معاملتهم له « فيمتصها ويقوم بتمثيلها والتمرن عليها في داخلته ، فهو يجرب أدوار هؤلاء وأولئك كما يجرب أدوار الجهاد والحيوان وكل ما يدخل في نطاق خبرته . وهو في تجربته لهذه الأدوار إنما يقوم بها على أنها أدوار منفصلة لا تمت بعضها إلى بعض بصلة . ويقوم بتجربة كل دور على حدة في المواقف الواحدة وهذا يمثل بدء تحويله إلى كائن اجتماعي .

٢ - الأدوار العامة : ويتمكن الطفل بالتدريج من لعب أدوار الآخرين جميعها في الموقف الواحد « وسن تنظيم هذه الأدوار في شكل عام متماسك متكامل ، ومن تحديد سلوكه ودوره تبعاً لهذه الأدوار التي تكاملت وانتظمت في شكل عام . ويمكننا أن نمثل لذلك بلعبة كرة القدم في فريقه المكون من أحد عشر لاعباً . وقد يكون دور هذا اللاعب في الفريق ظهيراً إلا أن دور كل لاعب آخر يمثل في ذهنه وكأنه يلعبه . فإذا جاءت إليه الكرة فإن تصرفه فيها لن يكون تبعاً لدوره كظهير فحسب ، وإنما يتصرف فيها تبعاً لما يتوقعه الآخرون منه « وكما يتوقع هو منهم تبعاً لمعرفته لأدوارهم . إذ يجب أن تكون أدوارهم عنده منتظمة متداخلة ، وإلا عجز عن أداء دوره .

ويجب أن نلاحظ أن الأدوار العامة مفهوم من المفاهيم يشتهق الفرد من خبرته ويمثل وجهة نظر الآخرين واتجاهاتهم وميولهم ، ومن المألوف لدينا في تصرفاتنا أن نفكر فيما سيقوله الناس لو فعلنا ذلك ، وما يشعرون به : إلخ .

وقولنا الناس هنا لا يقصد به أناس معينة بالذات « ولكن يقصد به المعايير والميول والاتجاهات الاجتماعية مما امتصه الفرد عن طريق لعبه للأدوار الخاصة التي تداخلت وأصبحت أدواراً عامة .

ومن هنا يمكننا أن نتبين أن المعايير الخلقية معايير يتعلمها الفرد من ثقافته ومن الجماعة التي ينتمي إليها . كما يتبين لنا ضرورة اختلاف هذه المعايير من

جماعة إلى جماعة ، ومن ثقافة إلى ثقافة . ومن فرد إلى فرد ، تبعاً لاختلاف الخبرات التي تؤدي إلى اختلاف الأدوار العامة وبالتالي اختلاف المعايير الخلقية .

٣ - الذات المفردة « I » والذات الاجتماعية « me » : وتلعب اللغة دوراً هاماً في الشعور بالذات ونموها . ويرى ميد أن ما يهتم الطفل مما يتفوه به الكبار هو ما يمس ذاته ويتعلق بها . يقتبس الطفل هذه التعبيرات ويقلدها ويمتصها وتصبح جزءاً من هذه الذات . فهو يسمع اسمه ينادى مرات ومرات مصحوباً بتعبيرات وأوجه نشاط تعطي معنى لهذا الاسم . مثلاً « يا محمد أنت ظريف » أو « أنت جميل » « أنت تقدر على كذا » « أنت لا تقدر على كذا » « اعمل كذا ولا تعمل كذا » . وما إلى ذلك فيمتص الطفل كل ذلك « ويستعيد لنفسه ما يذكره ، ويستعمل في بداية الأمر كلمات ثم مجموعة منها وأخيراً جملاً مفيدة بسيطة . والطفل أثناء اكتسابه للغة يتشرب معها معايير قومه وقيمهم فتكون لديه أدوار جديدة تتدخل في سلوكه وتسهم في توجيهه . ومن عوامل تكوين هذه الأدوار المناقشات التي تدور في ذهن الطفل ويكون محوراً وتدور بينه وبين نفسه . كما يتعلم كيف يعز والدوافع إلى سلوكه ، ويتعلم كيف يهتم بسلوك الآخرين نحوه . وبالتدريج يتعلم كيف يفكر في نفسه كفرد له وجهات نظر خاصة وأهداف ودوافع تتمشى ووجهة نظره عن نفسه ومع وجهه نظر الآخرين عنه .

وإليك مثلاً عن نوع المناقشة التي تدور في ذهن الفرد — نفرض أن تلميذاً دخل مكتبة مدرسته وأراد سرقة كتاب منها . فقد تدور بينه وبين نفسه هذه المناقشة :

(المنظر الثاني)

(المنظر الأول)

يمكنني أن آخذ هذا الكتاب وأن أضيفه

ولكن هذه سرقة .

إلى مجموعة كتب .

وماذا في ذلك ؟ كل إنسان يسرق إذا

أُتيحت له الفرصة . لكن ليس هذا بحقيقى .
يمكننى أن أخرج به الآن ولا يرانى أحد . ولكن من الأفضل أن أكون
أميناً .

لن يمكننى أحد . هذه لصوصية
المكتبة مليئة بالكتب وهناك نسخ من هذا
الكتاب . وما ذنب أمين المكتبة .

حقاً إن المناقشة الداخلية لا تدور كذلك فى شكل جمل معينة أو كلمات
ولكنها تدور فى شكل عمليات عقلية سريعة مصحوبة بانفعالات وصور سمعية
وبصرية وغيرها . ويتم تفكيرنا عادة بهذا الشكل إذا ما جابهتنا مشكلة . ميز
ميد هذين المظهرين فى الذات . وقد أطلق على المظهر الأول اسم الذات
المفردة « I » وعلى المظهر الثانى « me » والمظهر الأول فى نظريته يمثل الدوافع
الطليقة « بينما يمثل الثانى معايير الثقافة التى امتصها الفرد وتتحكم فيها الأدوار
العامة . والطفل فى استجاباته إنما يكون مدفوعاً بهذه الدوافع الطليقة لا بقيده
معايير اجتماعية . فهو يتبول ويتبرز إن شاء ومتى شاء » ويضرب ويحطم
ويتفوه بالألفاظ المختلفة كيف شاء إذ ليست لديه هذه القدرة الممتصة من
المجتمع والتى تتحكم فى سلوكه .

ويجب أن نلاحظ أن هاتين العمليتين عملية الذات المفردة والذات
الاجتماعية إنما هما مظهران لشيء واحد يتفاعلان معاً ويؤثران فى بعضهما
البعض ويكون السلوك نتيجة لهذا التفاعل .

تتضمن الذات جسم الفرد الذى يكون جزءاً منها « لأنها قابلة للامتداد
لتنضمن كل ما يدخل فى مجال حياة الفرد » فالبيت الذى يسكن فيه وكل ما
يملك جزءاً من ذاته يدافع عنه ويحافظ عليه . كما أن أباه وأمه وإخوته
وأفراد أسرته وما إلى ذلك من ذاته ، يفرح لفرحهم ويحزن لأحزانهم «
كلنا آرائه ومعتقداته وما إلى ذلك تكون جزءاً من ذاته . فليست الذات قاصرة
على الجسم » ولكنها تتضمن الماديات والمعنويات ، كما تتضمن الأفراد

والآراء والمعتقدات ، وكل ما يمت إلى الفرد بصلته في محال حياته فأين توجد هذه الذات ؟

من المحاولات التي عملت لتحديد مكان الذات محاولة هورروينز إذ سأل فتاة عمرها ثلاث سنوات عن ذاتها فدار بينهما هذا الحوار :

من أنت ؟

جون .

من هي جون ؟

أنا .

هل هذه هي جون ؟ (مشيراً إلى السرير مرة وإلى عدة أشياء أخرى في الحجرة مرة ثانية ثم أجزاء جسمها) فالشيب ؟ لا — الرجل ؟ لا — الجسم ؟ نعم — الرقبة ؟ لا — وهكذا . وقد كانت إجابات الطفلة تدل على أنها تعتبر الرأس والرقبة والأطراف أجزاء منها وليست هي ، ويبدو أنها كانت تحدد ذاتها في البطن وأسفل الصدر .

كرر هورروينز هذه التجربة مع عدة أطفال آخرين . فاختلفت إجاباتهم بتحديد الذات في أجزاء مختلفة من الجسم . وأدت ملاحظاته مع الأطفال إلى أن يعد استفتاء أعطاه خمسة وأربعين طالباً وطالبة في الجامعة . وكان من أسئلة هذا الاستفتاء هذا السؤال : « إذا كان عليك أن تحدد مكاناً لنفسك في نقطة خارج أو داخل جسمك حتى يمكن أن تشير إلى هذه النقطة وتقول هذا « أنا » فأين تكون هذه النقطة ؟ » .

وقد أجاب من هذا العدد على السؤال ٣٢ طالباً وطالبة ، وأعطى بعضهم أكثر من مكان واحد توجد فيه نفسه ، وإليك بياناً بأهم الإجابات والعدد التكراري لها :

٩	الرأس
٦	كل من العين والمخ والقلب
١	كل من الرجل واليد
٣	كل من الأعضاء التناسلية والصدر
٢	الكتفان

وكانت هناك إجابات أخرى صعب تبويبها .

وقد انتقد هذا البحث لأنه اعتبر الذات وحدة مادية تحتل فراغا يمكن تحديده ، كما أن الطفل لا يولد بذات مكتملة تستمر من الميلاد حتى الوفاة ، إذ أن الذات لا تتكون إلا نتيجة التفاعل الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية . فالذات عبارة عن مجموعة من الاستجابات وردود الأفعال لها وظيفة تنظيمية ، إذ تنظم غيرها من الاستجابات أو ردود الأفعال في الإنسان نفسه . وهذا يعني أن سلوك الطفل في بداية الأمر توجهه وتسيطر عليه استجابات الآخرين ويمتص الطفل بمرور الوقت هذه الاستجابات ويجمعها في سلوكه حتى يسيطر على هذا السلوك بنفسه .

ويمكن تعريفها بأنها النظام الديناميكي للمفاهيم والقيم والأهداف والمثل التي تقرر الطريقة التي يسلك بها الفرد .

نظريات الذات

ونظراً لأهمية مفهوم الذات فإننا نسوق العرض الذي قدمه ناصر الغزير (*) للنظريات المختلفة التي تتناول هذا المفهوم . فنحن نجد أنه على الرغم من أن بعض نظريات الشخصية لا تعطي لهذا المفهوم الكثير من الأهمية ، هناك من النظريات ما تعتبره يمثل نواة الشخصية . وقد مهد علم النفس الاجتماعي الطريق للدراسة والقاء الضوء على أبعاده . ويقابل القارئ عدة مفاهيم في

(*) ناصر الغزير ، مفهوم الذات والتكيف لدى التكيف — دراسة مقارنة بالمصريين رسالة ماجستير غير منشورة تمت تحت إشراف المؤلف — كلية التربية جامعة الفاتح — طرابلس ١٩٧٩ .

نظريات علم النفس الاجتماعى تتصل بهذا المفهوم مثل الدور والمركز ، كما قد يقابل عدة نظريات تناوله من قريب أو بعيد مثل نظريات التفاعل الرمزي ونظرية المجال ونظرية العلاقات المتبادلة .

ولما كان ما كتب عن مفهوم الذات يفوق الحصر ، فقد رأى الباحث أن يقدم معنى هذا المفهوم باختصار لدى أشهر العلماء الذين يحتل هذا المفهوم مكاناً أساسياً في نظرياتهم عن الشخصية ويتسلسل تاريخي .

كان كولى Cooley (١٩٠٢) من أوائل علماء النفس الاجتماعى الذين تعرضوا لمفهوم الذات . فهو صاحب القول المشهور أن المجتمع مرآة يرى الفرد فيها نفسه . وهو يعرف الذات بأنها ما يشار إليه في الكلام الدارج بضمائر المتكلم كأننا الفاعلة وباء المتكلم وباء الملكية ونفسى . فقد ذكر أن ما يعتبره الفرد من ذاته يؤدي إلى انفعالات أقوى مما يعتبره الفرد بعيداً عنها ، ولا يمكن تحديد الذات إلا من الشعور الذاتي للفرد . وكان يرى أن الحالة الوجدانية تنتج من الاعتقاد أن المرء له سيطرة على الأحداث أو بالتمييز المعرفي كما هو الحال في معرفة الشخص بأن جسمه يختلف عن أجسام الآخرين . وهو الذى قدم كما ذكرنا مفهوم « مرآة » والمقصود به أن المرء يرى نفسه بالطريقة التى يراه بها الآخرون .

ويعتبر وليم جيمس James (١٩١٠) من العلماء الطليعيين في علم النفس الذين كتبوا بإفاضة عن الذات . وقد حدد أسلوبين مختلفين تماماً أحدهما يعتبر الذات ذاتاً عارفة أو أن لها وظيفة تنفيذية ، وثانيهما ينظر إلى الذات كموضوع . وكان يرى أنه لا توجد قيمة للذات العارفة لفهم السلوك وأنه يجب التخلي عنها لموضوع الفلسفة . أما الذات كموضوع فقد عرفها بأنها تتضمن أى شيء يرى الفرد أنه ينتمى إليه . وتتضمن الذات كموضوع :

أ - الذات المادية . ب - الذات الاجتماعية . ج - الذات الروحية .

فالذات المادية هي ذات ممتدة تحتوى بالإضافة إلى جسم الفرد أسرته وممتلكاته . أما الذات الاجتماعية فتتضمن وجهة نظر الآخرين نحو الفرد ،

وتتضمن الذات الروحية انفعالات الفرد ورغباته . وقد اعتبر الاتجاهات والوجدانيات عناصر هامة ، ويطلق عليها مظاهر الحفاظ على الذات . ويمكننا القول أن وليم جيمس كان يرى أن الذات لها وحده ، كما أن لها تمايزا ، وأنها ترتبط بالانفعالات التي تبدو في تقدير الذات .

فكأنه يرى أن الذات تعبر عن نفسها بالانفعالات السلبية أو الإيجابية نحو تقدير الذات . ولهذا اهتم الباحثون بقياس تقدير الذات للكشف عن طبيعة مفهوم الذات عند الفرد ، وهذا ما حاوله الغزير في بحثه عن المكفوفين بالمقارنة بالمبصرين .

وتوسع جورج ميد Mead (١٩٣٤) في شرح مفهوم مرآة الذات ، ويرى جورج ميد أن مفهوم الذات ينبثق من التفاعل الاجتماعي وكنتيجه لاهتمام الفرد بالطريقة التي يستجيب بها الآخرون نحوه . فلكي يعرف المرء توقعات استجابات الآخرين كي يعطى الاستجابة المناسبة فإنه يدرك الدنيا بالطريقة التي يتم بها إدراكهم لها . ويسمى جورج ميد الآخرين «العموميين» ويتمثل الشخص في داخله تقديرات الآخرين العموميين للطريقة التي سوف يستجيب بها بالنسبة لأفعال معينة . ويكتسب الفرد بذلك مصدرا للتنظيم الداخلي الذي يساعده على توجيه وتثبيت سلوكه في حالة غياب الضغوط الخارجية . وسوف نلاحظ فيما بعد أن سوليفان يعطى أهمية للآخرين ذوي الدلالة بدلا من الآخرين العموميين . ويرى ميد أن هناك العديد من النوات بعدد الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الفرد . فهناك أدوار عريضة نسبيا ولها دلالتها الكبيرة بالنسبة له ، بينما توجد أدوار محددة لمواقف محددة وليس لها دلالة كبيرة من ناحية متغيرات الشخصية .

ويرى ليكي Lecky (١٩٤٥) أن الذات تمثل نواة الشخصية . ويعرف الشخصية بأنها « تنظيم للقيم التي تضطرر مع بعضها البعض » . وهو يعتبر تنظيم الشخصية تنظيما ديناميكيا لأنه يتضمن استيعابا مستمرا للأفكار الجديدة ونقد الأفكار القديمة أو تعديلها ، ويلعب مفهوم الذات كنواة

للشخصية دوراً أساسياً في تقرير المفاهيم القابلة للاستيعاب في التنظيم الكلي للشخصية ، كما لا يوجد إلا دافع واحد هو الدافع لوحدة التنظيم الديناميكي للشخصية ويؤدي تهديد تنظيم الشخصية إلى الشعور بالضيق . ونشير هنا إلى أن ليكي قد أثر كما سوف نرى على كارل روجرز صاحب مدرسة العلاج النفسي المتمركز حول العميل .

وتماثل وجهة نظر سنيج وكومبر Snugg and Combs (١٩٤٩) وجهة نظريكي ، وهما يعرفان مفهوم الذات بأنه تلك الأجزاء في المجال الفينومونولوجي (الظواهرى) التي يميزها الفرد بأنها خصائص لنفسه تتميز بالثبات النسبي . وهكذا نرى أنهما يعتبران مفهوم الذات ممثلاً لنواة لتنظيم أعرض يحتوى على خصائص الشخصية والقابلة للتغير كما يحتوى على الخصائص الثابتة .

ويرى كاتل Cattell (١٩٥٠) أن الذات هي الأساس في ثبات السلوك البشرى ، وأمدنا بمفهوم «الذات الحقيقية» ومفهوم « الذات المثالية » وهو يسمى الذات الحقيقية بالذات الفعلية . أما الذات المثالية فيطلق عليها « ذات الطموح » . وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من مقاييس مفهوم الذات وتقدير الذات تقوم على قياس كل من الذات الفعلية والذات المثالية واعتبار التطابق بينهما دلالة على التكيف بينما تعتبر المفارقة بينهما دلالة على سوء التكيف.

ويؤكد رأى كاتل ويدعم فكرته عن تطابق الذات كارل روجرز (١٩٥١) Rogers . فالسلوك عنده يكون مطرداً مع المفاهيم والفروض المنظمة عن بنية الذات . وهو مشهور كما سبق الذكر بأنه صاحب مدرسة للعلاج النفسي بالطريق غير المباشر أو العلاج المتمركز حول العميل . وهو يعرف الذات بأنها « نمط إدراكى منظم ومتممع ولكنه مضطرب لادراكات خصائص وعلاقات أنا الفاعلة أو أنا المفعول بها مع القيم التي تتعلق بهذه المفاهيم » . وهو يقرر أن مفهوم الذات يتضمن فقط خصائص الفرد التي يكون على وعيها والتي يعتقد أنه سيطرة عليها « وهناك حاجة أساسية هي الحاجة إلى تأكيد الذات والحفاظ عليها » . ويؤدي تهديد تنظيم مفهوم الذات إلى القلق

وإذا تعمّر الدفاع ضد هذا التهديد فالنتيجة هي تفكك خطير للتنظيم . ولا شك أن هناك الكثير في رأيه الذي يشترك فيه مع آراء ليكبي وسنج وكومبز . ويرى هارى ستاك سوليفان Sullivan (١٩٥٣) كما يرى كولى وميد أن الذات تنبثق من التفاعل الاجتماعى ، غير أنه يختلف عنهما في أنه يرى أن الطفل يتفاعل مع الآخرين من ذوى الدلالة وخاصة صورة الأم بدلا من المجتمع الأكبر . ويحدد سوليفان «نسق الذات» بأنه تنظيم للخبرة التربوية التى يتم استحضارها للحاجة إلى تجنب القلق أو التقليل منه . ويشرح ذلك بملاحظته أن الطفل يتمثل القيم والتحريمات التى تيسر حصوله على الإشباع بالطرق التى يوافق عليها الآخرون من ذوى الدلالة ، وتنظم الأنسقة القرعية للنزعات المقبولة والنزعات غير المقبولة فى إطار ما يسميه «أنا الطيبة» و«أنا الرديئة» . ومن الواضح أن سوليفان يرى أن الحاجة لتجنب ما هو غير سار وظيفة أساسية لنسق الذات .

ويفضل ألبورت Allport (١٩٥٥) استخدام كلمة « مجال الجوهر » Proprium بدلا من الذات . ويحتوى مجال الجوهر على تلك المظاهر فى الفرد التى يعتبرها ذات أهمية كبرى والتى تسهم فى شعوره بالتماسك الداخلى وهكذا يجذب مجال الجوهر الانتباه إلى أهمية مفهوم « الاندماج الأنوى » Ego-involvement لهذا نرى فى كتاباته ما يشير إلى أن البحث فى علم النفس غالبا ما يكون سطحيا لأن المفحوصين الذين يخضعون للفحوص النفسية فى البحث لا يندمجون أنويا فيها . وهو يرى أن مجال الجوهر له ثمان خصائص هى :

- ١ - الوعى بالذات الجسمية .
 - ٢ - الإحساس بالاستمرارية خلال فترة من الزمن .
 - ٣ - تأكيد الأنا أو الحاجة لتقدير الذات .
 - ٤ - امتداد الأنا أو تحديد الأنا الذى يتجاوز حدود الجسم .
- (م ١٢ - الطفولة والمراهقة)

٥ — تكامل الحاجات الداخلية مع الواقع الخارجى .

٦ — صورة عن الذات أو إدراك الفرد لنفسه وتقويمه لذاته كموضوع للمعرفة .

٧ — الذات كعارفة أو كأداة تنفيذية .

٨ — السعى المناسب أو الدافعية لزيادة التوتر بدلا من تقليله « وتوسيع الوعى والسعى وراء التحديات »

وفى كتابات لاحقة قرر أولبورت (١٩٦١) متفقا مع وليم جيمس أن «الذات العارفة لا تنتمى إلى مجال علم النفس »

ويعرف لابن وجرين La Benne and Green (١٩٦٩) مفهوم «الذات بأنه » التقويم الكلى الذى يقوم به الفرد لمظهره « وخلفيته وأصواته « وقدراته وإمكاناته ووجدانياته التى تتكامل كقوة موجهة له فى سلوكه » .

ويرى أبشتاين Epstein (١٩٧٣) أن مفهوم الذات عبارة عن نظرية كونها الفرد عن نفسه وهى بالتالى جزء من نظرية أعرض موجودة لديه عن كل خبراته : وهو يستخدم هذه النظرية كنسق منظم لحل مشكلاته . ونظراً لأن عناصر هذا النسق تتداخل ويتوقف بعضها على بعض فإن الناس تغضب وتتضايق بل وتتصرف تصرفا غير معقول إذا وجدوا أى مساس بأى مفهوم لديهم . فهناك حاجة عامة لدى الأفراد للدفاع بىأس عن قيم معينة مهما بدا لنا تصرفهم غير معقول . ويمكننا فهم مثل هذا السلوك غير المنطقى إذا عرفنا أن نظرية الذات ضرورية حتى يقوم الفرد بوظيفته . وأن وجود نظرية عنده عن نفسه أحسن من عدم وجود أى نظرية .

والخلاصة أن ماتقواه لنا هذه النظريات هو أن مفهوم الذات نتاج للتفاعلات الاجتماعية ، وأن هذا المفهوم فى حد ذاته ليس شيئا يمكن ملاحظته ولكن يمكن استنتاجه من سلوك الفرد ، والذات تنمو من الخبرة والتفاعل

لاجتماعى مع الآخرين وخاصة ذوى الدلالة كالأهالي والآباء « وأنها تنظيم ديناميكي يتغير بالخبرة، ويبدو أنها تسعى للتغير واستيعاب المزيد من المعلومات » وأنها جبرية لقيام الفرد بوظيفته ، وأن انتظامها يجب أن يتم الحفاظ عليه ، فإذا ما هدد هذا التنظيم يشعر الفرد بالقلق ويحاول الدفاع عن نفسه ضد التهديد، فإذا فشل الدفاع يتصاعد الضيق ، ولا بد أن ينتهى فى النهاية إلى التحطيم الكامل لهذا التنظيم ؛ وأنها تحتوى على عدة ذوات أميرية كالذوات الجسدية والذات الروحية والذات الاجتماعية « وأن هناك حاجة أساسية لتقدير الذات تتصل بكل مظاهر نسق القيم . ويمكن اعتبار تقدير الذات العنصر الإيجابي لمفهوم الذات . كما يرى ماك كاندلس McCandless (١٩٧٠) أن الذات تحتوى على عدة فئات منها الكفاءة العقلية ، وثقة الغير ، والكفاءة الجسدية (مثل القوة والرشاقة والبنية الجسدية والجاذبية أو درجة جمال الوجه ، ودرجة الذكورة أو الأنوثة) ، وما إذا كان الفرد اجتماعياً أو خجولاً .

فى ضوء هذه الآراء للعلماء المختلفين والنتائج التى يمكن استخلاصها منها يمكننا أن نسلّم بأن كل فرد قد اكتسب فكرة عن نفسه من معاملة الغير له ومن شعوره بإمكاناته تختلف عن فكرة أى فرد عن نفسه « ويمكننا التحقق إلى أى مدى تؤثر هذه الفكرة فى التكيف أو التوافق فى مجالات هى من خصائص الذات الممتدة كالمنزل والمجتمع والواقع والثبات الانفعالى .

٤ - القيم الخلقية :

إن أى معالجة للتنشئة الاجتماعية لابد أن تؤكد أن الدافع الاجتماعى والمجتمع يتوقفان على امتصاص الفرد لما يسمى بما هو صواب وخطأ فى مجتمعه . ويدخل ما هو صواب أو يناسب وما هو خطأ فى تكوين ما يسمى بالضمير . ولهذا يعتبر تكوين القيم الخلقية من أهم مظاهر التنشئة الاجتماعية . ولما كان الأبوان يمدان الطفل بالنموذج الذى يحتذى ، فإن تأثيرهما يكون كبيراً على تكوين القيم الخلقية لدى الطفل . ومن أظهر علامات تقمص الطفل للنماذج

اتخاذ السلوك والدوافع والاتجاهات ومفهوم الذات الخاصة بهذا النموذج ،
وأهم عمليات التقييم تكوين ما يسمى بالضمير .

ومن مقاييس الضمير القدرة على مقاومة الإغراء . وفي تجربة لسيرز
١٩٦٠ على أطفال الحضنة لدراسة قوة الضمير كان يتم إدخال طفل عمره
خمس سنوات إلى حجرة مليئة باللعب ويوجد على المنضدة إناء به حلوى . يسمح
للطفل اللعب بالدمى دون مديده إلى إناء الحلوى . بعد ذلك يتم إدخال طفل
أصغر بتعليمات فحواها أن له مطلق الحرية في أن يلعب كما يشاء ويأخذ من
الحلوى . كان الاهتمام في التجربة مركزا على ماسوف يفعله الطفل الأول مع
الطفل الثاني بصدد الحلوى . بعض الأطفال كانوا يحاولون إبعاد الأطفال
الآخرين عن الحلوى بإغرائهم بالدمى الأخرى ، أو بالتهديد بالضرب ، بينما
قام بعض الأطفال بمشاركة الآخرين في أخذ الحلوى ، كما تمت مقابلة الآباء
والأمهات ، تبين أن الأطفال الذين شاركوا في أخذ الحلوى وعدم القدرة
على ضبط النفس يعود إلى عدم التقييم القوي مع الأب . وهكذا يمد الآباء
الأبناء بالنموذج القوي أو الضعيف لتكوين قوة الضبط أو الضمير .

وللعالم السويسري بياجيه دراساته التي أدت إلى بيان مراحل النمو الخلقي
عند الأطفال (١٩٦٥) هي المرحلة قبل خلقية ، ومرحلة الانصياع للآخرين
ومرحلة الاستقلال الذاتي .

في المرحلة الأولى توجد القيم الخلقية في أحداث خارجية شبه فيزيائية ،
وفي أفعال سيئة لاني الأشخاص أوفى المعايير .

أما في المرحلة الثانية فتوجد القيم الخلقية في أداء الأدوار الصحيحة والسليمة
وفي الحفاظ على الأعراف وتوقعات الآخرين وأساسها عدم المساواة بين
الآباء والطفل في السلطة والمعرفة .

بينما توجد القيم الخلقية في المرحلة الثالثة من سن ١٢ وما بعدها في الانصياع
الذاتي لمعايير الواجب وما هو صواب مثل الآخرين ، ويتحكم في هذه المرحلة
الحكم الذاتي على أساس أن المعايير الخلقية صنعها الناس لتناسب مواقف معينة
ويساعد على ذلك نمو الذكاء الذي يساعد على فهم النسبية في الأحكام الخلقية .

ملخص

تناولنا في هذا الفصل العمليات النفسية الأساسية في التنشئة الاجتماعية في طاق التعلم الاجتماعي وخاصة التدعيم ، والتطبيع ، والتقليد ، والتقمص . ثم شرحنا أهم ما تؤدي إليه التنشئة من تحديد الدور ، وتحديد المركز ، وفكرة المرء عن نفسه فيما يسمى بمفهوم الذات « واستعرضنا النظريات المختلفة التي تفسر هذا المفهوم ثم تكلمنا عن القيم الخلقية ومراحل نموها »



الفصل العاشر

النمو في الخمس سنوات الأولى

يرى جنيزل أن النمو في الخمس سنوات الأولى يدخل تحت ميادين أربعة هي :

١ — النمو الحركي ويشمل انتصاب القامة والمسك والحركة والتوافق الجسماني العام والمهارات الآلية المختلفة .

٢ — النمو في السلوك الذي يساعد على الملاءمة ، ويشمل عمليات التكيف المختلفة الإدراكية واليدوية والحركية والمعرفية ، وتبين هذه العمليات قدرة الطفل على البدء بخبرات جديدة والإفادة من الخبرات القديمة ، وتشمل هذه الملاءمة الانتباه والذكاء ومختلف أشكال القدرة على البناء والاستغلال .

٣ — النمو اللغوي ويشمل كل مظاهر السلوك التي تتعلق بالطلاقة والتعبير والاتصال بالغير والفهم .

٤ — النمو في السلوك الاجتماعي الشخصي ، ويشمل ردود أفعال الطفل نحو الغير ، وأثر الثقافة ، والتكيف لحياة المنزل والممتلكات والجماعات الصغيرة والعرف .

وقبل أن نتكلم عن كل من هذه الميادين نجمل أولا المميزات العامة للنمو في هذه المرحلة .

المظاهر العامة للنمو في الخمس سنوات الأولى :

يلخص لنا جنيزل هذه المظاهر فيما يلي :

١ — في السنة الأولى : يتمكن الطفل في الربع الأول منها من السيطرة

على العضلات التي تتحكم في حركة العينين . بينما يتمكن في الربع الثاني من السيطرة على العضلات التي تتحكم في الرأس . كما يتمكن من تحريك ذراعيه ويحاول مد يديه للمس فخذيه . ويسيطر في الربع الثالث من هذه السنة على حركة الجذع واليدين . فيلمس ويقبض على الأشياء بيديه . ويتمكن من نقل الأشياء من يد إلى يد . ويتمكن في الربع الأخير من السنة الأولى من السيطرة على حركة ساقيه وقدميه وحركة الإبهام والسبابة . ويتمكن من جذب الأشياء ودفعها . ويتمكن كذلك من الوقوف متصباً .

٢ - في السنة الثانية : يتمكن الطفل في هذه السنة من المشي والجري . كما يستعمل كلمات وجمل بسيطة : ويتمكن كذلك من السيطرة على حركة المعدة والمثانة ويبدأ في تكوين فكرة عن نفسه وعن ذاته .

٣ - في السنة الثالثة : يتمكن الطفل في هذه السنة من التعبير عن نفسه في جمل مفيدة . ويبدأ استعداد الفهم البيئة المحيطة به والاستجابة لمطالب الكبار والمحيطين به . ولا يصبح بعد ذلك مجرد طفل صغير .

٤ - في السنة الرابعة : يسأل الطفل في هذه السنة من عمره أسئلة كثيرة ويمكنه إدراك التجانس . ويصل إلى مرحلة من التفكير يتمكن فيها من التعميم كما يتمكن من الاعتماد على نفسه في العمليات الروتينية اليومية .

٥ - في السنة الخامسة يتم نضجه الحركي . فيقفز ويتزلق ويتحدث حديثاً خالياً من لكنة الأطفال ، كما يجد نوعاً من الكبرياء في ملبسه ومظهره وما يقوم به من أفعال . كما يكتسب ثقة في نفسه ويصبح مواطناً صغيراً في عالمه الخاص .

النمو الحركي

دراسة شيرلي :

هناك دراسات تتبعية كثيرة اهتمت بدراسة مظاهر النمو المختلفة بالطريقة التبعية منذ الولادة مثل دراسات بهلر Buhler ودراسات نانسي بايلي Bayley

وولف Wolff . وتعتبر دراسة شيرلى مثلاً لهذه الدراسات . وقد اخترنا هذه الدراسة من بينها لأنه كما تقول صاحبها استمر اتصال الباحثة ومساعدتها بالأطفال على فترة طويلة من الزمن . وقد تمت ملاحظة واختبار الأطفال في المستشفى وفي المنازل منذ الولادة . وكانت الاختبارات تتم يومياً خلال الأسبوع الأول في المستشفى ، وكل يومين في الأسبوع الثاني . ثم أصبحت الاختبارات أسبوعية خلال السنة الأولى وكل أسبوعين خلال السنة الثانية . وقد انتظم طفلان من أطفال المجموعة موضوع البحث في مدرسة تابعة للمعهد الذي تعمل فيه شيرلى فكان اختبارهما يتم تبعاً للبرنامج المتبع في المعهد . أما بقية أطفال المجموعة وعددهم ١٧ طفلاً ، فكانت زياراتهم في المنازل تتم أربع مرات كل سنة لجمع المعلومات عنهم من الناحية الجسدية والنفسية إلى جانب حضورهم كل سنة للاختبار العقلي . هذا بالإضافة إلى المميزات الأخرى التي ذكرتها صاحبها .

وقد ركزت شيرلى اهتمامها في السنوات الأولى على تسلسل النمو الحركي في الأطفال في نواح ثلاث هي :

- ١ - انتصاب القامة .
- ٢ - الاندفاع الحركي .
- ٣ - استخدام اليدين .

ويتلخص التسلسل في النمو في هذه النواحي كما وجدته فيما يلي :

يأتي ضبط حركات العينين أولاً في الأسابيع الأولى . يلي ذلك ضبط عضلات الوجه الخاصة بالضحك وعضلات الرقبة التي تساعد على رفع الرأس وتلفها . ويتمكن الطفل في الشهر الأول من رفع رأسه وهو منبطح على بطنه . ثم تسرى عملية الضبط الحركي تدريجياً هابطة إلى الذراعين والمنطقة العليا من الجذع . فيتمكن في الشهر الثاني من الاتكاء على ذراعيه وهو منبطح على بطنه ويرفع صدره ورأسه .

وإذا ما نام على ظهره في الشهر الثالث رفع ذراعيه محاولاً الإمساك بأي شيء يتدلى أمام ناظره دون أن يتمكن . ويسرى الضبط الحركي إلى الجزء

الأسفل من الجذع بعد ذلك . فيتمكن الطفل من الجلوس بمساعدة مستنداً على ذراعي الأم في الشهر الرابع . غير أنه لا يتمكن من الجلوس دون مساعدة إلا في الشهر السابع .

ويتمكن في الشهر الخامس من القبض على فنجان أو دمية يديه معا وهو جالس . ويتمكن من التحكم في قفل سبابته وإبهامه في الشهر السابع حين يتمكن من الجلوس وحده . ويمكنه بذلك أن يمسك بقبضته الأشياء الصغيرة وحده .

ثم تسرى عناية الضبط الحركي إلى أسفل الساقين . فيتمكن في الشهر الثامن من الوقوف بمساعدة « وفي الشهر التاسع من الوقوف مستنداً على قطع الأثاث ، وفي الشهر العاشر من الزحف خلفاً أو بعد التمرين فترة على حركات تشبه حركات السباحة ، ثم يزحف بعد ذلك أماماً .

ويمشي في الشهر الحادي عشر بمساعدة الآخرين . ويزحف في الشهر الثالث عشر صاعداً سلم المنزل . ثم يقف ويمشي وحده في الشهر الرابع عشر والشهر الخامس عشر .

قد استخلصت شيرلى من دراستها ما يأتي :

— أن النمو في هذه النواحي يتمشى مع مبادئ التشريح وعلم الحياة كما وجد كوجهل في دراساته « إذ يسير من أعلى إلى أسفل ومن الداخل إلى الخارج .

٢ — كما تتفق نتائج هذه الملاحظات والمبدأ الذي توصل إليه كوجهل من تمايز الحركات الخاصة من الحركات العامة تبعاً لمبدأ التفرّد الوظيفي .

٣ — يعتبر التوافق الحركي المكتسب عن طريق إتقان عمية حركية واحدة عنصراً هاماً ولأزماً للعملية الحركية التي تليها . فثلاً محاولة الوصول باليد إلى شيء ، ثم لمسه « ثم تقبضه « ثم الاحتفاظ به عبارة عن سلسلة من العمليات تتم متدرجة . ولا يتمكن الطفل من إجادة واحدة منها إلا إذا

أجاد العملية السابقة لها . وتم إجادته كل منها في فترة تراوح ما بين أسبوع وأربعين : ولن تتم كل هذه العمليات دفعة واحدة .

٤ - كما يلاحظ أن الضبط الانتصابي لأي جزء يسبق عادة الحركات التي يؤديها هذا الجزء . فالطفل يشد رقبته ليثبت رأسه عليها قبل أن يتمكن من توجيه رأسه يمنة ويسرة ، ويجلس دون مساعدة قبل أن يتمكن من التآرجح والاهتزاز بحسبه في جلسته ، ويقف قبل أن يتمكن من الصعود أو الهبوط .

٥ - يسير التقدم الحركي من عمليات الانقباض إلى عمليات الامتداد . فالطفل عند الميلاد تسود لديه العضلات القابضة على العضلات الباسطة . ومن الصعوبة بمكان محاولة مد ذراعي الطفل أو يديه أو رجله لمجرد قياسها . وبالتدريج تبدأ العضلات الباسطة في مقاومة حالة الانقباض . وأول حركة امتداد تكون عادة مقدمة لقدرات امتدادية أخرى . وغالباً ما تكون العضلات الباسطة ذات أثر أكبر في عملية انتصاب القامة .

٦ - تختلف سرعة نمو الأجزاء المختلفة من جزء إلى جزء ، فمضغ حركات العينين والرقبة والرأس وأعلى الجذع والذراعين يتلو بعضها بعضاً بدرجة سريعة ، حتى إذا ما حان وقت الجلوس دون مساعدة تقل هذه السرعة في درجتها قليلاً ملحوظة . فبعد أن كان نمو العملية الحركية يستغرق عدة أيام أصبح يستغرق بعد ذلك عدة أسابيع وعدة أشهر . فالأعضاء المختلفة لا تنمو بسرعة واحدة ولا بنسبة واحدة .

النمو العقلي

اهتم الدارسون لمظاهر النمو في الطفولة بالنمو العقلي كما اهتموا بالنمو الجسماني ، لذا نجد أن هناك محاولات متعددة لوضع مقاييس للنمو العقلي في المراحل الأولى من النمو . وكان هناك هدفان من ذلك . أولهما تقرير ما وصل إليه الطفل من مستوى عقلي في مرحلة النمو التي يمر بها ، وثانيهما التنبؤ من معرفة قدرته العقلية الحالية بمستواه العقلي في المستقبل .

غير أنه يؤخذ من كل المقاييس التي وضعت لقياس النمو العقلي في الخمس سنوات الأولى أنها تحاول قياس مظاهر بينها وبين القدرة العقلية للبالغين ارتباط ضعيف ، وخاصة المقاييس التي تحاول قياس النمو العقلي في السنتين الأولتين . فهذه المقاييس لا تقيس القدرة العقلية للطفل كما تقيس نموه الحركي والحسي والتواقي . والارتباط بين هذه العمليات والعمليات العقلية العليا التي تدخل في محتويات الذكاء ارتباط ضعيف .

فمقاييس جيزل مثلاً عبارة عن متوسطات للنمو في النواحي الآلية التلاؤمية واللغوية والاجتماعية والشخصية ، وقد ظهرت هذه المتوسطات في سنة ١٩٢٥ وهي لأعمار تتراوح ما بين أربعة أشهر إلى ٦٠ شهراً ، وقد عدلت بعد ذلك غير أنها ظلت تشمل مظاهر النمو في النواحي الأربع السابقة . ويرى جيزل أن قياس السلوك الآلي أو الحركي للطفل له قيمته لأنه يتصل بنموه العصبي ، كما أن القدرات العقلية للطفل تعتبر نقطة البداية لتقدير مدى النضج الذي سيصل إليه . كما أن للتوافق الحسي الحركي أهميته إذ يشمل القدرة على التكيف للمواقف والأشياء مادامت هناك ضرورة لتوافق حركات العينين واليدين . وضرورة التكيف لمواقف جديدة بالمشاكل البسيطة التي يحددها الاختبار له . أما السلوك اللغوي فيشمل كل وسائل الاتصال الاجتماعي سواء أكان هذا كلمة تسمع أو تعبيراً بالوجه أو باليدين أو بحركة الجسم . وهذا يوضح قدرة الطفل على التعبير عن نفسه وعن فهم رغبات الآخرين . ويتضمن السلوك الاجتماعي الشخصي تكيف الطفل للثقافة التي يعيش فيها ولطالبها .

لقد عدلت هذه المقاييس : ويشتمل أحد التعديلات على متوسطات لأعمار تبدأ من أربعة أسابيع . وتتضمن المقاييس لهذه السن ما يأتي : - ضبط السيطرة على حركة الرأس - حركة الذراع واليد - حركة الساق والقدم - - - - - التمتع بالعينين لشيء يتحرك - - المسك وما إلى ذلك . كما ترى عمليات نمو جسماني حركي سبق أن تكلمنا عنها تحت النمو الحركي .

وتنحصر أهمية هذه المتوسطات وخاصة متوسطات النمو للأطفال الذين

تراوح أعمارهم ما بين أربعة أسابيع وستة وخمسين أسبوعاً في أنها تسمح بمقارنة مرحلة النمو التي يمر بها الطفل بهذه المتوسطات . أما ما عدا ذلك فهي لا تبين قدرته العقلية ، ولا تسمح بالتنبؤ بقدرته العقلية في المستقبل .

ولعل أحسن الدراسات لمعرفة النمو العقلي للطفل في الثلاث سنوات الأولى هي دراسة نانسي بايلي Baley المعروفة بدراسة بيركلي للنمو في جامعة كاليفورنيا والتي سبق أن قدمناها في الفصل السابق ونعلق عليها هنا .

دراسة بايلي :

لقد قدمت بايلي نتائج دراستها بتقريرها أن اختبارات القدرة العقلية « الذكاء » للأطفال في مراحل نموهم الأولى قد وضعت على أساس أن النضج في العمليات الحسية الآلية وعمليات التلاؤم البسيطة تعتبر عمليات عقلية ، ويمكن التنبؤ بها على قدرة الطفل في المستقبل . غير أنه ليس من الضروري أن الأطفال الذين يتمتعون بحدة الحواس والذين يتم لهم التوافق الحركي سريعاً سيتمكنون من الاستجابة بكفاية في المواقف المعقدة . فقد ثبت أن الاختبارات الحسية بينها وبين الذكاء معامل ارتباط منخفض في البالغين . وليس من المحتمل أن يكون هذا المعامل أعلى من ذلك في الأطفال ، على الرغم من أن مظاهر السلوك البسيطة تظهر أولاً في النمو ، وتدخل في تكوين العمليات العقلية المعقدة فيما بعد . لهذا يجب أن نتذكر دائماً أن مظاهر النمو في السنة الأولى من الممكن ألا تدل على الذكاء في المستقبل . فقد يتضمن الذكاء وظائف عليا ليس لها مثيل في معين الطفل . فمن الصعب التنبؤ بالذكاء في هذه المرحلة من النمو . كما يصعب علينا التنبؤ بالمستقبل المهني في هذه المرحلة كما أن هناك عوامل كثيرة تحول بيننا وبين تقويم قدرة الطفل كصعوبة جذب انتباهه في السنة الأولى من العمر والحصول على تعاونه .

النمو الاجتماعي

ونقصد بالنمو الاجتماعي اكتساب الطفل للسلوك الاجتماعي الذي يساعده على التفاعل مع أفراد ثقافته . ويعتبر هذا السلوك حصيلة لعملية التنشئة

الاجتماعية التي سبق أن تكلمنا عنها في الفصل السادس ، كما يتوقف أيضاً على النضج . وستكلم فيما يلي على أربعة مظاهر للنمو الاجتماعي في الخمس سنوات الأولى وهي :

النمو اللغوي ، والابتسام ، واللعب ، والتفاعل مع أفراد الأسرة .

١ - النمو اللغوي :

لا يتوقف اكتساب اللغة على عملية النضج وحدها كما هو الحال في بعض مظاهر النمو السابقة ، ولكنه يتوقف على الوصول إلى مرحلة من النضج معينة حتى يستطيع الطفل الكلام . كما أنه لابد من أن يستمع الطفل إلى الكبار أثناء تطور هذه الأعضاء حتى يتمكن من تعلم اللغة ، وتمكن أعضاء الكلام من القيام بوظيفتها .

واكتساب اللغة أمر ضروري إذ يساعد على فهم رغبات الآخرين كما يساعد على مد الطفل بثروة من المعلومات عن العالم المحيط به والتي لن يحصل عليها دون فهمه واستخدامه للغة ، كما تساعده اللغة على التعبير عن أفكاره وحاجاته ورغباته . وتستغل اللغة للتأثير على الآخرين .

وتكتسب اللغة أهمية أخرى من العلاقة الموجودة بينها وبين التفكير . إذ تلخّل اللغة في كثير من عمليات التفكير وخاصة التفكير المجرد ، والتمييز بين المعاني كذلك في التعبير عن العمليات الفكرية التي يقوم بها الشخص ولا يدركها الآخرون إلا إذا عبر عنها .

ونحن لا نجهل أهمية اللغة كأداة تمكن الشخص من الوصول إلى مستوى معين في مراحل تعليمه . إذ لابد للطفل من إجادته اللغة المتداولة في الكلام قبل دخوله المدرسة حتى يتمكن من السير فيها . ويعجز كثير من الأطفال لسبب ما عن ذلك فيجدون صعوبة في السير سيراً عادياً في حياتهم الدراسية .

وكلما تعلم الطفل الكلام سريعاً ساعده ذلك على التفاعل الاجتماعي

وجنى ثمار التفكير . ولولا اللغة ما تمكنا من حفظ التراث الثقافي ولا انتقل التراث الثقافي إلى الأجيال المقبلة .

والمعلومات التي لدينا عن النمو اللغوى عند الطفل منذ الولادة مستقاة إما من سجلات حفظها بعض الآباء العلماء للأصوات التي كان يخرجها أبنائهم أو أطفال قاموا بملاحظتهم يوماً بعد يوم ، أو من الدراسات التتبعية لمراحل النمو المختلفة كدراسات جيزل وشيرلى وبايلى .

وقد حاولت ماك كارثى ضم نتائج هذه البحوث وتلخيصها في مراحل للنمو اللغوى للأطفال . فتوصلت إلى ١٢٦ وحدة من وحدات النمو اللغوى وجدتها في ثمان من هذه الدراسات ، ورتبتها تبعاً لظهورها زمنياً في قائمة . وتشتمل هذه القائمة على كل الأصوات التي كانت تصدر من الطفل منذ الولادة كما تشمل استجاباته المختلفة للأصوات البشرية وكل الاستجابات التي تبين فهمه للغة .

وتبدأ هذه القائمة بالصيحات التي يخرجها الطفل في أيامه الأولى والأصوات التي ترمز لحروف أبجدية . وتتدرج إلى الاستجابات التي يقوم بها عند سماعه صوتاً من الأصوات ، كتلفت الرأس والانتباه إلى أصوات المناغاة التي يقوم بها ، والابتسامة التي ترمم على شفثيه إذا ما تطلع إليه أحد في الشهر الثالث ، يلي ذلك التعبير عن السرور والراحة .

ويمكننا أن نستنتج من هذه القائمة ومن الدراسات المختلفة للنمو اللغوى للطفل ما يلي : —

١ — أن صبيحة البكاء الأولى للطفل لها أهميتها في أنها أول خبرة تستعمل فيها الأعضاء الصوتية . كما تسمح للطفل بأن يسمع نفسه لأول مرة .

٢ — يجمع الباحثون على أن الأصوات الأولى التي يخرجها الطفل عبارة عن أفعال منعكسة « وأنها خالية في بداية الأمر من أى معنى . وتتخذ الأصوات المختلفة معان مختلفة بالتدرج نتيجة لتفاعل الطفل مع من حوله .

٣ - ويجمع الباحثون على أن الأصوات الأولى للطفل عبارة عن حروف الحركة مثل آ ، أ ، أى أن حروف الحركة هي الحروف الأولى التي تظهر في أصوات الطفل .

■ - أن أول حروف ساكنة تظهر في أصواته التي يخرجها هما الحرف م والحرف ب . وتكون وظيفة هذين الحرفين هي تعديل أصوات الحركة .

■ - وتؤكد هذه الدراسات أن حروف الشفة من الأحرف الأولى التي تظهر ضمن أصوات الطفل حين يضم شفثيه لإخراج الحروف ب، ب، م .

٦ - لا تظهر أصوات الحروف المتحركة التي تخرج من متوسط الفم أو من مؤخرته إلا في بداية الربع الثاني من السنة الأولى أي حوالى الشهر الرابع ولذا يبدو أن الحروف المتحركة تتدرج و الظهور من الأمام إلى الخلف . إذ تظهر حروف الشفة أولاً . ثم حروف وسط الفم ثم حروف مؤخرته .

٧ - يكون متوسط محصول الكلمات عند الطفل في الشهر الحادى عشر ما بين ثلاث كلمات أو أربع ، ثم يزداد محصوله اللغوى بسرعة زائدة في السنوات التالية حتى يصل إلى ما يقرب من ٢٥٠٠ كلمة في سن السادسة .

٨ - كثيراً ما يفهم الطفل معانى كلمات وجمل دون أن يستعملها ما دام يسمعها من الآخرين .

كيف يتعلم الطفل الكلام :

ذكرنا أنه لابد من توافر شرطين لتعلم الكلام هما : نضج أجهزة الصوت ^{٢١} والكلام عند الطفل ■ وسماع الطفل للنير .

وتعتبر الأصوات التي يخرجها الطفل كلها منذ اللحظة الأولى في حياته . نقطة البداية في تعلمه الكلام . ويستجيب الكبار بمرور الزمن ونتيجة لتفاعلهم مع الطفل لبعض الأصوات التي يخرجها ويتجاهلون الأخرى . فقد تستجيب الأم لصرخة معينة بإعطاء الطفل ثديها . وتستجيب لصرخة أخرى بتغيير الملابس له . وبهذا الشكل ترتبط الصرخات المختلفة بسلوك معين . ونظراً لأز

الطفل يخرج أصواتاً متعددة بعضها يشبه ألفاظاً دارجة في لغة الأم « تحاول الأم تثبيت مثل هذه الأصوات بتكرارها له والقيام بالسلوك المناسب لها . فقد يقول الطفل دادا أو ماما فتستجيب لذلك ، وتكرر له نفس هذه الأصوات مما يدعو إلى تثبيتها « ويدعوه إلى تكرارها « فيكررها كالبيغاء .

وتكون لذلك الأصوات الأولى للطفل خالية من المعاني . ولا يمكن القول أن الطفل قد اكتسب السلوك اللغوي إلا إذا ارتبطت الأصوات التي يخرجها بأشياء معينة أو حوادث معينة في بيئته « وليس من الضروري أن تكون هذه الأصوات مفهومة للآخرين . فيكفي أن تكون مفهومة للطفل نفسه ولها دلالتها الواقعية عنده .

واللغة ما هي إلا مجموعة من الرموز المصطلح عليها بين جماعة من الجماعات للفهم « ولن يتمكن الطفل من اكتسابها إلا إذا سمعها . فهي وسيلة اجتماعية وتكتسب بالتفاعل الاجتماعي . ويمكن الطفل بالتدريج من ربط الرموز اللغوية بسلوك من حوله « ثم تتخذ هذه الرموز معانيها المصطلح عليها .

ومن العوامل المساعدة على اكتسابها ارتباط نغمة الأم في الكلام بخبرات الطفل . فالأم حين ترضع الطفل تكلمه أو تغني له ويتكرر سماع الطفل لنفس الكلمات أو نفس الأغنية . والمهم هنا ليست الكلمات ذاتها ولكن النغمة المصاحبة ، فتكتسب نغمة الكلمات المصاحبة لعملية الرضاعة معنى رمزياً مصحوباً بالمتعة ، والعكس صحيح حين تكون لهجة الأم عنيفة أثناء خبرة أخرى مع الطفل ، وحينئذ يبدأ الطفل في الاستجابة لنغمة الصوت . وتكون استجابات الطفل الأولى في مراحل حياته لنغمة الصوت . ولهجته لا للكلمات نفسها .

كما أن للمحاولة والخطأ أثرهما في اكتساب اللغة . إذ يجرب الطفل كثيراً من الأصوات ويخطئ . ويبدأ في انتقاء الأصوات ، ويختار المناسبة منها عن طريق التوجيه والتصويب .

ومن العوامل المساعدة سماع الطفل لنفسه أثناء مناغاته لنفسه إذ يستثير بذلك أذنيه والأعصاب المستقبلية في مجال الأعصاب الصوتية .

ولابد من أن نتوقع الفروق الفردية بين الأطفال في طلاقة اللسان . وقد تعزى هذه الفروق إلى أسباب جسمانية في اللسان أو الفم أو الأسنان مما يؤدي إلى العيوب اللغوية في البعض . كما يرى البعض أن العناية الزائدة بالطفل قد تعطل الطفل عن التقدم في اكتساب اللغة . لأن الأم تسارع بإجابة رغباته لا تترك له فرصة التعبير عن الرغبات ، كما دلت على أن التوائهم يقلون في المتوسط عن غيرهم من الأطفال في مستواهم اللغوي لنشأتهم متلازمين . وتؤدي هذه النشأة إلى فهمهم لبعض دون الحاجة إلى استعمال اللغة ، فكأن الاستعمال للتعبير عن الرغبات والحاجات من العوامل المساعدة على اكتساب الطفل للغة »

٢ - الابتسام :

تنتظر كل أم بفارغ الصبر الوقت الذي تنفجر فيه شفتا وليدها عن الابتسامة « ويبدأ الطفل في الابتسامة في الشهر الثاني » ويستمر في ذلك حتى الشهر السادس كلما تطلع إليه وجهه يبتسم . وقد لوحظ أن الطفل لا يبتسم لأي وجه إلا إذا كان هذا الوجه في مواجهته . ويرى علماء النفس أن مثل هذه الابتسامة ليست ابتسامة اجتماعية « لأن الطفل يقوم بها إذا تطلع له إنسان كما يقوم بها الوجه صناعي . فكأن مثل هذه الابتسامة في مثل هذه الفترة من العمر تتوقف على النضج البيولوجي ، وترسم الابتسامة على وجوه الأطفال في مختلف الثقافات . وهذه الابتسامة هي الاستعداد البيولوجي الذي يهيئ المسرح للابتسامة الاجتماعية التي يكتسبها الطفل نتيجة لتفاعله مع الآخرين . إذ يبدأ الطفل بعد الشهر السادس في الاختيار من بين الوجوه التي تتطلع لابتسامها أو لا يبتسم تبعاً لنوع التفاعل بينه وبين الأفراد إذ لا يبتسم إلا للوجوه المألوفة له .

٣ - اللعب :

نلاحظ أن الأطفال يلعبون كما تلعب صغار الحيوانات كالقطط والكلاب وما إليها . لهذا حاول العلماء تفسير ظاهرة اللعب . واعتبرها البعض غريزة ، كما اعتبرها البعض الآخر نزعة فطرية عامة :

ويلاحظ المتتبع للأطفال في نموهم أن تطور أنواع اللعب عندهم واختلافه

(م ١٣ - الطفولة والمراهقة)

باختلاف مراحل النمو . فن ملاحظات المؤلف لطفله في السنة الأولى من عمره أنه كان يهوى من الشهر الرابع من عمره اللعب بالحلق الذي يتبدل من أذن أمه أو العقد الذي حول عنقها كما كان يهوى اللعب بأزرار الرداء الذي ترتديه . ويجد متعة في جذب قدمه إلى فمه وهو منفرد ليلعب بها . ولما بدأ في تعلم المشي كانت له دمية من الكاوتشوك إذا ضغط عليها أخرجت صغيراً . فكان يتلذذ من قدرته على إخراج هذا الصوت من الدمية . وكان في باكورة السنة الثانية يهوى بعثرة محتويات كل علبة تقع عليها يده . وجذب كتب والده من على أرفقها . وسحب كل ماتقع ماعليه يده على أى مائدة يمكنه بلوغها .

ولما كان عمره ثمانية عشر شهراً كان لا يجلس مستقراً في مكان واحد . إذ يهوى الصعود والنزول على المقاعد والأرائك . ويصعد على السرير وينزل من عليه أكثر من عشرين مرة في الخمس دقائق ، وكلما صعد أو نزل صفق لنفسه وقال « آفو » أى « برافو » وطالب الموجودين بالتصفيق له وتشجيعه بلفظه برافو ، كما أنه كان يهوى اللعب في الرمل وأسعد لحظاته إذا جلس على الشاطئ مملأً أوانيّه الصغيرة بالرمل وخاصة إذا شاركه أحد الكبار في لعبه . وكثيراً ما سبب لوالده الإجهاد من مشاركته له في لعبة الاستخفاء التي يبذل فيها جهداً يعي والده ولا يعيه .

وهكذا نجد أن لعب الأطفال يتغير تبعاً لتغير مراحل نموهم . فقد يهوى طفل الثالثة والرابعة اللعب الخيالي الذي يتخيل فيه عدداً من الأصدقاء . كما قد يتخيل العصا على أنها حصان ، والمقعد على أنه قطار وما إلى ذلك . كما قد يهوى اللعب بالأقلام والتخطيط بها على الورق أو الحيطان والأبواب مما يسبب ضيقاً للآباء . كما يهوى الجرى وركوب دراجة الأطفال ويبنى ويهدم .

هذا بينما نجد طفل السابعة أو الثامنة يهوى الألعاب التي فيها عنف وفيها جرى وقفز .

وقد أدت ملاحظة النشاط الزائد الذي يبذله الأطفال في لعبهم إلى نظرية تقول أن اللعب استغلال للطاقة الزائدة عند الطفل . ولما كان الأطفال يستغلون

عادة في لعبهم المواد والأشياء والأفراد والأفكار الموجودة في محيط بيئتهم »
فقد أدى هذا البعض إلى رأى يقول بأن اللعب هو إعداد للطفل ومران له على
حياته المستقبلية ، ويرى البعض الآخر أن الطفل يلخص في لعبه في مراحل نموه
المختلفة المراحل التي مرت بها البشرية في تطورها . ولا يمكننا الجزم بتفضيل
أحد هذه الآراء . فلا شك أن اللعب يحقق أهدافا متعددة .

ويرى أريكسون أن لعب الطفل عبارة عن المظهر الطفلي للقدرة البشرية
لهضم خبرات الحياة . إذ يمر الطفل في نموه بخبرات يصعب عليه هضمها
فيخلق في لعبه مواقف نموذجية يسيطر فيها على الواقع بالتجريب والتخطيط .

ويرى المحللون النفسيون أن اللعب هو الطريق الأمسي لفهم المحاولات التي
تقوم بها ذات الطفل للتوفيق بين الخبرات المتعارضة التي يمر بها إذ يكشف
الطفل الذي يعاني من مشكلة خاصة عن نفسه وعن مشكلته عن طريق اللعب
بشكل لا تعادله طريقة أخرى .

وقد استغل علماء النفس والطب العقلي والمحللون النفسيون طريقة اللعب
في كل من التشخيص والعلاج .

ففي التشخيص يستغل اللعب للملاحظة وتقييم السلوك والكشف
عن المشاكل إذ يسجل للطفل ما يقوم به أثناء لعبه ويقوم الأخصائي بتحليله .

وقد عدد سمبسون فوائد اللعب العلاجية فيما يلي :

- ١ - فهم التكوين الفكرى للعمليات العقلية التي يقوم بها الطفل .
- ٢ - التخفيف من شعوره بالذنب .
- ٣ - تضمين المعالج لآراءاته العلاجية « وإعادة التكامل إلى الطفل
بالتكرار المستمر لنفس المواقف .

ويستعمل المعالجون النفسيون اللى المختلفة التي تمثل الأفراد في محيط
أسرة الطفل كالأم والأب والإخوة ليلعب بها الطفل « وتظهر أثناء لعبه بها
المشاكل الموجودة عنده والتي يكون هؤلاء الأفراد مصدراً لها كما يستعملون

في العيادات النفسية كل ما يجد فيه الأطفال متعة في اللعب . وليس المقصود من وجود أدوات اللعب في العيادة النفسية مجرد أشياء يقضى بها الطفل وقته ، بل تستعمل لتوثيق العلاقة بين الطفل والطبيب ، والكشف عن مشاكل الطفل وعلاجه عن طريق اللعب بها .

٥ - التفاعل مع أفراد الأسرة :

لقد تكلمنا في معرض حديثنا عن التنشئة الاجتماعية عن دور الأسرة في تنشئة الطفل والتأثير عليه اجتماعياً . كما ذكرنا أن الطفل يتلقى في أسرته دروسه الأولى عن الحياة مع الآخرين . كما يتعلم الطرق والوسائل الاجتماعية التي يتفاعل بها معهم وقد ذكرنا أن الأسرة تعد الطفل لدوره في ثقافته . فترى الولد ليكون رجلاً وترى الفتاة لتكون امرأة . ونموذج الطفل الولد للرجولة هو والده . ونموذج الفتاة للمرأة هي الأم ، فيمتص كل منهما دور الأب المماثل له في الجنس . ويقال في الأمثال « الولد سر أبيه » ، « واكفى الوعاية على فها تطلع البنت لأُمها » .

وإذا كان الأبوان مصدرًا للحب ومصدرًا لتحقيق كثير من رغبات الطفل ، فهما أيضاً بحكم سلطتهما عليه مصدر لكثير من الحرمان وكثير من القيود . لذا ينشأ بانجهاات نفسية متعارضة نحو الأبوين قد تصل إلى الكراهية والحب في نفس الوقت ، مما قد يسبب صراعا عنيفا لدى البعض ، وقد لوحظ أن الأطفال يمرون في حوالى سن الثالثة بمرحلة فيها سلبية في سلوكهم الاجتماعي نحو الآباء فيرفضون الاستجابة لأي مطلب من مطالب الكبار . ويرى علماء النفس أن هذه المرحلة مرحلة تجريب يبدأ فيها الطفل تجريب قوة ذاتيته والاستقلال عن والديه وخاصة اكتسابه مهارات كالمشي والكلام . ويتوصل الطفل بتفاعله مع والديه إلى أنماط من السلوك يستغلها في الوصول إلى أهدافه . وقد تظل معه هذه الأنماط طيلة حياته فالتوسل والاستجداء والتذلل أو استعمال العنف اللفظي أو الجسدي أو استغلال أساليب المكر والدهاء أو المكذب وما إلى ذلك - كلها - أساليب اجتماعية يتعلم الطفل

دروسها الأولى من معاملة الأبوين له ، كما يتعلم الاتجاهات النفسية نحو الأشياء والناس والدين والمبادئ منهما أيضاً .

ومن المشاكل الهامة في علاقة الطفل بأفراد أسرته مشكلة التعامل مع الإخوة والغيرة بينهم . وتعتبر الغيرة بين الأخوة ظاهرة عامة في حياة الأسر . وقد لوحظت هذه الظاهرة النفسية في ثقافات مختلفة . إذ لاحظ بول Paul في سان باذرلالجونا في جواتيالا أن الآباء غالباً ما يخشون من أن يأكل الطفل روح شقيقه المولود . لذلك يقيمون طقساً دينياً يقوم به أحد رجال الدين . ويتلخص ذلك في ضرب كتكوت حتى يموت على ظهر الطفل الأكبر الذي عليه أن يأكل هذا الكتكوت فيما بعد . ويرمز الضرب هنا للقوة كما يرمز الأكل للتهدئة . وهما عاملان من العوامل السائدة في نظم الثقافة . ويهتم البالغون بمثل هذا الطقس الديني نظراً لما تضعه الثقافة من قيود على أفرادها . وللأحترام الشديد للسلطة فيها .

فالطفل الأول يلقي دائماً أكبر قدر من حب والوالدين واهتمامهما . اللهم إلا إذ كانت هناك عوامل خاصة تمنع ذلك . كعدم رغبة الوالدين في الطفل لأسباب تؤدي إلى نفورهم منه مثل كراهية كل منهما للآخر ، أو كراهية دور الأبوة . أو رغبتهما في صبيان فجاء الطفل بنتاً أو ما ذلك وتعطى الأم خاصة كل وقتها واهتمامها للطفل حتى يولد طفل جديد في الأسرة . فما أن يولد طفل جديد في الأسرة حتى ينظر الشقيق الأكبر إليه على أنه دخيل عليه يحرمه من كل حقوقه . وتقل العناية بالمولود الجديد عادة من الوقت الذي تعطيه الأم للطفل الأكبر ومن اهتمامها به . وكثيراً ما يشعر الطفل الأكبر بحاجته إليها في الوقت الذي تكون فيه مشغولة بالطفل الأصغر . فيؤدي هذا إلى شعوره بأن الطفل الصغير يهدد وجوده ومركزه وكيانه وأنه دخيل عليه .

وتزداد صدمة الطفل بمجيء الطفل الأصغر كلما زادت حساسيته . وقد تؤدي به الصدمة إلى النكوص إلى مرحلة سابقة من مراحل نموه . فقد يفقد

السيطرة على حركة معدته بعد أن تعلم ضبطها ، ويعود إلى الحبو بعد أن تعلم المشي وما إلى ذلك . ومن المظاهر المعروفة للغيرة وما تؤدي إليه من شعور يفقد الثقة والاطمئنان والأمن إذا ما حل بالأسرة مولود جديد التبول اللا إرادى وصعوبات النطق والكلام والمشاكل المصاحبة للأكل ، والأحلام المزعجة وما إليها .

ويشعر الطفل عادة بشعور عدائى تجاه كل من المولود والأم وقد يعبر عن هذا الشعور علانية بالاعتداء والتدمير . أو قد يكون هذا الشعور مكبوتاً عنده ويخشى التعبير عنه غير أن الشعور المكبوت يجد سبيله إلى الإعلان عن نفسه بطريقة ملتوية . ونتيجة لما ينسجه خيال الطفل من رغبات وأفكار سيئة يكره الطفل نفسه وبحول الموجه الاعتدائية ضد نفسه .

غير أن كثيراً من الأطفال يتقبل الواقع ويرضى بما يفرض عليه من حرمان وكلما زاد وعى الآباء وزاد تقدم الطفل فى السن كلما زادت أرجحية مرور الطفل فى هذه المعمعة بسلام دون أن يصاب بصدمة نفسية . وإذا كان فى الأسرة أفراد غير الأم وغير الأب كالجذات والحالات والعماط فقد يتمكن الطفل من إنشاء علاقة مع واحدة منهن تكون بديلاً للروابط التى بدأت تنفك مع الأم . ويحدث هذا غالباً إذا كان فى الأسرة أشقاء أو شقيقات كبار . إذ يتمكن من توطيد روابط الأمومة مع واحدة منهن .

النمو الانفعالى

كان المعتقد أن الطفل يولد وعنده ثلاث حالات انفعالية غريزية هى الخوف والغضب والحب . كما أن ماكدوجال فى قائمته للغرائز ربط كل غريزة بانفعال خاص مصاحب لها . ويكاد يكون هناك اتفاق بين علماء النفس حالياً على أن الطفل يولد وليس لديه من الانفعالات إلا استعداد عام للاستثارة أو التهييج فى شكل نشاط عام يعبر عنه بالبكاء . ومن هذا الاستعداد العام تتميز الانفعالات المختلفة وتتكامل تبعاً لتطور الطفل فى النضج العقلى الفسيولوجى والعصبى .

ومن البحوث الهامة في تطور نمو الانفعالات بحث قامت به بریدجز في أحد المستشفيات ، وحاولت فيه تسجيل التعابير الانفعالية في ٦٠ طفلاً تراوح أعمارهم ما بين يوم وستين . وكانت تلاحظهم ملاحظة دقيقة طيلة اليوم فوجدت أن أول ما يمكن تمييزه في الطفل في المراحل الأولى من النمو هو حالة اضطراب عام أو تهيج عام أو استنارة عامة . وفي حوالى الشهر الثالث من العمر تتميز من هذه الحالة العامة حالتان تعبر إحداهما عن الضيق وتعبر الثانية عن السرور . وفي حوالى الشهر الخامس يمكن تمييز انفعال الغضب والتفرز . في حين أن الخوف لا يتميز حتى الشهر السابع . ومن الصعب تمييز الانفعالات من مظاهرها الخارجية . .

ومن التجارب التي تثبت ذلك أن استثيرت انفعالات مجموعة من الأطفال كان الطفل يوخز بدبوس ، أو يرفع ثم يترك ليهوى على السرير ، أو يحرم من الطعام حتى يجمع ، أو يزعج بالأصوات العالية وما إلى ذلك . وسئلت مجموعتان من الطلبة - الأولى من طلبة الطب وعددها ٤٢ طالباً ، والأخرى من طلبة علم النفس وعددها ٣٢ طالباً - أن تسمى كل من المجموعتين - الانفعالات التي لاحظتها على الأطفال من مظاهرها الخارجية ، وكان القائم بالتجربة أحياناً يثير انفعالات الأطفال وهم وراء ستار ، ثم يرفع هذا الستار ويطلب من الطلبة وصف الإنفعال . وأحياناً أخرى كانت تعرض عليهم أفلام سينمائية للأطفال المنفعلين حتى لا يعرف الطلبة طبيعة المثير . وقد فسر ٢٦٪ من طلبة الطب لإنفعال الطفل نتيجة لهويه على السرير على أنه نتيجة مخص معوى وفسره ٢٦٪ على أنه نتيجة لإيقاظ الطفل من نومه ، و ١٤٪ على أنه يدل على الغضب . و ١٤٪ على أنه يدل على الجوع . أما بقية الأصوات فكانت موزعة بين الألم والخوف أو أن الطفل في ملابس ضيقة . ومن المعروف أن واطسن كان يعتقد أن عملية فقد السند (إسقاط الطفل) من العمليات التي تستثير انفعالا موروثا هو الخوف . ولم تتمكن إلا نسبة أقل من ٥٪ من تحديد هذا المثير . ولم تختلف إجابات طلبة علم النفس عن طلبة الطب في تنوعها وعدم دقتها فقد حدد ٤٢٪ منهم الانفعال الناتج عن فقد السند على أنه الغضب و ١٩٪ على أنه الجوع و ١٥٪ على أنه الخوف .

ويؤكد علم النفس الاجتماعي أن الانفعالات ليست مجرد حالات فسيولوجية تتوقف على النضج . بل إنها كغيرها من مظاهر السلوك الإنساني تتأثر إلى حد كبير بالثقافة والتعلم . فالمواقف الاجتماعية هي التي تستثير الحالات الانفعالية وتختلف الثقافات فيما بينها في تحديد المواقف التي تستثير الانفعالات . فقد يغضب الرجل العربي إذا امتدح رجل آخر جمال زوجته ، بيد أن الرجل الأمريكي يسر عادة لهذا المديح . ولا يقتصر أثر الثقافة والتعلم على تحديد المواقف التي تستثير الانفعالات فحسب ، إنما تؤثر الثقافة أيضاً في تحديد طرق التعبير عن هذه الانفعالات « فالانتشاح بالسواد تعبير عن الحزن لوفاة عزيز في ثقافتنا بينما قد يكون ارتداء اللباس الأبيض طريقة للتعبير عن نفس الانفعال في ثقافة أخرى .

وقد بينت بعض الدراسات الإثنوبولوجية الحديثة أن بعض الثقافات تسود فيها بعض الانفعالات التي قد لاتسود ثقافة أخرى . إذ لاتنضج الثقافات قيودها على طريقة التعبير عن الانفعال فحسب بل وعلى نوع الانفعال نفسه ؛ فقد وجد مثلاً أن جماعة الزوني الهندية الأمريكية لاتسود بين أفرادها حالات عاطفة الحب الرمانتيكي أو الغيرة أو الحسد .

ويمكننا أن نحدد مظاهر الحالة الانفعالية المستثارة بثلاثة مظاهر :

- ١ - وجود موقف معين يفسره الفرد بشكل خاص تبعاً لخبراته ؛
- ٢ - استجابة داخلية لهذا الموقف . وتتضمن هذه الاستجابة تغيرات جسمية وفسيولوجية وعمليات عقلية .

٣ - تعبيرات جسمية خارجية مكتسبة من الثقافة للتعبير عن هذا الانفعال . وهذه قد تكون تعبيرات لغوية أو تغيرات في ملامح الوجه أو حركات جسمية أو كلها مجتمعة .

أما وقد بينا أثر الثقافة في تحديد المواقف الخارجية التي تستثير الانفعالات فلا بد إذن أن يفسر الفرد الموقف بمعنى خاص عنده حتى يثور الانفعال .

وبما يلاحظ أن الفرد في مراحل نموه وتطوره تتمركز انفعالاته حول أشخاص أو أشياء مادية أو مبادئ . فالوالدان يثيران فينا انفعالات لا يثيرها غيرهما ، ووطننا وعلمه يثيران فينا انفعالات لا يثيرها بلد آخر أو علم آخر . وبعض المبادئ يكون أثرها علينا أقوى من أثر غيرها وهكذا .

خصائص سن الخامسة عند جبرل

- واقعي « يعد بالأمر الواقع ، ولا يثق إلا بما هو ملموس أو عيان .
- لديه القدرة على الضبط الذاتي وغير مبالغ في انفعالاته .
- هادئ ومتماثل لنفسه ومتوافق ومتماسك وتوازنه جيد .
- مطيع ومنصاع والعلاقات بالآخرين ذات أهمية ، ولديه الرغبة في إرضاء الغير .
- قادر على النقد الذاتي .
- ليس منامراً أو جورراً ، ويجب أن يعمل ما يجيده ، ويجب أن يكون واثقاً ودقيقاً ولا يجب إلا عن ثقة .
- أذني في ممتلكاته .
- اللعب التعاوني محدود بثلاثة أفراد .
- يتقبل البنون والبنات بعضهم البعض .
- مرحلة تثبيت لما سبق أن تعلمه .
- الأم هي مركز تعلمه الخاص .
- يجب أن يتحدث له الكبار عن خبراته في الطفولة كما يجب قراءتهم القصص له .
- يتطلب المساعدة من الكبار ويتقبل توجيهاتهم .
- عنده فكرة أولية عن الشهور بالمار والحجل .
- يسعى إلى اجتذاب الانتباه والمدح والتصفيق .
- يمكن أن يرسم أشياء بسيطة ، ويقلد رسم مربع ويعد من واحد إلى خمسة .
- ثرثار يتكلم كثيراً .
- يسبب الرعد والظلام والوحدة الخوف والقلق له .

خصائص هذه المرحلة عند جنكز

- يتعلم فهم بيئته وينصاع لكثير من مطالبها .
- يرغب في تعصيد الكبار .
- يجب أن يكون له أصدقاء لكنه يتشاجر معهم كثيراً .
- يبدأ الأب يدخل في حياته تدريجياً .
- يجب أن يقوم بالمساعدة في شئون المنزل .
- سريع التقليد في الكلام والمعدات أو الحركات .
- نشط دائماً وقادر كذلك على القيام بالنشاط المادي .
- إذا اعتراه التعب أصبح سريع الاستفزاز ويعاني من عدم الاستقرار .
- يبدأ في تحمل المسؤولية .
- ابتكارى ، يحب الرقص والغناء واللعب الخيالى .
- يجد متعة في أن تقرأ له القصص « ويلعب بالمكعبات ، والصلصال » ويرسم بالألوان .
- يلعب البنون والبنات معاً .
- عج للاستطلاع ويسأل أسئلة كثيرة .
- يبدأ في فهم الوقت : الصباح ، المساء ، البارحة ، غداً .
- غير مستعد للتنافس .
- لا يمكنه التمييز بين ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى .

العمليات الارتقائية في هذه المرحلة (هافجهرست)

- ١ — تعلم الكلام :
- التفاهم مع الآخرين من طريق استعمال الكلمات . وتختلف اللغة التي يتعلمها الأطفال في حدود ضيقة طبقاً للمستوى الاجتماعى والاقتصادى للأسرة .
- ٢ — تعلم ضبط المعدة والتخلص من فضلات الجسم .
- التبول والتبرز بالطريقة المقبولة اجتماعياً في المكان المناسب وضبط المثانة ليلاً أثناء النوم لا يتوصل إليه الطفل في المتوسط إلا عند بلوغه سن الرابعة وتوجد فروق بين أبناء الطبقات المختلفة في تعلم هذه العمليات .
- ٣ — تعلم الفروق الجنسية والحياة الجنسية .

— ٢٠٣ —

- ملاحظة وتميز الاختلافات في السلوك بين البنين والبنات - يتعلم التفروق التشريحية بين الجنسين إذ يتعلم تقطيع الأعضاء التناسلية . ويتعلم دوره الجنسي .
- ٤ — تكوين مفاهيم بسيطة عن الواقع الاجتماعي والطبيعي .
- يميز بين الناس والأصوات والأشياء وخصائص كل منها .
- ٥ — تعلم الارتباط العاطفي بالآباء والإخوة وغيرهم من الناس .
- يشارك الآخرين في خبراتهم « يقلد الآباء والإخوة الكبار ، ويتقدص شخصية الآخرين وخاصة الآباء .
- ٦ — تعلم التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب وينمو عنده ما يسمى بالضمير .
- التمييز بين ما هو حسن وما هو سيء عن طريق الثواب والعقاب .

ملخص

يظهر تطبيق مبادئ النموذج في النمو الحركي في السنة الأولى وهذه المبادئ هي مبدأ التفرد « وتسلسل النمو من أعلى إلى أسفل ومن الداخل إلى الخارج ، واختلاف سرعة نمو أجزاء الجسم المختلفة من جزء إلى جزء .

أما من ناحية النمو العقلي فقد فشلت معظم الاختبارات العقلية في قياس ذكاء الطفل في السنتين الأوليين . إذ ظهر أن هذه الاختبارات تقيس مظاهر بينها وبين القدرة العقلية للبالغين ارتباط ضعيف . وقد بينت الدراسات أن النمو العقلي يزداد زيادة مطردة سريعة في السنوات الأولى خاصة خلال الستة أو الثمانية شهور الأولى ، وتستمر هذه الزيادة بعد ذلك ولكن بدرجة أقل أي بنقص في درجة الزيادة خاصة ما بين سن ١٢ و ٩ سنة . ثم تزداد سرعة النمو نسبياً بعد ذلك ، ثم تبطؤ هذه السرعة حتى تصل إلى مرحلة ثابتة تقريباً حوالي السنة الثامنة عشرة من العمر .

ويتضمن النمو الاجتماعي النمو اللغوي « والابتسام « واللعب ، والتفاعل مع أفراد الأسرة . ويبدأ النمو الانفعالي عند الطفل باستعداد عام للتبجح تميز منه الانفعالات المختلفة بالتدرج .

الفصل الحادى عشر

الطفولة المتأخرة

من سن ٦ إلى ١٢ سنة

صعوبات دراسة هذه المرحلة :

يلاحظ الدارس لمراحل النمو المختلفة أن ميدان علم النفس يفيض بالدراسات التى تدور حول مرحلة الطفولة المبكرة وحول الشباب ، بينما يجد الدراسات للمرحلة التى نحن بصددھا قليلة جداً بالنسبة للدراسات الأخرى ولعل هذا يرجع إلى الصعوبة التى يجدها الباحثون فى دراسة الأطفال فى هذه السن . فالطفل فى هذه المرحلة يسعى إلى تأكيد استقلاله . إذ يكون قد وصل إلى مرحلة تبلورت فيها فكرته عن نفسه . وفى سبيل تأكيد هذه الفكرة يصطدم بسلطة الكبار عليه . مما قد يؤدى إلى الشعور بالعداء نحوهم . فيسعى فى تصرفاته إلى الحد من الكبار والتكتم فيما يقوم به أو يفعل .

ولما كانت معايير الأطفال فى هذه السن تختلف عن معايير الكبار ، بعكس المراهق أو طفل الرابعة أو الخامسة الذى يسعى لإرضاء من حوله وتقديرهم ، ولما كانت هذه السن تتميز ببدء انطلاقه خارج المنزل ، فيصبح ارضاء أصدقائه أهم عنده من إرضاء والديه .

ونظراً لطاقة النشاط التى تتميز أطفال هذه السن ، نجد أن الطفل يصرف جل وقته خارج المنزل فى اللعب . ويصعب على الأسرة وعلى الكبار انتزاعه من بين أصدقائه فى اللعب . فقد لا يلج المنزل إلا ساعة وجبات الطعام التى يضطر إليها اضطراراً للذة التى يجدها فى اللعب والوجود بين الأصدقاء .

وتزید مشقة الحصول على معلومات من الأطفال فى هذه السن لاتجاهات

الكبار نحوم . إذ تعتبر هذه المرحلة حداً فاصلاً بين مرحلتين متميزتين . إذ تسبقها مرحلة ينظر فيها إلى الأطفال على أنهم أطفال « وتليها مرحلة يشب فيها الأطفال عن الطوق ويصبحون كباراً . ويشعر طفل المدرسة الابتدائية الذي يمر بالمرحلة التي نحن بصدددها بأنه لا ينتمى إلى هؤلاء ولا هؤلاء فهو أكبر من الأطفال وأصغر من الكبار « مما يؤدي إلى صعوبات يجدها الكبار في معاملته « وخاصة أننا نتذبذب في هذه المعاملة فتارة نطالبه بأن يكون كبيراً وتارة نذكره بأنه لا يزال طفلاً . فإذا بكى مثلاً نهرناه لأنه ليس بطفل وإذا ابتعد عن المنزل نهرناه أيضاً لأنه طفل .

ويأخذ الأطفال في هذه السن الأمور بحجة تامة « ويتوقعون الجدية من الكبار . وهذا يبين لنا مدى حاجتهم إلى المعاملة الثابتة الخالية من التذبذب .

ويقسم العلماء هذه المرحلة إلى فترتين : فترة تمتد من السادسة إلى الثامنة وفترة تمتد من التاسعة حتى الثانية عشرة من العمر .

مميزات الفترة من سن ٦ إلى ٨ سنوات

النمو الجسماني :

يكون النمو الجسماني سريعاً جداً وبنسبة كبيرة في السنة الأولى من العمر . ثم يكون النمو بعد ذلك تدريجياً ، ويتم للطفل في الخمس سنوات الأولى السيطرة على كل أجزاء جسمه التي تساعد على الحركة . ويستطيع طفل السادسة المشي والجري والقفز وركوب الدراجة . وتتوقف هذه العمليات على استعمال العضلات الإرادية الكبيرة . وتمهد المهارات التي تعتمد على هذه العضلات لمهارات أخرى كلعب الكرة والتزحلق ولعبة الاستخفاف . وتكون المهارات للعضلية وسيلة له لتحقيق أهدافه في أهم نواحي نشاطه في هذه السن ألا وهو اللعب .

ويتميز الطفل في هذه السن بالنشاط الجسماني الزائد الذي يصرفه في اللعب إذ قد يستمر في اللعب من الصباح حتى المساء دون الشعور بالتعب . ويؤدي

نشاطه ولعبه إلى إحداث الضوضاء وخاصة إذا ما اجتمعت مجموعة من الأطفال في هذه السن ، مما يكون مبعثاً لشكوى الكبار .

ويميل الأطفال في هذه السن إلى اللعب الخشن مما يؤدي إلى إصابتهم بكدمات مختلفة يمكن ملاحظتها على أجزاء الجسم المختلفة .

وتبدأ العضلات الدقيقة في النضج بالتدرج « فطفل السادسة لم يتم له بعد نضج جهازه العصبي . لذا يعجز طفل السادسة عن القيام بأعمال تتطلب استغلال العضلات الدقيقة . إذ لايسهل على الفتاة أداء أشغال التريكو الدقيقة كما يجد الطفل صعوبة في تعلم الخط وتحسينه في باكورة هذه السن ، لأن مثل هذه العمليات تتطلب استغلال عضلات لم يتم نضجها بعد . لذا يعتبر تعسفاً لإصرار معلمة السنة الأولى الابتدائية على تعليم الطفل الكتابة في وقت قصير » وإصرارها على جودة الخط ، لأنها بذلك تطالب الطفل القيام بعملية لم يهيئ لها استعداداته العضلية والعصبية . لذا ننصح بالتدرج في اكتساب هذه المهارات ، وتقبل رداءة الأداء في بداية هذه المرحلة « على أن تزيد العمليات التي تتطلب مهارات عضلية بالتدرج .

ونظراً لنشاط الطفل الزائد وعدم استقراره ، لا يستطيع الطفل في بداية هذه المرحلة الاستمرار في عمل لمدة طويلة . وإن كانت الحاجة ملحة لتنظيم أوقات الطفل له وتوزيعها بين الراحة واللعب لرغبة الطفل في اللعب المستمر وبلل النشاط .

وينصح المربون أن تدور برامج السنوات الأولى في المدرسة الابتدائية حول الخبرات التي يستغل فيها نشاط الطفل ووجهه للعب خارج جدران الفصل الدراسي .

النمو العقلي :

يكون النمو العقلي في هذه السن نمواً سريعاً . وتكون رغبة الطفل في حب الاستطلاع كبيرة . إذ يسأل ويستفسر عن كل شيء يصادفه ويصر على

الحصول على إجابات لأسئلته . ويحصل بهذا الشكل على معلومات كثيرة في نواح متعددة خاصة تلك التي تتصل به مباشرة أو ما تجذب انتباهه ويلاحظها : ويؤدي حب استطلاع الطفل ورغبته في المعرفة وكثرة السؤال إلى إحراج الآباء مادام الطفل لا يتحرج عن السؤال عن أى شيء . وبالتالي فقد يسأل عن النواحي الجنسية والظواهر الطبيعية وعن الله وأصل الكون وما إلى ذلك :

ويؤدي تعطش الطفل إلى المعرفة حصوله على معلومات كثيرة وبسرعة فائقة غير أنها كثيراً ما تكون متناقضة وتفتقر إلى الدقة . مما يؤدي بالأطفال إلى استعمال ألفاظ كثيرة لا يعرفون معانيها الحقيقية « غير أنهم قادرون أيضاً على التفكير المنطقي .

وليواجهه بحوث كثيرة تلور حول تفكير الأطفال ، ومحتويات هذا التفكير « ونظرتهم للعالم المحيط بهم ، وطريقتهم في التفكير . إذا كانت بحوثه لا تقوم على طرق إحصائية غير أن فائدتها كبيرة نظراً لخبرته العميقة في دراسة الطفولة ومظاهرها « فله دراسة سأل فيها الأطفال عن مصدر الأسماء ونشأتها . إذ سأل مجموعة منهم عما هو الاسم، وكيف أخذ الشيء اسمه، وكيف نعرف أن هذا هو اسم الشيء « وهل تعرف الأشياء أسماءها « وأين توجد الأسماء ، ولماذا تسمى الشمس شمساً ، وهل من الجائز أن تسمى شيئاً آخر وما إلى ذلك .

ويرى يياجيه أن الأطفال في سن الخامسة والسادسة يرون أن الأسماء جزء لا يتجزأ من المسميات والاسم والشيء كل واحد لا يتجزأ . وأن اسم الشيء ينبع منه . بينما يرى طفل السابعة والثامنة أن الاسم من اختراع مخترع الشيء . فالله صنع السماء وأعطاه اسمها « وفعل هذا بالشمس والقمر وما إلى ذلك . أما إذا كان الشيء من صنع الإنسان ، فالإنسان الأول الذي اخترع الشيء هو الذي أعطاه الاسم . ويرى طفل التاسعة والعاشر أن الأسماء من صنع البشر ، ويفصلون بين خالق الشيء أو صانعه وإطلاق الاسم .

وهكذا يتدرج تفكير الأطفال في التطور « ففي المرحلة الأولى يكون

الشيء واسمه واحداً . وفي المرحلة الثانية يكون الاسم من صنع الإنسان غير أنه يوجد مع الشيء . أما في المرحلة الثالثة فالاسم مع صنع الإنسان أيضاً ولكنه ليس بالضرورة من صنع صانع الشيء .

وانتهى يياجيه من هذه الدراسة وغيرها إلى إيجاد ١٧ مرحلة يمر بها تفكير الطفل في نموه . وهو يرى أن التفكير المنطقي يتدرج في النمو تدريجياً في المرحلة ما بين ٦ و ١٢ سنة .

غير أن ديوتش Deuech قامت بدراسة أوفى من دراسات يياجيه عن تفكير الأطفال في الأسباب والنتائج والعلاقة بينها . وتتميز دراساتها بأن العينة فيها كانت كبيرة ، وكانت تشمل أطفالاً يتراوحون في أعمارهم ما بين ثمان سنوات و ١٦ سنة . وهي ترى أن هناك خمسة مستويات للتفكير في الأسباب والنتائج .

والمستوى الأول يفسر فيه الأطفال العلاقة بين الأسباب والنتائج على أنها أمر طبيعي أو بأن ذلك ظاهرة طبيعية . والمستوى الثاني يفسرون فيه السببية بالحياة فالسحب يتحرك لأن بها حياة . والشمس تشرق وتغرب لأن فيها حياة . وتفسر السببية في المستوى الثالث بالآلية ، أي وجود قوة خارج الشيء تسببه . فالسحاب يتحرك لأن هناك قوة تحركه من الخارج . ويكون التفسير في المستوى الرابع بالديناميكية أي وجود قوة في الشيء نفسه تحركه . وأعلى هذه المستويات جميعاً هو المستوى الخامس الذي تبرر فيه السببية بالاستنتاج المنطقي .

وقد وجدت أن التفكير في كل المستويات موجود في كل مرحلة من مراحل العمر . وأن الأطفال لديهم القدرة على التفكير المنطقي وربط الأسباب بالنتائج .

فلا غرو إذا وجدنا تعطشا في أطفال السابعة والثامنة إلى المعرفة والسؤال عن الأسباب والنتائج وربطها ببعضها في أي مستوى من مستويات التفكير التي ذكرتها ديوتش .

النمو الاجتماعي :

يرى بياجيه أن الطفل بين الثالثة والخامسة يتصف بمركزية الذات ، أى يتصف بالأنانية ولا يهتم إلا نفسه ، ولا يفسر الأشياء إلا من وجهة نظره الخاصة . وبزيادة اكتسابه للغة يزداد فهما لرغبات الآخرين ولأدوارهم بالنسبة لدوره . فيبدأ فى تصحيح فكرته عن نفسه . وتساعد اللغة على التحرر من مركزية الذات « ويبدأ إحساسه بآراء الغير » وفى اكتساب السلوك الاجتماعى الذى يساعده على الاندماج فى الجماعة « فتقل أنانيته » ويقل بالتالى لعبه الانفرادى . ويسعى للعب مع الأصدقاء .

ويتأرجح فى هذه السن بين محاولة الاستقلال عن المنزل والرغبة فى طاعة الوالدين والاعتماد عليهما . فيسعى لأن يكون له رأى فى اختيار أصدقائه وفى الطريقة التى يقضى بها وقت فراغه ، ونواحى النشاط التى يندمج فيها فى لعبه ، ويتزع مع أصدقائه إلى اللعب العنيف . إذ تسمح له فرصة الاختلاط بالغير إلى اختبار فكرته عن نفسه . فيحاول أن يقيس قوته بالنسبة لقوة الآخرين . وقد تدعوه الحاجة لتأكيد ذاته إلى المفاخرة والمباهاة والكذب الإيهامى « والفخر » فيحب التنافس ويحب الصراع .

وتؤدى مقارنة نفسه بالغير وحب التنافس إلى وجود الغيرة الشديدة بينه وبين الأطفال . ويأويل مدرس السنة الأولى أو الثانية الابتدائية الذى يسمح لطفل بالخروج من الفصل ولا يسمح لطفل آخر . وقد يؤدى التنافس والغيرة إلى الدخول فى مناقشات جدلية عقيمة غير منطقية يراها الكبار تافهة ، لكنها تكون واقعية بالنسبة للأطفال لقلة معلوماتهم أو نقصها .

وقد يبدى الأطفال فى هذه السن روح العنف والتشبث بالرأى على محاولة فرض آرائهم على الكبار . وكلها محاولات لاختبار الذات وتأكيداتها وتأكيد الاستقلال .

(م ١٤ - الطفولة والمراهقة)

ويوضح لنا الصفات الاجتماعية للطفل في هذه المرحلة اقتباس نقبسه من سجلات الدراسة التي قام بها باركر ورايت وكوب .

وهذه الدراسة جديدة في نوعها إذ حاولوا دراسة أطفال مدينة صغيرة في حياتهم الطبيعية يوماً بيوم ، أى دراستهم من واقع الحياة . وفي رأيهم أن نتائج مثل هذه الدراسات تكون أصدق من الدراسات التجريبية التي تتم في المعامل أو في ظروف غير طبيعية كالمدسة وما إليها . وكان هدفهم وصف السلوك الذي يقوم به الأطفال تحت سن الثانية عشرة في نشاطهم اليومي .

بدأت دراستهم بتحديد الوحدات المجالية للسلوك . ويقصدون بالوحدات المجالية السلوكية تلك الوحدات التي تتطلب القيام بسلوك معين بالإضافة إلى الخصائص السلوكية الموجودة في الوحدة نفسها . فالكنيسة مثلاً وحدة مجالية سلوكية تتطلب سلوكاً معيناً أثناء الوجود فيها . كما أن لها مميزات الخاصة التي تميزها عن غيرها من الوحدات كالمدسة مثلاً . وتوصلوا بذلك إلى تحديد ٤٥٣ وحدة كالأمره والكنيسة والمدسة والأندية المختلفة وأيام الأعياد وما إلى ذلك . ورتبت هذه الوحدات تبعاً لأهميتها . وقيست الأهمية بطول الفترة التي يقضيها الأفراد في كل منها . وعين لكل طفل في المدينة ما بين ٧ و ٩ من الملاحظين المدربين على الملاحظة للملاحظة ، وأخذ سجل مفصل لما يقوم به طوال اليوم من ساعة استيقاظه حتى ذهابه إلى النوم . وقسمت السجلات بعد ذلك إلى مواقف سلوكية كل موقف له بدايته ونهايته وله فكرة يدور حولها .

والاقتباس التالي وصف لسلوك طفل عمره سبع سنوات في فترة من فترات الصباح .

روى طفل عمره سبع سنوات يعيش مع أمه وأبيه وشقيقته (١٦ سنة و ١٣ سنة) . وأخ عمره ١٢ سنة . وبين الاقتباس سلوكه بعد أن تناول إفطاره وقبل أن يذهب إلى المدسة .

كان روى يقوم بارتداء ملابسه في حجرة نومه التي كانت تقع بين المطبخ وبين حجرة الجلوس :

الساعة ٨,٣٣ صباحاً - أخذ روى سروالاً نظيفاً مكويّاً من السرير ونظر إليه . جلس روى على السرير يدس ساقيه في السروال . أخذ يتفخ من المجهود الذي يبذله في لبس سرواله « وربما كان التفخ لأنه كان يعاني من برد في هذه اليوم . حاول إدخال أحد الأزرار في العروة . فوجد صعوبة على الرغم من محاولته . فقطب جيبنه مظهرأ فقدانه الصبر ، وصاح « يوه » ثم حاول بقوة حتى نجح في هذه العملية . لم يظهر أى علامة من علامات الرضا . ثم تحول انتباهه إلى حزام ملقى على السرير ليتناوله .

الساعة ٨,٣٤ صباحاً - نظراً إلى القائم بالملاحظة وقال سأخذ حزامي . ثم أخذ الحزام ووضعته حول وسطه « ثم قال بكبرياء ، « سأخذ طبنجتي أيضاً » ونظر إلى القائم بالملاحظة وقال ، « لازالت الطبنجة تحت الوسادة » ثم تطلع إلى الوسادة . وقد بدأ في نظراته أن هناك شرفاً في وجود الطبنجة تحت الوسادة لقد كان سعيداً وراضياً عن نفسه .

مد يده تحت الوسادة ولدهشته وجد بطاريته . فقال « آه - هذه هي البطارية . لم أضعها في مكانها » . وضحك ، وبدأ كأنه يريد أن يقول كم أنا مهمل ! ! ثم وضع البطارية على حافة دولاب الحجرة .

الساعة ٨,٣٥ صباحاً - صاحت أخته لولا (١٦ سنة) بصوت عطوف « هل أنت مستعد الآن للذهاب إلى المدرسة ؟ » . وبينما كانت تلخل الحجرة كان يتناول طبنجته من تحت الوسادة . اتجهت إليه لولا مباشرة وأصلحت من ياقة قميصه . وقالت مؤكدة مسؤوليتها عنه « يكون منظر الياقات أجمل إذا كانت مثنية إلى أسفل » ثم ركعت على ركبتيها وثنت له نهاية السروال . كانت لولا كلها أمومة . وكان روى يتجاهلها تماماً وهو مشغول بطبنجته .

لاحظت لولا الطبنجة . فقالت في لهجة آمرة « يجب عليك ألا تأخذ الطبنجة معك » . فتجاهل ملاحظتها واستمر في وضع حزام الطبنجة حول

وسطه . فقالت له « لا يمكنك أخذ الطنبجة معك . إن أمي لن ترضى عن ذلك » .

لم يظهر على روى أية نية للاستماع لها . فأخذ يجيد ربط الحزام حول وسطه .

الساعة ٨,٣٦ صباحاً - قالت له أخته ، « روى - اخلع حزام الطنبجة » . وقف روى ثابتاً لا يتحرك وكله هدوء . وكان واضحاً أن هدوءه ليس من النوع الذي يسبق موجة من البكاء أو يمهّد للاستجداء إذ يبدو أن روى قد عرف من تفاعله مع أخته أنه لن يكسب المعركة بالنقاش أو التوسل . والأجدي له أن يتصرف معها بهدوء دون تدخل من أحد . ولم تكن لولا غاضبة خلال المناقشة . كانت تريد أن تكون حازمة باعتبارها مسئولة عن ملابسه . ولم يبد عليها الاضطراب إلا حين رأته يضع الطنبجة حول وسطه . ويبدو أنها كانت على استعداد للتنازل عن إصرارها فقالت : « هل تلعبون بالبنادق في المدرسة أثناء الفسحة ؟ » .

فرد عليها بثبات « نعم » .

حضر في هذا الوقت أخوه فرنون (١٢ سنة) . وكان قد سمع هذا الحوار فقال معارضاً « أنتم لا تلعبون بالبنادق في المدرسة » . ويبدو أن لولا كانت مستعدة للتنازل عن رأيها ، فحاولت تسوية الأمر مع أخيها فقالت « هل سيكون الجو دافئاً اليوم ؟ » وهذا وضع حداً للجدال . ثم استطردت قائلة « سأغسل لك وجهك » وتقدمت نحو الحمام متوقعة من روى أن يتبعها .

يوضح لنا هذا الاقتباس ما يلي :

١ - اعتماد روى على نفسه في ارتداء ملابسه . غير أنه لم يصل بعد إلى الاستقلال التام « فأخته تشرف عليه وتساعد في بعض العمليات كغسل الوجه وملاحظة حسن هندامه .

٢ - مباهاة روى بوجود الطنبجة تحت الوسادة ، ورغبته في أخذها معه إلى المدرسة ليلعب بها . ومن المحتمل أيضاً ليتباهى بها أمام زملائه .

- ٣ — الشرف الذى يجده روى فى حمله بندقية . البندقية تتطلب رجلاً وهو يسعى إلى تأكيد ذاته ودوره كرجل يحملها .
- ٤ — وتتطلب البندقية اللعب العنيف ، وروى مستعد للعنف فى اللعب .
- ٥ — لإصرار روى على رأيه أمام رأى الكبار وانتصاره عليهم .
- ٦ — أسلوب روى مع الكبار لم يكن الجدل أو النقاش ولكن الهدوء . وربما ذلك بحكم خبرته فى تفاعله مع أخته .
- ٧ — لم يكن لدى روى أى مانع للكذب فى سبيل تنفيذ رغبته . فقال أنهم يلعبون بالبنادق فى القسحة « وكذبه أخوه . وهكذا كان روى مستعداً لعدم الطاعة فى سبيل تحقيق رغباته .
- ٨ — غير أنه كان مستعداً للطاعة فى أمور أخرى يراها الكبار صواباً ، فترك أخته تصاح له من ياقة قبضه ومن نهاية سرواله .

خصائص هذه المرحلة عند جيزل

ست سنوات

- متردد وعاجز عن التمييز أحياناً .
- عنيد ومعارض ومتمركز حول ذاته ويجب أن يكون الأول والمفضل دائماً .
- انفعالات عنيفة وانفجارية أحياناً وأحياناً أخرى لطيف حلو العشرة وحساس ورفيق .
- متدفع ومشاكس وكأنه فى حرب مع نفسه ومع العالم الخارجى .
- تكثر لديه الأحلام المفزعة (الكابوس) التى يرى فيها الحيوانات المفترسة والرعد والبرق والنار . إلخ .
- يتكيف للملئ — عالم العزلة المنزل وعالم المدرسة .
- تحدث تغيرات جسمانية ونفسية هامة فى هذا السن .
- تغير أسنان اللبن .
- تغيرات كيميائية تؤدى إلى الحساسية للأمراض المعدية .
- أمراض الأنف والحنك متكررة .
- تؤدى التغيرات فى التأثير على ميكانزمات الأبصار وكل الجهاز العصبى الحركى .

- ٢١٤ -

- انتدبذ السلوك والانفعالات .
- ضعف العلاقات بالآخرين .
- سلوك نمطى يمكن التنبؤ به .
- محدد وتفصيل .
- الاهتمام بالجنس .

صبع سنوات

- انطوائى « مستغرق ، متفتح » ينسحب من المواقف الصعبة ، حياة داخلية حية « قادر على استبطان الخبرة .
- يحيد الاستماع ويحب أن تقرأ عليه القصص ولا يمل تكرارها .
- حزين « كثير الشكوى » غير سعيد « مريض » متجهم ، متأمل .
- لا يتمتع بالروح الرياضية فى اللعب ، إذ لا يحب الحسارة .
- يرى اللوم على غيره « ويميل إلى المبالغة التى يراها البعض كذباً .
- توترات داخلية « وربما كان فى حالة توازن مع العالم ولكنه غير متوازن مع نفسه .
- الارتباط بالأشخاص والاهتمام بهم ، وزيادة الحساسية لسلوك الآخرين وإقامته الاعتبار لذلك .
- لا يمل التكرار .
- موجات من النشاط والسخف وموجات من التمثل والحدوء .
- ينجذب من رؤيته وهو يبكى .
- يحب لأن يكون له أح طفل أو أخت طفلة .
- قدرة على النقد الجديدة والتمييز بين ما هو حسن ردىء فى نفسه وفى زملائه .
- يتميز سن التطرفات .
- متمركز حول ذاته .
- الاهتمام بالسحر وما وراء الطبيعة .

ثمان سنوات

- مبسط أى ينتمى إلى الخارج « له قدرة على التفكير فى أبعاد الزمان والمكان .
- إيجابي يتفاعل مع بيئته الخارجية بما فى الكبار .
- له قدرة على التقييم إذ يقدر ما سوف يحدث له وما يمكن أن يقوم به وما يؤدى ذلك إليه .

- منطلق ويعمل أى شيء بسرعة .
- يتم بالألعاب الخشنة ولا يحب الحساسة .
- يحب المباهاة والمفاخرة .
- يبدأ الجنسان في الافتراق عن بعضهما البعض في هذه السن .
- حسان للتقد وقد ييكي بسرعة .
- يتطلب اهتمام الأم .
- غير صبور انفعاليا « ملحوح ، أناني .
- يتم بملكاته الخاصة وبالتقود والمساومات التجارية .
- يتم بالكبار ويستريح معهم .
- يبدأ في رؤية نفسه كفرد .
- يبدأ في تقدير النتائج وأسبابها .

خصائصها عند جنكيز

- وتسمى هذه المرحلة بسنوات الدراسة الأولى وتحدد خصائصها فيما يلي :
- أحسن تعلم للطفل يتم عن طريق المشاركة والنشاط والمواقف المحسوسة « ويكون التفكير المهرج في مستوى منخفض في هذه المرحلة .
- يجد متعة في الأغاني « والايقاع والقصص الخيالية والخرافية ، والطبيعة « والقصص الحقيقية ، والكاريكاتور « والراديو ، والتلفزيون « والسينما « وفي نهاية هذه المرحلة يبدأ في جمع الأشياء ويحب قصص المغامرات .
- استمرار النمو من الاعتماد على الغير إلى الاستقلال .
- يتمكن من تحمل بعض المسؤولية ولكن غالباً ما ينسى ، إذ مازال في حاجة إلى إشراف الكبار .
- يتعلم كيف يسهم في وضع خطة مع جماعة ويتعاون مع أفراد المجموعة .
- يبدأ في وضع قواعد اللعب ويطبقها مطالباً بدوره وحفظ حقه كما يبدأ في حب التنافس .
- يفهم قواعد الأمن غير أنه قد ينسى ويخاطر .
- يعبر عن شموه نحو الكبار « ويكره أن تعطى له الأوامر .
- تزداد القدرة والدقة .
- يتم بالماضي بدلاً من الحاضر والمستقبل .
- يرغب في تعذيب الكبار .

- ٢١٦ -

يلعب الأطفال والبنات سوياً غير أن الاختلاف في نوع اللعب يبدأ في الظهور .
يتم بالنشاط لذاته بصرف النظر عن نتائجه .
تلقائي في التشيل ومستعد لأخذ أدوار في التمثيلات القصيرة في الفصل .
يبدأ في الاهتمام برأى الأصدقاء فيه .
قادر على تقويم نفسه ومتشوق لأن يجيد .
زيادة فهم الزمن واستخدام النقود .
يتم بما هو خطأ وما هو صواب .
متله بالنشاط ولكن يتعب بسرعة « كثيراً ما يرى حالماً وسارحاً » .

أما هافجهرست فقد حدد العمليات الارتقائية للمرحلة من ٦ - ١٢ كفترة واحدة ، لذلك سترجيء سرد هذه العمليات بعد عرض خصائص الفترة من ٩ إلى ١٢ .

مميزات الفترة من ٩ إلى ١٢ سنة

هناك اتجاه بين علماء النفس حالياً ينحو نحو تضمين هذه الفترة من النمو في مرحلة المراهقة . لأن التغيرات التي تتم فيها تعتبر تمهيداً للمراهقة فعلاً .
حقاً تستمر عمليات النمو التي بدأت في المرحلة السابقة في النضج في هذه الفترة غير أن مظاهر جديدة للنمو تبدأ في الظهور أيضاً ، ولا يخفى على معلمة المدرسة الابتدائية ما نلاحظه من فروق جثمانية بين تلاميذ السنوات النهائية في المرحلة الابتدائية . وقد لاحظ العلماء أن شباب اليوم يصل إلى مرحلة المراهقة مبكراً عن شباب الماضي . أى أن هناك نزعة نحو النضج الجنسي السريع . وتبين الدراسات الولايات المتحدة أن هذا يتم في النصف الأول من السنة الثالثة عشرة من العمر تقريباً .

ويمكن ملاحظة أعراض هذه العمليات في السنوات النهائية من مرحلة التعليم الابتدائي كما ذكرنا .

النمو الجسماني :

يلاحظ على الأطفال في هذه المرحلة توقف مؤقت في عملية النمو الجسماني يتبعها قفزة فجائية في النمو في الطول . كما قد يلاحظ سمّة بعض الأطفال قبل

هذه الوثبة في النمو . ولما كانت البنات أسرع من البنين في النضج الجنسي فإننا نجد الصبيان يبطئون في النمو في الطول في الوقت الذي تزداد فيه سرعة نمو البنات . لذا نجد اختلافاً كبيراً بين البنات والبنين في حجم الجسم في سن الحادية عشرة تقريباً .

وتزداد المهارة اليدوية في هذه السن إذ يسمح ما بلغتته العضلات الدقيقة من نضج للأطفال بالاندماج في نشاط يتطلب استعمال هذه العضلات . وقضاء وقت طويل فيها . إذ يقبل الصبيان على الأعمال اليدوية كالنجارة والحداة ، وتقبل الفتيات على أشغال التريكو والإبرة والحياكة .

ويكون الأولاد حساسين في هذه السن لما قد يحسون به من نقص في مثل هذه المهارات .

وتزداد كذلك طاقة النشاط في هذه المرحلة . غير أن الأطفال يملون هنا إلى تفريغ شحنات نشاطهم في أعمال هادقة موجهة . وتسمح لهم طاقاتهم بالاستمرار في العمل مدة طويلة دون كلل أو ملل .

النمو العقلي :

يستمر الأطفال في هذه السن في الميل إلى اكتشاف البيئة المحيطة بهم . وتكون نظرهم نظرة نفعية . ويستمرون في الاعتماد على حواسهم وخبرتهم العملية . لذلك ينصح علماء التربية بأن تنصب المناهج الدراسية على محاولة دراسة البيئة لاستغلال الاستعداد الطبيعي للطفل في هذه المرحلة .

وتبدأ ميول الأطفال في التفتح والتعبير عن نفسها في هذه السن . إذ يبدأون في جمع طوابع البريد والنقود والحشرات وكل ما يستهويهم في بيئتهم . كما يبدأون في الحديث عن مستقبلهم وأمانهم في الحياة من ناحية الحرف ، والمهن التي يردون الاتجاه إليها .

وتتميز هذه المرحلة من العمر بالقدرة على الابتكار . ويساعد اكتساب اللغة كثيراً من الأطفال على محاولة كتابة الشع والرجل والنثر والقصص .

كما قد تظهر مواهب بعض الأطفال في الرسم والنحت والتجميل وغيرها من الفنون . ويساعدهم على ذلك صبرهم وقدرتهم على بذل النشاط .

النمو الاجتماعي :

تسمى هذه السن بسن العصابات . وذلك لانخراط الأطفال مع بعضهم في جماعات تصبح معاييرها لدى الطفل أهم من معايير الأسر . ويصبح أثر هذه الجماعات على الطفل كثيراً من حيث تحديد اتجاهاته وآماله وأوجه نشاطه ، وبهمه في هذه الحالة إرضاء رأى الجماعة واعتبارها له .

ولا شك أن الانخراط في جماعة الأطفال من نفس السن خطوة نحو التحرر من الأسرة والاستقلال . لذا قد تجد الصبي يجاهر بنقد والديه ونقد سلطتهما عليه . غير أنه لا يصل إلى حد الخروج على إرادة الأسرة وإرادة الكبار . فقد يقوم الطفل في هذه السن بعمل شاق يتطلب مجهوداً ووقتاً مع عدم ميله لهذا العمل مجرد إرضاء الكبار والاستحواذ على إعجابهم .

وقد لوحظ أن الصبيان في هذه السن لا يميلون إلى البنات ويتعصبون للصبيان من جنسهم . كما تلتفت الفتيات حول بعضهن ويتعصبن لجنسهن . وتعادى كل فئة الأخرى . ويغيظون بعضهم بعضاً فلا يسمح الأولاد للبنات باللعب معهم ولا تسمح لهم البنات بذلك بالمثل . وأقصى سبة تلحق بالولد أن يقال له أنه بنت أو أنه مخنث .

ويحيط الأطفال في هذه السن أعمالهم بالسرية ، ولا يحاولون اطلاع الكبار عليها لشعورهم بالعداء نحو الكبار . ولا يعنى هذا عدم حاجة الطفل لهم للشعور باعتماده على الكبار من وقت لآخر .

قام جيرزلد ومعاونوه بدراسة راسعة لمخاوف الأطفال وخاصة الأطفال في مرحلة التعليم الابتدائي . وكانت الطرق التي اتبعت في جمع المعلومات تشمل سؤال الأمهات والمعلمات والممرضات بتسجيل ما يلاحظنه من مخاوف الأطفال في المنزل وفي غيره من المواقف ، كذا سؤال ٢٠٠ تلميذ من تلاميذ

المدارس الابتدائية عن مخاوفهم ، وسؤال ٢٠٠ من الكبار عن مخاوف طفولتهم . كما شملت الدراسة تتبع عدد من الأطفال وإجراء التجارب والدراسات على الطرق التي يمكن بها التغلب على الخوف .

وقد بينت هذه الدراسات أن ما يستثير خوف الأطفال في السنة الأولى هو الأصوات العالية ، والحوادث الغريبة ، والحركات الفجائية السريعة غير المتوقعة ، والصلدمات المؤلمة ، والحوادث المرتبطة بالألم كالسقوط أو الخوف من السقوط . وتسبب هذه العوامل حوالى ٩٠ ٪ من كل مخاوف الأطفال في السنة الأولى .

وهكذا يبدو أن ما يستثير الخوف عبارة عن مشيرات ملموسة في بيئة الطفل . وكلما تقدم الطفل في العمر كلما زادت قدرته على التمييز والإدراك ، وتكتسب الأشياء معانى عنده لم تكن موجودة من قبل . ويبدأ الطفل حوالى السنة الثانية من العمر في تكوين عالم خيالى لنفسه . إذ يتمكن من أن يتخيل . كما تراوده الأحلام فتتسع بذلك دائرة مخاوفه تدريجياً وخاصة بين الثالثة والخامسة من عمره . فيكون لديه الاستعدادات للخوف من الأصوات العالية ، والأحداث الفجائية ، والأحداث الملموسة . ويزداد خوفه من الحوادث التي قد تقع له في المستقبل على الرغم من انعدام الخطر أو التهديد بالخطر منها . كما يزداد خوفه من الظلام ، وخوفه من أن يترك وحده . كما يخاف من أخطار وهمية كالذئاب والعفاريت والأمور التي تتعلق بالموت .

ومخاف الأطفال في سن الخامسة وما بعدها بالتدريج من الفشل ، أو للسخرية أو فقدان السمعة أو المركز ، ومن الأحداث التي تهدد أمنهم في المستقبل . ومخاف الأطفال في هذه السن من الأجانب والأغراب .

وفي المرحلة الابتدائية تستمر المخاوف السابقة . إذ يخاف التلميذ في هذه المرحلة من كثير من الأخطار المباشرة والمحتملة ، غير أن هذه المخاوف لا تكون إلا جزءاً من مخاوفه . وتدور حول أخطار وهمية بعيدة كأخطار الحيوانات المتوحشة ، والعفاريت . أو الخوف من ركوب البواخر خشية الغرق .

وقد أكدت المعلومات التي حصل عليها الباحثون من الكبار عن مخاوفهم في الطفولة النتائج السابقة . وأكدت أن مثل هذه المخاوف قد تستمر مع البعض حتى البلوغ .

ويكون التغلب على مخاوف الأطفال بكف الكبار عن استغلال التخويف في معاملتهم « وبإقناع الأطفال بأنه لا أساس لمثل هذه المخاوف . وإن كان الاقتناع اللغوي ليس بالطريقة المحببة « لذا يستحسن الإقناع بالدليل العلمي . وقد أثبتت التجارب أن أحسن وسيلة لإزالة المخاوف هي العمل على قيام الطفل بمواجهة الشيء الذي يخيفه بالاقتراب منه تدريجياً . ومما يساعد على التغلب عليها أيضاً تكوين المهارات الحسبانية التي تعطى الطفل ثقة في نفسه وفي قدرته على مواجهة ما يقابله من أخطار .

مشاكل هذه المرحلة كما يراها المعلمون :

قام ويكمان Wickman يبحث على تلاميذ المدارس الابتدائية « سأل فيه المعلمات هذه الأسئلة :

ماذا يميز الطفل المشكل عن غيره من التلاميذ ؟ وكيف نقرر ما إذا كان التلميذ متكيفاً تكيفاً سليماً من عدمه ؟ وما هو السلوك الذي لا يمكن قبوله من أى طفل ؟ وإلى أى حد يمكن اعتبار سوء السلوك أمراً عادياً بين الأطفال .

وكانت الإجابة على هذه الأسئلة هي موضوع الدراسة . وكان الهدف من الدراسة في بداية الأمر هو بيان مدى المشاكل السلوكية الموجودة بين تلاميذ المدارس الابتدائية . وكانت طريقة البحث تنقسم إلى ثلاث مراحل . ففي المرحلة الأولى كان على المدرسات وضع قائمة تحتوي على كل أنواع السلوك المشكل الذي صادفته أثناء خبرتهن في التدريس . وفي المرحلة الثانية تستغل المدرسات القوائم التي أعدها ويحاولن بيان العدد الذي يقترفه كل تلميذ منها ، ثم يقمن بتقويم سلوك كل تلميذ من ناحية مدى تكيفه . ثم ظهر أثناء البحث أمر غير متوقع ، إذ تبين أن ما يشغل بال المدرسات من مشاكل الأطفال هو نوع واحد من المشاكل مع الإهمال التام لغير ذلك من مشاكل الشخصية والسلوك « مما أدى بالباحث إلى أن يقوم بخطوة رابعة في بحثه إذ

طالب المدرسات بتقويم المشاكل حسب خطورتها مقارنة بتقويمهن بتقويم عدد من رجال الصحة العقلية لها . وفيما يلي نتائج هذه الدراسات :

١ - المشاكل التي صادفتها المعلمات في التدريس :

لقد قدمت المعلمات قوائم طويلة تشمل المشاكل التي صادفتها في التدريس غير أنه تبين فيها أنهن يعطين أهمية كبرى لمشاكل السلوك التي تتناقض مع معاييرهن الأخلاقية وضرورة طاعة الأطفال لهن « وحفظ السلوك » والقيام بالواجبات المدرسية والسلوك الاجتماعي السليم - واختلفت المعلمات فيما بينهن في نوع المشاكل التي يعطين لها أهمية كبرى - غير أنهن يشتركن جميعاً في اعتبار العند وعدم النظام « وعدم تحمل المسؤولية » وعدم الأمانة ، وعدم الطاعة أهم المشاكل .

٢ - تقارير المعلمات عن سلوك كل تلميذ :

لقد بينت المعلمات أن حوالي ٦٠٪ من تلاميذهن لا ينتبهون في الفصل . وأن مايزيد على ٤٠٪ منهم يملكون في أداء واجباتهم كما شكون بأن هناك طفلاً من بين كل ثلاثة أطفال لا يظهر اهتماماً بالمدرسة . كما ذكرن أن حوالي ٣٠٪ من تلاميذهن لديهم نشاط زائد عن الحد وغير مستقرين ولا يمكنهم العمل بهدوء .

وتبين هذه النتائج بوضوح عدم رضا المعلمات عن نسبة كبيرة من تلاميذهن في المدرسة ، وقد يؤثر مثل هذا الاتجاه على التلاميذ مادامت المعلمات يحاولن دائماً إكراه التلاميذ على تحقيق مايرغبنه لهم .

وعلى الرغم من أن المعلمات وقد وجدن الحرج ، والحساسية الزائدة « وأحلام اليقظة من بين المشاكل الموجودة لدى التلاميذ غير أن البحث بين بعد ذلك أنهن لا يعطين هذه المشاكل نفس الأهمية التي يعطينها لمشاكل أخرى فعدم الأمانة مثلاً كان عندهن أهم من المشاكل الانفعالية أو العصبانية . ولما طلب منهن تحديد مدى خطورة المشاكل في بعض تلاميذهن تبين أنه لا يوجد غير مدرسة واحدة في إحدى المدارس تولى المشاكل الانفعالية لأحد التلاميذ اهتمامها .

وقد بينت تقارير المدرسات عموماً أن المشاكل التي تجذب انتباههن هي المشاكل التي تتعلق بالحياة المدرسية مثل الخروج على نظام الفصل ، وعدم القيام بالواجبات المدرسية ■ بينما كانت مشاكل الشخصية عندهن أمراً ثانوياً .

٣ - مقارنة رأى المدرسات ورأى علماء الصحة العقلية في هذه المشاكل :

قورن تقويم المدرسات لدى خطورة المشاكل بتقويم رجال الصحة العقلية لها ، وكانت أهم الاختلافات بين هاتين الفئتين في تقويم مشاكل السلوك التي تتعلق بالانزواء والخنوع . فبينما اعتبرت المدرسات الحجل والحساسيه والانطواء الاجتماعي والخوف وأحلام اليقظة أقل هذه المشاكل خطورة ، اعتبرها علماء الصحة العقلية بالاضافة إلى التعاسة والانقباض واليأس السريع والجبن وسهولة الإيحاء والنقد الزائد عن الحد في قمة المشاكل في خطورتها . هذا بينما اعتبرت المدرسات المشاكل الجنسية وعدم الأمانة وعدم الطاعة من أخطر المشاكل . ووضع علماء الصحة العقلية تحدى السلطة والبذاءة وعدم الطاعة والإهمال في ذيل قائمة المشاكل ، بينما وضعتها المدرسات في القمة . أما الهرب وعدم الأمانة التي تعتبر مشاكل خطيرة في المدرسة ، فقد اعتبرها علماء الصحة العقلية متوسطة الخطورة .

وخلاصة القول أن المدرسات في المدرسة ينظرن إلى مشاكل التلاميذ من وجهة نظر خاصة تكونها معايير الطبقة الوسطى التي يحاولن تدريب التلاميذ عليها بينما يهملن مشاكل الشخصية الانفعالية التي قد تكون أكثر ضرراً بصحة التلميذ العقلية من مجرد خروجه على النظام وعدم الطاعة ■

خصائص هذه المرحلة عند جيزل

تسع سنوات

- كثير النقد لذاته والآخريين مع الافتقار إلى الثقة في النفس .
- الاهتمام بالنفس ومديح الذات ، كثير الانشغال باهتماماته « قلق وخائف على كل من نفسه وصحته .
- مقلب المزاج بين الجبن والشجاعة والمرح والاكتئاب .
- حساس وكثير الشكوى .
- تكون الفروق الفردية في هذه السن أكثر وضوحا .
- يقاوم إشراف الكبار مع سعيه إلى ملذتهم .
- يحمل البنون الاعتناء بالظهور .
- عادل في أحكامه ومعقول في مطالبه وتوقعاته ، ويتقبل التوبيخ .
- قادر على التحكم في نفسه .
- صادق وأمين ويمكن الاعتماد عليه ويحمل المسؤولية .
- متوافق مع أصدقائه ويقيم صداقات عميقة ودائمة .
- يجب التنافس الجماعي لا الفردي .
- ينفر من الجنس الآخر .
- يتم بالجنس من الناحية الفسيولوجية والتشريحية .

١٠ سنوات

- مفرم بالمنزل وعنده ولاء نحوه إذ يصبح صديقاً لأبيه وأمه ويشارك في نشاط الأسرة . يحب الحفاظ
- واستيعاب الحقائق « وقليل النزعة للربط بين الحقائق أو تعميمها مع توسيع الميول والاهتمامات .
- مفرم بالأصدقاء وإقامة الصداقات .
- يسهل التعامل معه مع وجود انفجارات غضبية أحياناً .
- أفكاره واقعية وكذلك اتجاهاته فيما يتعلق بالزمان والمكان والموت . ويميز بين ما هو خطأ
- وما هو صواب .
- مدى الانتباه قصير وينتقل انتباهه من شيء لآخر .
- يرغب في الكلام والمشاهدة والقراءة والاستماع أكثر من رغبته في العمل .
- يحيد متعة في النشاط الجسماني .

— ٢٢٤ —

يشعر بالراحة كلما كان قريباً من المنزل .
 آراؤه حرة .
 ويتميز الصبيان بالاندماج في الجماعات الرسمية أو غير الرسمية والعصابات الصغيرة .
 عدم الاهتمام بالبنات .
 بينما تتميز البنات بالاندماج في الجماعات الصغيرة « ووجود صديقة واحدة حميمة » وعدم
 الاهتمام بالصبيان .

١١ سنة

حب الحركة .
 الانطلاق والرغبة في مقابلة الغير من سنه والتنافس معهم .
 حب للاستطلاع دائماً ومعرفة الكثير عن الكبار والعلاقات المتبادلة .
 لا يحب العزلة .
 علامات ابتداء المراهقة ، عدم الاستقرار ، الثروة ، الأسئلة الاستطلاعية الكثيرة .
 دائماً جائع .
 يحب الجدل والسلبية .
 متطرف في آرائه الإيجابية والسلبية .
 يحاول تأكيد ذاته دون إدراك بأنه أصبح صعباً وجافاً .
 متقلب المزاج مع التطرف في حالاته الانفعالية .
 يتعب بسرعة .
 سلوكه الاجتماعي حسن بعيداً عن المنزل .
 التكيف للمدرسة أسهل من تكيفه للمنزل .
 تعلق زائد بالمنزل والولاء للأسرة ومع ذلك فهو كثير النقد للأباء .
 أكثر اعتماداً على نفسه من طفل من العاشرة إذ يجب أن يتخذ بعض قراراته بنفسه .
 تبدأ الشخصية في أن تحدد معالمها .
 ويتميز الصبيان بأنهم يتدججون في جماعات قد يفلت قيادها إذا لم يوجد الإشراف .
 عدم الاهتمام بالبنات وعدم اللعب معهن .
 أما البنات فيتدجن في جماعات للنقاش وتدبير المؤامرات ولا يحببن الصبيان .

- ٢٢٥ -

١٢ سنة

- فترة تشجع على تكامل الشخصية .
- أقل عنده من سن الحادية عشرة « وأكثر معقولة ، وأكثر ضبطاً للنفس .
- كثير النقد للذات ، ويمكنه النظر إلى نفسه وإلى الكبار بطريقة موضوعية .
- ازدياد روح الفكاهة والاجتماعية .
- إيجابي ، منطقي ، متحمس ، يبدو لديه الابتكار .
- نشط ، عنده احتمال للآخرين « وتماطف مهم .
- يهم برعاية إخوته الأصغر منه .
- التذبذب بين سلوك الطفولة وسلوك البالغين .
- أثر الأصدقاء يصبح قوياً في بلورة اتجاهاته .
- يجب أن يتعلم « إذ تزداد القدرة على العمل المستقل .
- يبدأ تكوين المفاهيم وفي التجريد والاهتمام بالعدالة والقانون والولاء .
- تكون الحاسة الخلقية وأتمية وليست مثالية .
- يبدأ في الاهتمام بمستقبله .

خصائص هذه المرحلة عند جنكز

تقسم جنكز الفترة من سن ٨ إلى ١٣ سنة إلى مرحلتين ، تسمى المرحلة الأولى منهما السنوات المدرسية المتوسطة وتسمى المرحلة الثانية بمرحلة ما قبل البلوغ ، وتشمل الأولى السنتين الثامنة والتاسعة بينما تشمل الثانية السنوات من ١٠ - ١٣ وإليك خصائص هاتين المرحلتين عند جنكز .



(م ١٥ - الطفولة والمراهقة)

— ٢٢٦ —

السنوات المدرسية المتوسطة

٨ - ٩

ازدياد القدرة على تحمل المسئولية .
 يمكن الاعتماد عليه لازدياد معرفته لما هو صواب وما هو خطأ .
 اتساع الفروق الفردية . والفروق الواضحة في القدرات والميول بين الأطفال .
 قادر على أن يكون له اهتمامات يطول تعلقه بها .
 ويتسكن من وضع خطط يحتاج تنفيذها لوقت طويل .
 تتكون المصائب في هذه السن . وهي غالباً من جنس واحد ، وهي مادة قصيرة المدى ويتغير أعضاؤها باستمرار .
 يفتي الكمال غير أنه يفقد الاهتمام بسرعة إذا لم يشجع .
 يهتم بالقصص العلمية والقصص عن المغامرات والعالم المحيط به .
 الولاء للوطن والشعور بالفخر به .
 إعطاء كثير من الوقت للمناقشات ونقد الكبار والتعبير عن رأيه فيهم بصراحة ، على الرغم من استمرار حاجته لتعظيم الكبار .
 ويحاول تحقيق العدالة في اللعب والنسك بالقواعد وتحطم كثير من الصداقات لاختلاف الأطفال في درجات النضج وتغيير الاهتمامات
 اختلاف البنين والبنات في الاهتمامات مع وجود بعض المواءمة بين الجنسين .
 زيادة النشاط والإهمال ، وقد يتعرض الطفل لذلك إلى بعض الحوادث .
 تعلم التعاون ، ويأخذ دوراً إيجابياً في وضع الخطط في جماعة .
 ومع ذلك غير مستعد تماماً للتنازل عن حقوقه ورغباته .

سنوات ما قبل البلوغ

١٠ - ١٣

يسمى لاكتساب تعظيم الزملاء وتقبلهم له .
 استمرار المصائب ، غير أن الولاء للمصائب ، يكون أكبر من الصبيان .
 يبدأ من فضجوا جنسياً في الاهتمام بالجنس الآخر .
 الاهتمام بالألعاب الجماعية ■ والألعاب خارج المنزل .

رأى الأصدقاء يكون أهم من رأى أفراد الأسرة .
يبدأ الإحساس بالتغيرات الجسدية .
يمكنه التعاون مع الغير مع الاهتمام بالعدالة ويتمسك بالقواعد .

العمليات الارتقائية في هذه المرحلة (هافجهرست)

- لم يقم هافجهرست المرحلة من ٦ إلى سن ١٢ إلى ثلاث مراحل كما فعلت جنكفر . واعتبرت هذه المرحلة وحدة واحدة وإليك أهم العمليات الارتقائية التي تتميز بها :
- ١ - تعلم المهارات الجسدية الضرورية للألعاب العادية المختلفة .
- تتضمن العمليات الرمي ، والمسك والرقص ، والعلوم ، واستخدام الأدوات البسيطة .
- ٢ - تكوين اتجاهات سليمة نحو الذات .
- إذ يتعلم العناية بجسمه ونظافته وتجنب المخاطر ، وتكوين اتجاه سليم نحو الجنس الآخر .
- ٣ - تعلم معاملة الزملاء والانسجام معهم .
- إذ يتعلم الأخذ والعطاء في الحياة الاجتماعية مع الزملاء ويتم كيف يكون الصداقات ويسلم بالسلوك الاجتماعي .
- ٤ - تعلم الدور المناسب له إذ يتعلم الولد دوره كولد وتعلم البنت دورها كبنت .
- - تعلم المهارات الأساسية كالكتابة والقراءة والحساب .
- ٦ - تكوين المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .
- إذ يكون حصيلة من المفاهيم للتفكير السليم عن الأمور المهنية والمدنية والاجتماعية .
- ٧ - تكوين حاسة الضمير والأخلاقيات والقيم .
- إذ تكون لديه القدرة على ضبط الداخل ، واحترام القواعد الخلقية .
- ٨ - التوصل إلى الاستقلال الذاتي .
- ٩ - تكوين اتجاهات نحو الجماعات والنظم السائدة .



ملخص

تبدأ مرحلة الطفولة المتأخرة من حوالى ٦ سنوات وتنتهى فى السنة الثانية عشرة من العمر تقريباً . وتنقسم هذه المرحلة بدورها إلى فترتين : الفترة الأولى من سن ٦ إلى ٨ سنوات ، والفترة من ٩ إلى ١٣ سنة .

ويتميز الطفل فى الفترة الأولى بالنشاط الجسمانى الزائد وللسيطرة العامة على عضلاته الكبيرة . ويبدأ بالتدرج فى السيطرة على عضلاته الصغيرة . وينمو عقليا وينصرف إلى محاولة اكتشاف البيئة حوله . وتبدأ فكرته عن نفسه فى التبلور . كما يبدأ فى مراعاة حقوق الغير . ويميل إلى اللعب العنيف مع الزملاء . ويبدأ فى الاستقلال عن المنزل .

وتستمر مظاهر النمو السابقة فى النضج والاكتمال فى المرحلة الثانية . إذ يتم للطفل السيطرة على عضلاته الدقيقة . ويميل إلى أوجه النشاط التى يستغل فيها هذه العضلات . فيميل إلى المهارات اليدوية . وتتكشف الميول فى هذه الفترة من العمر . ويميل البنون إلى الانخراط فى جماعات تنتظر شذراً إلى مجموعات البنات وتباعد عنها .

وتعتبر هذه المرحلة تمهيداً لمرحلة المراهقة التى تليها . لذا يقف فيها النمو فترة ثم تبدو قفزة سريعة فى النمو تصحبها تغيرات فسيولوجية . وتسبق البنت الولد فى النمو . لذا نلاحظ زيادة الفروق بين الجنسين فى نهاية هذه المرحلة . كما نلاحظ زيادة الفروق الفردية .

ويجد الأطفال مشاكل فى المدرسة فى هذه السن نظراً لخروجهم إلى المجتمع الأكبر لأول مرة . وتحاول المدرسة فى العادة الحكم على التلاميذ بمعايير الطبقة المتوسطة ، مما يجعل المعلمين ينظرون إلى مشاكل الطاعة والنظام والقيام بالواجبات المدرسية على أنها أهم مشاكل هذه المدرسة . متجاهلين المشاكل الشخصية والانفعالية التى قد يعانى منها التلميذ .

الفصل الثالث عشر

المراهقة والشباب

تحديد فترتي المراهقة والشباب :

يجد العلماء صعوبة في تحديد نهاية وبداية لكل من هاتين الفترتين لأن التغيرات التي تحدث فيهما تتم في مدة تتراوح ما بين تسع سنوات وعشر . ويختلف الأطفال فيما بينهم في السن التي يبدأون فيها في الدخول في مرحلة المراهقة . كما يختلف البنون عن البنات إذ تسبق البنات البنين بسنة أو اثنتين .

وتبدأ التغيرات المهمة لبلوغ الحلم في السنوات الأخيرة من الطفولة المتأخرة وتستمر هذه التغيرات بسرعة متفاوتة حتى حوالي سن العشرين أو ما بعد العشرين ، لذا يستحسن تقسيم هذه الفترة من سن العاشرة إلى سن الثلاثين ، إلى ثلاث فترات .

١ - فترة ما قبل الحلم : وتبدأ من حوالي سن ٩ سنوات أو عشر . ويلاحظ فيها أن الطفل بعد أن يكون نموه قد وصل إلى مرحلة من الثبات والجمود يبدأ في الزيادة خاصة في الطول والوزن مما يفرقه عن بقية أقرانه ، ثم يتوقف نموه . وأثناء هذا التوقف قد يزداد بعض الأطفال في الوزن زيادة ملحوظة . ومعنى هذه الزيادة أنه أصبح على استعداد للمرور بالتغيرات السريعة المقبلة . إذ تبدو سرعة النمو بعد ذلك عنده في القفز . فينمو بسرعة عجيبة مما يؤدي إلى زيادة الطول وظهور ما نسميه بالأعراض الجنسية الثانوية أي نمو شعر العارضين وفوق الشفة عند الولد . وخشونة الصوت ، وبروز الثديين واستدارة الأليتين والفخذين عند الفتاة . وبالتالي بلوغ الولد الحلم وبلوغ الفتاة الحيض أي نمو الأعضاء الجنسية نمواً يمكنها من القيام بوظيفتها .

٢ - فترة ما بعد الحلم أو الفتوة أو فترة الشباب : ويستمر النمو في

هذه الفترة ولكن بسرعة أبطأ من سرعته في المرحلة السابقة وتمتد من بداية الحلم حتى سن الواحدة والعشرين .

٣ - فترة الرشد وتمتد من سن الواحدة والعشرين حتى سن الثلاثين .

ويجدر بنا أن نحدد هنا مفهوم الشباب ، ونفرك بين هذا المفهوم وغيره من المفاهيم التي يختلط على الكتاب استخدامها في تناولهم لمرحلة الشباب . وأول المفاهيم التي يخلط الكتاب في استخدامها هو مفهوم المراهقة .

١٠ فالمرهق كما جاء في المنجد هو الغلام الذي قارب الحلم . وجاء في مختار الصحاح راق الغلام فهو مرهق أى قارب الاحتلام . والكلمة التي تقابل المراهقة في اللغة الإنجليزية هي كلمة Pubescence ، وتطلق على الفترة التي تستغرق من سنة إلى سنتين قبيل الاحتلام ، والتي تليها منحنيات النمو الجسماني في شكل قفزة من قفزات النمو تميزها عن الفترة التي تسبقها وفترة اللاحقة لها . وهي في العادة ما بين سن العاشرة والنصف إلى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . لذلك نرى أن بعض علماء النفس العرب إن لم يكن كلهم ومنهم كاتب هذا المقال أخطأوا حين عمووا استخدام هذا المصطلح ليشمل فترة العمر حتى أوائل العشرينيات والتي يطلق عليها باللغة الإنجليزية adolescence وهذه الكلمة الإنجليزية مشتقة من الفعل اللاتيني adolescere ومعناها ينمو نحو النضج . ونحن نرى أن أحسن ترجمة لها في اللغة العربية هي لفظة الفتوة .

فالفتوة كما جاء في المنجد من فتى ومثناه فتوان وفتيان والجمع فتيان وفتية وفتوة وفتو وفتى أى الشاب الحدث .

أما الشباب فالفعل شب والجمع شباب وشبان وشبية والمؤنث شابه والجمع شابات وشواثب :- من كان في سن الشباب ، وهو من سن البلوغ إلى الثلاثين تقريباً . ولما كان كتاب الفرنجة يطلقون مصطلح adolescence على الفترة من بداية الحلم حتى أوائل العشرينيات ولا يمتد تعريفهم ليشمل كل مرحلة الشباب حتى الثلاثين تقريباً كما يحددها اللغويون ، نرى تقسيم فترة الشباب إلى مرحلتين . مرحلة الشباب الأولى أو مرحلة الفتوة وتمتد

من بداية الحلم حتى الرشد الذي يحدده القانون المدني بسن الواحدة والعشرين التي فيها يتحمل الفرد مسؤولياته المدنية . والمرحلة الثانية : وهي مرحلة الرشد وتمتد من سن الواحدة والعشرين حتى الثلاثين . وبهذا تطابق مرحلة الفتوة أو مرحلة الشباب الأولى الفترة التي يعنها كتاب الفرنجة بمصطلح adolescence . وتأكيذاً لما ذهبنا إليه نسوق تعريفات الكتاب المختلفين لفترة الفتوة أو فترة الشباب الأولى .

في قاموس المصطلحات النفسية والتحليلية نجد أن English يعطى الاعتبار للنمو الجسدي في تعريفه الفتوة « إذ يعرفها » بأنها المرحلة التي تبدأ من البلوغ الجنسي حتى النضج . فهي مرحلة انتقالية يتحول خلالها الشباب إلى رجل بالغ أو امرأة بالغة » .

وتقول روجرز « أن الفتوة من الناحية البيولوجية تؤرخ من بداية قفزة النمو السابقة للنضج الجنسي . وتستمر حتى يكتمل النمو نسبياً خلال أواخر العشرات أو أوائل العشرينات من العمر » .

أما هيرلوك فتقسم في كتابها Ghild Development مرحلة الفتوة زمنياً إلى فترة ما قبل الفتوة من سن ١٠-١٢ ، والفتوة المبكرة من سن ١٣-١٦ والفتوة المتأخرة من سن ١٧ - ٢١ . أما جودف وتايلور فيعرفان الفتوة بأنها الفترة التي يتم فيها التحول من الطفولة إلى البلوغ « ويرى بيرسون أنها المدة التي تمتد من حوالي سن ١٠،٥ سنة إلى البلوغ » .

ونجد أن التعريف الذي تعطيه هيرلوك في كتاب كارمايل تعريفاً فسيولوجياً نفسياً . إذ تقول « أن بداية الفتوة تحدد من الناحية الفسيولوجية بينها يتحدد استمرارها وتوقفها من الناحية النفسية . إذ يصبح الفرد في بمجرد النضج الجنسي والقدرة على إنتاج النوع . وتنتهي الفتوة سبولوجياً وزمنياً ببلوغ مستوى من النضج مطرد ومتنشر » .

أما ستانلي هول أحد مؤسسي علم نفس الفتوة فيرى أن فترة الفتوة فترة زوبعة وضغوط ، ويقول برنارد « يمكن تعريف الفتوة بفترة بزوغ الاستقلال

والتي تمتد حتى وقت تحمل المسؤولية للقيام بالأدوار المختلفة التي يقوم بها البالغون . وتعرفها روث سترانج « بأنها مرحلة النمو التي تبدأ بالنضج الجنسي حتى الوصول إلى مظاهر النضج للبالغين انفعالياً واجتماعياً وغير ذلك من المظاهر » .

أما إريكسون وهو من المحللين النفسيين المحدثين فيرى أن الفتوة هي فترة عملية البحث عن الذاتية ، ويأخذ فريد نبرج نفس الاتجاه إذ يقول « أن الفتوة عملية تزيد على مجرد النضج الجنسي . فهي في المركز الأول عملية اجتماعية تؤدي إلى تحديد الفرد لذاتيته . وهي نوع من الصراع الجدل مع المجتمع » . أما بلوس فيرى أنها المجموع الكلي لكل محاولات التوافق لمرحلة النضج الجنسي « ومجموع الظروف الجديدة الداخلية والخارجية التي يجابهها الفرد » .

ويعتبر التعريف الذي أعطاه هولنجرهيد في كتاب شباب المتون نموذجاً للتعريف الاجتماعية إذ يقول « من وجهة نظر علم الاجتماع الفتوة هي فترة العمر في حياة الشخص التي يتوقف عندها المجتمع الذي يعيش فيه الفرد عن النظر إليه كطفل ولا يمنحه فيه المركز الكامل الذي يتمتع به الشخص البالغ أو أدواره ووظائفه » وينحو شلوسكي نحوه سوسيولوجياً حين يقول : « إنها فترة نمو إنساني لا يلعب فيها الرجل دور الطفل ولم يلعب بعد رغماً عن ذلك دور البالغ كعضو مكتمل في النظم الاجتماعية » .

من العرض السابق يتبين أن التعاريف وأن أبرزت مظهراً من مظاهر هذه المرحلة طبقاً لاهتمامات الباحث فأعطت الأهمية للتغيرات الفسيولوجية « أو المدى الزمني ، أو الضغوط الاجتماعية » أو التغيرات النفسية ، فتحن نرى أنها فترة تتميز بكل هذا . فهي فترة زمنية في مجرى حياة الفرد تتميز بالتغيرات الجسدية والفسيولوجية التي تتم تحت ضغوط اجتماعية معينة تجعل لهذه المرحلة مظاهرها النفسية المتميزة وتساعد الظروف الثقافية في بعض الثقافات على تمييز هذه المرحلة .

وإذا كان بعض الباحثين يرون أنها مرحلة منفصلة من مراحل العمر مفردة ومتميزة تقع ما بين مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ من ناحية خصائص النمو فيها ومن ناحية المشاكل والصراعات التي تصاحبها فإن البعض يدخل فيها فترة المراهقة السابقة للنضج الجنسي بينما يحددها البعض الآخر بانتهاء المراهقة وبداية النضج الجنسي . غير أننا لا نستطيع الآن الفصل بين مرحلة الفتوة ومرحلة البلوغ . هذا الفصل التعسفي كما أن الدراسات في الثقافات المختلفة قد بينت أن هذه المرحلة لا تتميز بهذا الشكل إلا في ثقافات معينة وبشأن معينة . وهذا يرر لنا اتخاذ تعريف اللغويين العرب واعتبار فترة الشباب فترة تمتد من سن الثالثة عشرة إلى حوالي سن الثلاثين مع جواز تقسيمها إلى مرحلتين فترة سابقة لبلوغ سن الرشد التي يتحمل فيها الفرد في ثقافتنا مسؤوليات الكبار وفترة الرشد حتى الثلاثين . ونقترح تسمية المرحلة الأولى بمرحلة الفتوة أو مرحلة الشباب الأولى وتسمية المرحلة الثانية بمرحلة الرشد أو مرحلة الشباب الثانية مع فصل فترة المراهقة عن الشباب نظراً لما تتميز به من سمات خاصة مهيأة للنضج الجنسي .

التغيرات الجسمية -

ذكرنا فيما سبق النمط الذي يسير فيه النمو في فترة المراهقة من حيث السرعة ويجب أن نؤكد هنا أن السرعة التي يتم بها النمو تسبب مشاكل للفرد نفسه . إذ لم تعد ملابس الطفولة تناسبه ، أي أنه لم يعد طفلاً كما أنه لم يصبح رجلاً بعد . ولعل أقرب المجالات إلى الشخص التي يعرفها في نفسه هي جسمه . إذ يعرف طاقاته وقدراته الجسمية وما يتوقع من جسمه . غير أن التغيرات التي تعترض الشاب في هذه السن تسبب له الانزعاج . إذ يحس بأنه يدخل عالماً جديداً مجهول حدوده ويضطره إلى أن يتخلى عما يعرف والانتقال إلى ما لا يعرف ، مما يؤدي إلى القلق والخوف والصراع النفسي .

ومما يعقد من مشاكل الفتى أن أجهزة جسمه لا تنمو بسرعة واحدة مما يؤدي إلى فقد الكثيرين للتوافق الحركي . ويبدو علم الانسجام في النمو في السرعة التي تنمو بها الذراعان والساقان عن بقية الجسم .

وتظهر الأعراض الجنسية الثانوية التي سبق أن ذكرناها . وقد يصحب ظهور هذه الأعراض مشكلات لبعض الأفراد كخشونة الصوت الزائدة أو النحافة أو السمنة سواء في البنين أو البنات . كذا صغر حجم الثديين أو ضخامتهما في البنات . وتسبب زيادة نمو الشعر في الجسم في بعض البنات مشاكل لمن مما يسبب لمن التعاسة إذ قد يتعدى نمو الشعر المناطق المألوفة ، فينتشر على الوجه وحول حلمتي الثديين وحول البطن ، وترى فارتها أن لا منلوحه من مجابهة الفتاة للواقع إذ لا سبيل إلى علاج مثل هذه الحالة إلا بتنظيف الشعر . ومن المظاهر الملحوظة للنمو في هذه المرحلة ظهور حب الشباب عند البعض .

وتعزى الأعراض الثانوية إلى نشاط الغدد الجنسية ونضجها وعلاقتها بغيرها من الغدد . وقد تكلمنا في الفصل الرابع عن علاقة الغدد النخامية وأثر إفراز الفص الأمامي فيها بالناحية الجنسية . كما تكلمنا عن أثر الغدة الدرقية وجاراتها والغدد فوق الكليتين والغدد الجنسية وهورموناتها .

فالغدة النخامية تؤثر على الغدد التناسلية وتؤدي بها إلى القيام بوظيفتها . كما تتحكم هذه الغدة في النمو وتحدد الطول والوزن . وقد رأينا أن عدم قيام هذه الغدة بوظيفتها قد يؤدي إلى مرض طول العظام أو العكس ، كما قد يؤدي إلى اكتساب البنين مظاهر الجنوثة واكتساب البنات مظاهر الرجولة .

أما الغدة الدرقية فتتحكم في السرعة التي يستهلك بها الجسم الأوكسجين . وقد رأينا كيف تتحكم هذه الغدة في تنظيم الحيض عند النساء .

وتؤثر افرازات القشرة في الغدد فوق الكلوية في الناحية الجنسية أيضاً . إذ تؤدي زيادة افرازاتها إلى النزعة إلى الذكورة في الصبيان والبنات . وأن العنة في الرجال تتأثر بضعف إفرازاتها .

وتتصل الغدد الجنسية في البنين والبنات اتصالاً مباشراً بالنمو الجنسي . وهي المسؤولة عن كل التغيرات الجنسية المصاحبة التي تميز البنين عن البنات .

غير أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن نمو الغدد الجنسية وما تؤدي إليه من ظهور الأعراض الثانوية في البنين والبنات لا يعنى قدرة الفتاة أو الولد على انجاب الأطفال . حقاً تستطيع الأعضاء التناسلية عند كليهما القيام بوظيفتها ، ولكنها لا تصل إلى مرحلة الإخصاب إلا بعد فترة حتى يتم اكتمال بقية أعضاء الجسم ويتم التوازن بينها .

ولا شك أن التغيرات الجسدية والفسولوجية تصاحبها تغيرات سنناتها في حديثنا عن التغيرات الاجتماعية والانفعالية التي يمر بها الشاب .

النمو العقلي :

طبقت اختبارات الذكاء الفردية والجمعية على المراهقين والشباب في دراسات تتبعية طويلة وفي دراسات مستعرضة . وكان الهدف من ذلك معرفة ما يعترى قدرات الشباب العقلية من تغير في هذه المرحلة من النمو ، وكيف يفرق الشباب عن البالغين والأطفال في قدراتهم العقلية .

وتبين الدراسات أن الذكاء يزداد عموماً طول فترة الدراسات الابتدائية والإعدادية والثانوية وخاصة في مرحلة التعليم الابتدائي . وتقل سرعة هذه الزيادة تدريجياً خلال مرحلة التعليم الإعدادية والثانوية . وتختلف الدراسات المختلفة في تحديد السن التي يقف عندها نمو الذكاء ، ويعزى هذا الاختلاف إلى طبيعة اختبارات الذكاء التي استعملت في هذه الدراسات ، وطبيعة العينات التي طبقت عليها الاختبارات . وسنناقش ذلك تفصيلاً في الباب الرابع في دراستنا للفروق الفردية والذكاء . إذ تبين بعض الدراسات أن الذكاء لا يزداد بعد سن السادسة عشرة . بينما تبين بعض دراسات أخرى أن الذكاء يستمر في النمو مع الفرد حتى حوالي سن العشرين .

ويمكننا أن نقرر من هذه الدراسات أن النمو في الذكاء يكون سريعاً في الست سنوات الأولى من العمر ، ثم تقل السرعة في النمو بعد ذلك تدريجياً .

ويصل النمو أقصاه فيما بين الثامنة عشرة والعشرين فيتوقف . وبأخذ ذلك في النقص تدريجياً .

ولا تبين منحنيات نمو الذكاء قفزة سريعة في فترة المراهقة كما هو الحال في النمو الجسماني . غير أن هناك من الأدلة ما يدل على أن الأطفال الذين يصلون إلى سن المراهقة مبكراً يكونون أذكى بعض الشيء من قرنائهم ممن يتأخرون في المراهقة . ولا يعزى هذا التفوق إلى مجرد مرور الأولاد بفترة المراهقة ، إذ أنهم يكونون في العادة أذكى من غيرهم على طول طريق النمو .

والمعروف كما سيتبين لنا في دراستنا للذكاء فيما بعد أن اختبارات الذكاء تقيس القدرة العقلية العامة أو المستوى العقلي العام . وأن اختبار الذكاء الواحد يتكون من عدة اختبارات متنوعة تقيس قدرات مختلفة ، إذ قد يشمل الاختبار الواحد اختبارات في معاني الكلمات ، واختبارات الحساب واختبارات في القدرة اللغوية وما إليها . وقد يتفق اثنان في درجتهم النهائية التي تحدد مستوى ذكائهما العام على الاختبار كله ، غير أن أحدهما قد يصل إلى هذا المستوى لتفوقه على الاختبارات الحسابية ، بينما يصل الآخر إلى نفس المستوى لتفوقه على الاختبارات اللغوية . لذا اتجهت البحوث إلى محاولة التعرف على التغيرات التي تعترى هذه القدرات . وتبين البحوث أن هناك فروقاً في درجة نمو هذه القدرات ، وأن هناك فروقاً واضحة بينها فيما يلحقها من تدهور بعد ذلك . إذ هناك بعض القدرات التي تأخذ في الضعف بعد سن العشرين . والقدرات التي تستمر في الزيادة بنسبة ضئيلة بعد هذه السن هي القدرات التي تقيسها اختبارات معاني الكلمات ، والمعلومات العامة ، والقدرات التي تأخذ في الضعف هي القدرات التي تقيسها اختبارات التجانس والتشابه ، والاختبارات العددية ، وإكمال الجمل . ولما كانت هذه القدرات تأخذ في الضعف ، تبين نتائج البحوث تفوق المراهقين فيها على الكبار .

كما تبين البحوث أن معاملات الارتباط بين الاختبارات الجزئية في اختبارات الذكاء والتي تقيس قدرات مختلفة . تكون معاملات الارتباط بينها عالية في مرحلة النمو في التعاميم الابتدائي ، بينما تكون هذه المعاملات منخفضة

نسبياً في مرحلة المراهقة • وهذا يدل على أن هذه القدرات لا تنمو بدرجة واحدة في مرحلة الشباب • وتؤخذ هذه النتائج دليلاً على بدء تمايز قدرات التلاميذ في هذه السن وظهورها. لذا ينتج الاختصاصيون والنفسيون في المدارس إلى قياس هذه القدرات المختلفة منفصلة عن بعضها في مرحلة التعليم الثانوي للكشف عن قدرات التلاميذ لتوجيههم في النواحي التي يتفوقون فيها •

ولاتبين اختبارات الذكاء فروقاً بين البنات والبنين في هذه القدرة العامة • غير أن هناك دراسات تبين تفوق البنات بصفة عامة عن البنين في القدرة اللغوية والقدرة الكتابية • ويتفوق البنون عليهن في القدرة على إدراك المسافات والقدرة الميكانيكية . ويبدو أن البنين في حوالي سن السادسة عشرة والسابعة عشرة يتفوقون على البنات في القدرة العددية والتفكير اللغوي . وعلى القاريء أن يعود لقياس الفروق الفردية ليعرف معنى هذه القدرات .

الخلاصة أن نمو الذكاء في مرحلة الشباب الأولى لا يظهر طفرة في النمو كما يحدث في النمو الجسماني . بل يستمر الذكاء في نموه في هذه المرحلة بسرعة أقل من سرعته في المراحل السابقة ، ثم يتوقف نموه ما بين ١٨ و ٢٠ سنة • وتختلف القدرات المختلفة في درجة نموها . وبعضها يأخذ في الضعف بعد سن العشرين ، والبعض الآخر كالقدرة اللغوية ومعاني الكلمات يستمر في الزيادة بدرجة قليلة بعد سن العشرين ، وتبدأ القدرات في النمو في مرحلة الشباب الأولى ، لذا يفضل العلماء قياس هذه القدرات في هذه المرحلة بدلاً من قياس الذكاء العام لاستغلال تفوق التلاميذ في قدرات معينة في توجيههم .

ولا تبين البحوث فروقاً بين البنين والبنات في الذكاء وإن كانت تبين أن هناك فروقاً بينهما في بعض القدرات .

مشكلات مرحلة الشباب

تمثل فترة الشباب من سن ١٣ إلى ٢١ عدم اكتمال النضج الفسيولوجي الجسماني ، وعدم الاستقلال الاقتصادي ، وتوقف المجتمع عن النظر

إلى الشباب كطفل مع حرمانه من القيام بدوره كعضو مكتمل في المجتمع .

ولا يعنى بحثنا عن مشكلات هذه المرحلة أن مشكلاتها تفوق أهميتها مشاكل مراحل النمو الأخرى ، إذ أننا نتفق مع هافجهرست في أن لكل مرحلة من مراحل النمو عملياتها الارتقائية التي يفرضها المجتمع في كل مرحلة بعينها ، ويتوقف على تحقيقها إشباع الحاجات الفردية وتكيف الفرد مع مجتمعه / وهذه العمليات كحتميات اجتماعية في كل مرحلة من مراحل النمو مما يساوى من أهميتها في كل مرحلة . ونحن نؤمن بأن تكيف الفرد لا يقاس بمدى خلوه من المشاكل ، ولكن يقاس بقدرته على مواجهة هذه المشاكل وحلها حلولاً إيجابية تساعد على تكيفه مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه . إذ يقابل الفرد في العادة أثناء تفاعله مع بيئته الصراع والمشاكل وحتمية الاختيار بين المواقف المتناقضة ، وهذا أمر تختمه طبيعة الحياة . والفرد تسيره حاجاته الفسيولوجية والاجتماعية وفكرته عن نفسه ، وتعبير الحاجات عن نفسها عن طريق السلوك الظاهر . فإذا لم تشبع هذه الحاجات إشباعاً مناسباً يصبح لدينا موقف يبعث على التوتر ، وبالتالي يختل توازن الفرد مع بيئته . وحينئذ يمكننا القول أن لدى الفرد مشكلة . ونحن في بحثنا عن المشاكل التي يجابهها الفرد لا نهدف إلى إيجاد السبل التي يمكن بها تجنب هذه المشاكل ، إنما الهدف هو محاولة مساعدة الفرد على أن يفهم نفسه ويفهم مشاكله ويتعلم الطرق السوية التي تمكنه من مجابهة هذه المشاكل وحلها .

ويصعب حصر هذه المشاكل لتعددتها بتعدد جوانب الحياة ، لذلك يلجأ الاختصاصيون إلى تصنيفها في مجالات أو فئات واسعة . وعلى الرغم من أن مثل هذا التصنيف يمدنا بطريقة يمكن معها دراسة وتحليل السلوك . فهناك أسباب تخم علينا الحذر عند اتباع مثل هذا الإجراء أولاً : أن هناك خطراً في أن ننظر إلى مجال مثل المجال « المدرسي » مثلاً كيدان مفرد أو وحدة منفصلة ، فتعقد السلوك البشري يحول دون النظر إلى أى مشكلة على أنها قائمة بذاتها ومنعزلة عن بقية المشاكل ، إذ أنها لا بد أن تؤثر وتتأثر بغيرها من مجالات حياة الفرد ، وتؤدي بالتالي إلى مشاكل أخرى . وأقل ما تؤدي

إليه أى مشكلة هو أنها تضخم وتعتقد المشاكل الأخرى الموجودة / لذلك تنزع المشكلات إلى أن تتجمع فى مجال . وثانيها : أنه إذا ما حددنا مشكلة من مشاكل على أنها مهنية مثلاً أو انفعالية لا يتحتم أن تحديدها بهذا الشكل كان تحديداً صائباً إذ يتوقف التحديد فى العادة على الشخص الذى يقوم بالتصنيف . وثالثها : ما دام وجود مشكلة معينة لدى الفرد يعنى لديه مجموعة من المشاكل فإن المشكلة الواحدة حين تظهر فهذا يعنى أنها تكون فى العادة حصيلة لمجموعة من الأسباب . وأخيراً يجب أن نضع فى الاعتبار أن المشكلة أو المشاكل التى يحددها الفرد قد لا تكون هى مشكلته الحقيقية « إذ تكون الواجهة التى يخفى وراءها مشاكله الحقيقية أو قد يكون الفرد على غير وعى بمشكلته وعاجزاً عن تشخيصها التشخيص الصحيح .

على أى حال ، وإن كان التصنيف أو التقسيم إلى مجالات لا يساعد على فهم مشكلات الفرد الواحد إلا أنه يساعدنا فى التطبيق على مجموعات كبيرة إلى بيان النزعات المركزية التى تتخذ معياراً لمقارنة الفرد بها ، كما أن له فائده العملية فى التناول الإحصائى ومقارنة الجماعات بعضها ببعض . كما يمكننا أن نقسم المشاكل الداخلة فى كل مجال بعد ذلك طبقاً لمعايير أخرى فقد تعلق المشكلة الداخلة فى مجال المستقبل المهنى مثلاً الحصول على المعلومات المهنية ، أو الاختيار المهنى ، أو البحث عن وظيفة « وبالتالي من الممكن أن تنوع المشكلات داخل الميدان المدرسى أو الصحى ... إلخ .

والخلاصة أن الفرد تسيره حاجاته وفكرته عن نفسه وهو فى سبيله لإشباع حاجاته تقابله المشاكل ومواقف الاختيار ، ويؤدى عدم إشباع الحاجات إلى حالة من التوتر واختلال التوازن ، ونحن نحاول التعرف على هذه المشاكل لا ليتجنبها الفرد ولكن لمساعدته على مجابهتها . ونظراً لتعدد هذه المشاكل نقوم بتصنيفها فى مجالات مع مراعاة أن المشكلة الواحدة لا تقوم منفردة ولكنها تتصل عادة بمجموعة أخرى من المشاكل وأن المشكلة الواحدة تتعدد أسبابها .

١ - مشاكل الشباب الاجتماعي والانفعالي

لعل أهم المجالات التي يصادف فيها الشباب في مرحلة الفتوة مشاكله هي مجال النمو الاجتماعي والنمو الانفعالي نظراً للتغيرات الشديدة التي يصادفها الفتى لانتقاله من مرحلة إلى مرحلة .

وينظر كيرت ليفين إلى فترة الشباب (الفتوة) نظرة عالم النفس الاجتماعي ويتلخص تفسيره النفسي لمشاكل هذه الفترة في ضوء نظريته (انظر نظرية المجال في الباب التالي) فيما يلي :

١٠ - يمكن النظر إلى مرحلة الفتوة كمرحلة تغير في انتائية الفرد إلى الجماعة . إذ كان ينظر إلى الفرد على أنه طفل ، كما أنه إلى عهد قريب كان يعتبر نفسه أيضاً طفلاً غير أنه لا يرغب الآن في أن يكون طفلاً أو أن يعامل كطفل وهو على استعداد لأن ينتزع انتزاعاً من كل ما يمت إلى الطفولة بسبب ليدخل حياة الكبار فهو لا يريد أن ينتمي لجماعة معينة . ويريد الدخول في كنف جماعة أخرى . وكلما زادت أهمية الجماعة الجديدة بالنسبة له كلما زادت أهمية التغير الذي يمر به .

٢ - ويتضمن الانتقال من جماعة الأطفال إلى الكبار الانتقال إلى عالم

جديد غير معروف تماماً . ويمكن تشبيه ذلك بانتقال فرد جديد إلى مدينة ، إذ يعني هذا الانتقال من المؤلف إلى غير المؤلف . وتعني عدم المؤلفية عدم الوضوح ونموض مجال الفرد . فلا يعرف الفرد أي سلوك يسلك ، وعمّا إذا كان سلوكه صواباً أم خطأ . وعمّا إذا كان هذا السلوك يؤدي به إلى الهدف الصحيح أم لا . وهذا ما يعزى إليه اضطراب الفتى في سلوكه وعدم تأكده من صحة ما يقوم به . فقد بينت البحوث عن الضغوط الاجتماعية والسيطرة والخضوع أن استعداد الفرد للعراك والقتال يقل في المواقف غير المألوفة لديه والتي يشعر فيها بالغربة . وهكذا يجد المراهق نفسه يخطو نحو عالم غريب له . معاملة غير واضحة . فيشوب سلوكه التردد والتذبذب والشك .

٣- - وجسم الفرد من أهم المجالات أو المناطق التي تكون مألوفة له . فكل فرد يعرف جسمه جيداً وبالتالي يعرف امكانياته . غير أن النمو الجسماني الذي يمر به الشاب يجعله في موقف يشعر فيه أن جسمه أيضاً قد أصبح غريباً عليه . إذ أن هناك خبرات جسمانية جنسية جديدة لم تكن معروفة . ولا يعني هذا التغير الانتقال من عالم إلى عالم غير مألوف فقط ، ولكن يعني أيضاً التحول إلى عالم غير مألوف لا يبعث على الثقة . ويزيد هذا من مشاكل المراهق ومن زعزعة ثقته بنفسه . فعالمه غير ثابت متقلب .

٤ - ولما كان الانتقال من عالم إلى عالم ومن جماعة إلى جماعة ومن حياة إلى حياة يعني تداخل الأسس القديمة التي لم يتشرب الفرد غيرها بعد لتحل محلها ، تعتبر مرحلة المراهقة مرحلة يكون فيها الفرد مرناً وعلى استعداد للتشكيل . وتدخل القديم والاستعداد لتقبل الجديد يؤدي إلى ما نلاحظه من تطرف بين الفتيان في آرائهم وتذبذبهم في معتقداتهم السياسية والدينية بين أقصى اليمين وأقصى اليسار . فقد يندفع نحو الشيوعية المتطرفة أو الرجعية المتطرفة ، أو الإلحاد والتعصب الديني أو قد يكون آونة ذاك وآونة أخرى تلك .

٥- - ويميل الفتيان إلى الرحلات والسفر ، كما يميلون إلى التعرف على واجباتهم وحقوقهم المدنية . وتفتح عقولهم للآراء السياسية . كما يتطلعون إلى المستقبل المهني والاجتماعي ، فيفكرون فيما سيكون عليه مستقبلهم في العمل والزواج ، ويعزى هذا إلى أن مجال الحياة الجديدة غير المعروفة يتضمن المجال الجغرافي والمجال الاجتماعي فيحاولون اكتشاف هذه المجالات والتطلع إلى المستقبل فيها ، لآفي حدود الأيام والأسابيع ولكن في حدود السنوات . ويحددون أهدافاً لهم خلال نظرهم إلى المستقبل . ويصعب على الفتى الشاب تحديد أهدافه لعدم اتضاح مجال حياته الجديد . إذ عليه أن يحدد أهدافه في عالم غير معروف له ملئ بالمتناقضات : أديان متناقضة ، آراء سياسية متناقضة ، وحرف ومهن مختلفة وما إلى ذلك . وتؤدي كلها بالفتى إلى

(م ١٦ - الطفولة والمراهقة)

المرور بفترة توتر وصراع نفسى حاد لعجزه عن التمييز بين هذه المتناقضات .
وعجزه عن رؤية مستقبله خلالها .

٦ - وقد يكون انتقال الفتى من الطفولة إلى الشباب انتقالاً تدريجياً
في بعض الثقافات ، كما قد يكون انتقالاً فجائياً في البعض الآخر . غير أن عالم
الرجال «عالم الأطفال عالمان منفصلان تماماً . وانتقال المراهق من عالم الأطفال
إلى عالم الرجال تتخلله الصعاب . إذ يجهل معالم العالم الجديد . ويقف الكبار
أنفسهم الصعاب في سبيل انتقاله إلى عالمهم . فتارة يعاملونه كطفل « وتارة
أخرى يعاملونه كرجل « وهو المثل يقف على حدود عالم الكبار . ويسمى
رجل الحدود في علم النفس الاجتماعي « بالرجل الهامشي » *marginal man*
الذي لا ينتمي إلى هذه الجماعة ولا تلك أو أنه على الأقل غير متأكد من انتمائه .
ومثل الشاب في ذلك كمثل غيره من أفراد الأقليات الهامشين فالزنجي
الأمريكي مثلاً يسعى إلى اكتساب الثروة ويحاول تثقيف نفسه لعل هذه
الامتيازات الجديدة تدخله في عالم الرجل الأبيض . وهو بماله وعلمه لا يشعر
أنه ينتمي إلى عالم الزنوج الذي نشأ فيه . ولا تقبله جماعة البيض في الوقت
الذي ينفر فيه من الزنوج فيقف على الهامش . ومثله كذلك كمثل أثرياء
الحروب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ممن جمعوا ثروة رغبوا بها الانتقال
إلى طبقة غير طبقهم فلم يجدوا الطريق سهلاً . فابتعدوا عن طبقهم في الوقت
الذي يجدون فيه مشقة في دخول طبقة أعلى منها .

والمعروف أن كل رجل هامشي لابد أن يعاني من الصراع النفسي وعدم
الاستقرار العاطفي والحساسية الزائدة . ويتذبذب الرجل الهامشي في سلوكه
بين المفاخرة والمباهاة أو الحجل والانزواء ، والاعتداء والمسالمة ، وغير
ذلك من السلوك المتناقض . ويعاني الشاب من ذلك كله .

٢ - مشاكل الشخصية :

ذكرنا في حديثنا عن التنشئة الاجتماعية وأثر الأسرة تحديد دور الطفل «
وتحديد مركزه . وإعطائه فكرة عن نفسه . كما ذكرنا أن فكرة الطفل عن

نفسه تتبلور في الفترة الأولى من الطفولة المتأخرة . ويتطلب دخول المراهق في مرحلة المراهقة وانفصاله من فترة الطفولة تعديل فكرته عن نفسه ، وبالتالي إعادة النظر في دوره وفي مركزه ، ويسعى الشاب في خضم التغيرات التي يمر بها إلى البحث عن ذاته ودوره ومركزه . فتتعديل فكرته عن جسمه الذي كان يكون جزءاً من ذاته في الطفولة . ويشعر الشاب بالقلق من جراء تشوقه إلى أن ينمو جسمه ليبلغ مبلغ الرجال لذا نجد أن مصادر قلق الشاب من ناحية جسمه في هذه السن متعددة « فالنحافة الزائدة أو السمنة الزائدة كذا الطول أو القصر أو عدم تناسب أجزاء الجسم مع بعضها البعض وحجم العضو التناسلي وما إلى ذلك تحتل مركز اهتمامه ويسعى إلى مقارنة نفسه بالغير فيها . وقد يدفع هذا إلى محاولة استكمال شعوره بالنقص من ناحية جسمه إلى مزاولة الألعاب الرياضية العنيفة « وممارسة العادة السرية « والقيام بمغامرات جنسية ليؤكد بها رجولته .

ولا تختلف الفتاة عن الفتى في اهتمامها بجسمها وما يعبره من تغيرات ومحاولتها تأكيد أنوثتها وإبراز مفاتها . فتهتم اهتماماً زائداً بملابسها وشعرها وما إلى ذلك . ولا يقل البنون اهتماماً عن البنات بالملبس والمظهر الخارجي . وإذا كان بعض الشباب يبدون في مظهرهم وكأنهم لا يهتمون بحسن الهندام ، فهذا يعود لا إلى رغبتهم في عدم الظهور بمظهر حسن ، ولكن إلى اعتقادهم بأن الطريقة التي يرتدون بها ملابسهم من مظاهر الرجولة والخشونة التي يسعون إلى تأكيدها .

ويسعى الشاب لتأكيد ذاته واتخاذ دوره كرجل إلى البحث عن بطل يتمثل به وغالباً ما يكون هذا البطل ممثلاً سينمائياً أو مدرساً أو بطلاً من أبطال التاريخ والألعاب الرياضية وما إلى ذلك . ويتشبه به في حياته وفي ملبسه وفي طريقة كلامه وفي كل ما يقوم به من أفعال ويمتنعها .

وللدلالة على مدى أهمية مظهر الشاب أو الشابة بالنسبة له أو لها في هذه السن « ومدى حاجتهما لتأكيد دورهما كرجل أو امرأة « حالة فتاة عرضت

على المؤاف بعد أن وجدت في مساء أحد الأيام تسبح في بركة من دماها في
فناء أحد المنازل المهجورة .

كان عمرها ستة عشر عاما بالاسنة الأولى باحدى المدارس الثانوية . ولم
تكن هذه هي المرة الأولى التي حاولت فيها الانتحار : كانت هذه الفتاة من
أسرة الأب فيها مثقف ثقافة عالية ويشغل وظيفة محترمة « غير أن الأم كانت
غير متعلمة وكانت الفتاة أكبر أخواتها البالغ عددهم أربعة . ظلت حياتها طبيعية
في المدرسة الإعدادية وفي الأسرة ، اللهم إلا من بعض الشكاوى التي ذكرت
بعض المدرسات من أن الفتاة كانت اعتدائية في سلوكها . فلما انتقلت إلى
المدرسة الثانوية كان الأب قد بدأ يهجر المنزل لزواجه بفتاة صغيرة ، وأثر
هذا في اتجاه الأم نحو نفسها ونحو أولادها ، إذ بدأت تهمل في العناية بالمنزل
وفي العناية بالأطفال ولم يكن دخل الأب كافياً للصرف على بيتين ، فلم
يتمكن بذلك من تحقيق رغبات الفتاة في الظهور بالمظهر الذي يرضى ذاتها
بين قريناتها . فبدأت تشعر بالعار من مظهرها وملابسها وكنوع من التحدى
زادت هي في إهمال نفسها ، مما أدى إلى نفور الفتيات منها وإغاضتها بمظهرها .
وفشلت في تكوين صداقات معهن في الوقت الذي كانت تتمنى فيه صداقة أى
واحدة ودعوة أى صديقة إلى منزلها ، إذ بدأت كل محاولاتها لتحقيق ذلك
بالفشل . وذكرت أنها كانت تخشى دعوة أى بنت إلى المنزل خشية اطلاعها
على مظاهر الإهمال فيه مما يزيد من سوء فكرتهن عنها . ولم تجد أما لتفهمها .
إذ كانت الأم غارقة في همومها وتصب جام غضبها عليها بحكم كونها البنت
الكبرى . كما أنها لم تجد في المدرسة أى معلمة توليها عنايتها واهتمامها بل
كانت المدرسات على عكس ذلك يتحاملن عليها لمظهرها وإهمالها في واجبها .
فحاولت الانتحار في دورة مياه المدرسة بعد توبيخ إحدى المدرسات لها ،
وكانت المحاولة محاولة طفلية لجذب الانتباه إليها ، غير أنها لم تحقق الهدف ،
بل زادت من عارها أمام زميلاتهن . وبعد يومين من ذلك خرجت من المدرسة
بعد الظهر « فأوت إلى فناء المنزل المهجور وقطعت شرايين رسيها بقسوة .
وظلت الدماء تنزف منها لمدة ٥ ساعات دون محاولتها الاستنجاد . فلما شعرت

بالاعياء حاولت القيام من مكانها فأغمى عليها . فلما أفأقت جرت نفسها
جراً إلى الشارع حيث عثر عليها وهى مغنى عنها .

تبين لنا هذه الحالة مدى حساسية الشاب لنفسه ومظهره وحكم الآخرين
عليه ومدى ما يصادفه من مشاكل إذا عزز عليه تأكيد دوره وتأكيد ذاته ،
وعز عليه تقبل الجماعة له ، وفشل في وجود المثل الأعلى الذى يحذو حذوه .
إذ فشلت هذه الفتاة في وجود المثل في الأم ولم تجد بديلاً لها بين معلماتها .

غير أن المظهر الجسماني ليس هو كل شيء في سعي الشاب للعثور على
نفسه وتأكيد ذاته . إذ أن من الأسئلة التي تراود الشاب دائماً أسئلة مثل : من أنا؟
ولمن أنتمى ؟ وماهى القيم التي أؤمن بها ؟ وماذا يمكنني أن أفعل ؟ وماقيمتي
لنفسى وللآخرين ؟ وماهى نواحي قوتى ونواحي ضعفى ؟ ويلجأ الشباب
للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها إلى الخيال . لذا نجد أن مرحلة الشباب تتميز
بأحلام اليقظه التي تستغرق ساعات في بعض الأحيان . وتؤدي هذه الأحلام
إلى العزلة والانفراد . ويحلم الفتى بالمستقبل والمال والقوة . كما يفكر في النواحي
الجنسية والحب والزواج . وقد يفصح أحياناً في محيط الأسرة عن أحلامه التي
قد تؤدي إلى استهزاء الكبار وسخريتهم منه . ويؤدي هذا إلى شعوره بعدم
وجود من يفهمه .

٣ - مشاكل متعلقة بالأسرة :

يتطلب النمو السليم أن ينمو الطفل في بيت مترابط تظله السعادة . ويتوقع
الطفل الحماية والرعاية والحب والعطف من والديه في أى سن وفي أى
مرحلة من النمو . ويعتز الآباء في العادة بأبنائهم ويسعون لصالحهم . ومن
حق الآباء فرض سلطانهم على الأبناء . ومن واجب الأبناء طاعتهم . ويستمر
الطفل في طاعة والديه بآتمر بأمرهم في مراحل طفولته . ويفرض الآباء هذه
الطاعة ويتوقعونها . فإذا مداخل الطفل في مرحلة المراهقة حاول تأكيد ذاته
بتأكيد استقلاله عن والديه . ويفاجأ الآباء بمثل هذا التغير فيدب الصراع

بين اردتين وبين حقين متعارضين : ارادة الآباء و ارادة الأبناء . وحق الآباء في السلطة وحق الأبناء في الاستقلال .

فن مظاهر رغبة الأبناء في الاستقلال سعى الشباب إلى تكوين الصداقات في الخارج مع من هم في سنه ومشاركتهم في نشاطهم . وتستدعى مشاركة الإخوان الظهور أمامهم بالمظهر اللائق . وقد يتطلب المظهر اللائق زيادة المصروف اليومي الذي قد يكون عبئاً على الوالدين ويكون هذا مدعاة للاحتكاك . وتتطلب مجازاة الإخوان مشاركتهم في الجلوس على المقاهي « ومصاحبهم إلى دور السينما » ودعوتهم أحياناً إلى المنزل لاستضافتهم كما يستضيف الكبار أصدقاءهم . ويؤدي اضطرابه إلى السهر والقيام بنشاط لا يعرف عنه الآباء أى شيء حتماً إلى الاحتكاك . لقد تغير الطفل من وجهة نظر الآباء وإلى الأسوأ . فهو الولد العاق الذي أفسده أصدقاؤه ولا يفهم كثير من الآباء أن هذه مرحلة نمو طبيعية عليهم تقبلها .

وقد سبق لنا أن عرضنا حالة الشاب الذي كان يضطر إلى السرقة لمجاراة أصدقائه ، وإلى المعاملة التي كانت تعامله بها الأم إذا دعاهم إلى المنزل مما كان يحطم من كبريائه في أعينهم .

ولا يصبح المنزل مكاناً محبباً يلجأ إليه الشاب مادام لا يتوقع إلا النقد واللوم والتوبيخ . ويزيد النفور من المنزل إذا كانت هناك مشاكل خاصة بين الأبوين كالعراك المستمر وعدم احترام الوالدين بعضهما البعض أو الطلاق وما شابه ذلك ، مما يزيد من فقد الحدث لاطمئنانه وأمنه .

لقد كانت مما حيرت عنة الفتاة صاحبة الحالة السابقة صراحة أنها تجد الدنيا وقد أغلقت أبوابها أمامها . فهي تذهب إلى المنزل مجبرة وتذهب إلى المدرسة مجبرة . ففي المنزل تعاسة ، وفي المدرسة تعاسة ، وكأنه لا يوجد في الدنيا سوى التعاسة فلماذا الحياة ؟

٤ - المشاكل الجنسية :

يفتح النضج الجنسي أمام الشاب عالماً جديداً فيه لذة وفيه إثبات لرجولته. غير أن هذا العالم يحيط به الغموض والإثم والعار . إذ توجد القيود الاجتماعية والحلقية والاقتصادية التي تحول بينه وبين دخول هذا العالم من طريق طبيعي . فأمامه عقبات وعقبات حتى يتحقق له الزواج . إذ يتطلب الزواج استقلالاً اقتصادياً ونضجاً عاطفياً وجسدياً وهو لم يبلغ أياً من هذه النواحي بعد . وتنشط غدده ويسعى إلى اللذة ولاسبيل إليها إلا بالعادة السرية . لقد بينت البحوث أن ما يزيد عن ٩٠٪ من الذكور يمارسونها يقابل ذلك ما يقرب من ٦٠٪ من الفتيات . وتتخذ هذه النسبة العالية على أن هذا النشاط أمر مأثور وعادي . غير أن الشباب والكبار على السواء ينظرون إليها على أنها جرم وخطيئة وألصقوا بها أضراراً كالعمى والسل والعنة وما إلى ذلك . ويبدو أن هذه الأضرار قد اخترعت للتهديد وللهي فأتت نتائجها عكسية ، فلا هي بنهاية الشباب عن ممارستها ولا هي أعفهم مما تسببه لهم من شعور بالذنب والحزى والخوف . ويدفع الشعور بالذنب صاحبه إلى تكرار العمل الذي أدى إلى هذا الشعور ليزيل قلقه . فيكررها ويزداد التكرار ويزداد الشعور بالذنب . ونود أن نؤكد هنا أن البحوث قد بينت أنه لا ضرر في العادة السرية ، وينتقد علماء النفس حالياً العلماء القدامى ممن كانوا يقولون أنه لا ضرر ولكن يخشى منها من أن تؤدي إلى كذا وكذا . فالمعروف أن العادة السرية إذا تحكمت في الفرد بشكل مرضي تكون عرضاً لمرض نفسي . وينصب العلاج هنا لاعلى العادة السرية . ولكن على المرض الكامن الذي يؤدي إليها .

ولا يلجأ إلى ممارسة العادة السرية بإفراط إلا الشباب الذي يشعر في قرارة نفسه بالعمامة . والذي يكون نشاطه الاجتماعي محدوداً يحس معه بالفراغ والوحدة . والفرع الذي يتملك مثل هذا الشباب من ممارستها نتيجة للمعلومات الخاطئة أخطر من عملية المزاولة نفسها . لأن من المبادئ المعروفة أن الطاقة البشرية محدودة ، وبالتالي يحد النشاط الجنسي نفسه بنفسه .

ويؤدى الفصل التام بين البنين وانبثات فى هذه السن إلى ~~محو~~ استغلال الشباب لبعض زملائهم ممن هم أصغر منهم سناً أو أضعف قوة استغلاً جنسياً . والشباب فى ذلك لا يسعى إلى الحصول على لذة جنسية فحسب بل يسعى إلى تأكيد رجولته بين زملائه وحماية رجولته فى نفس الوقت . وكثيراً ما ينساق البعض إلى التقليد خوفاً مما قد يوجه إليهم من نقد أو طعن فى رجولتهم .

كما قد يندفع الشاب لقياس قدرته الجنسية واختبار رجولته إلى القيام بمغامرات جنسية مع العاهرات . وتكون لهذه المغامرات آثارها الوخيمة . إذ قد يفشل فى أول خبرة لرهبة المرقف . والتغرز من المرأة التى تتاجر بعرضها ومن خشية المرض . ولما كان الصبيان يصحبون بعضهم بعضاً فى مثل هذه المغامرات يكون الخوف من نقد زملاء من العوامل الأخرى التى تبعث على الفشل ، ويترك هذا الفشل آثاره العميقة فى نفسه التى يصعب محوها لفترة طويلة من الزمن .

ومن الطبيعى أن يسعى الفتى إلى الفتاة وتسعى إليه فى هذه السن ، إذ لا يؤكد رجولة الرجل إلا فتاة ولا يؤكد للفتاة أنوثتها إلا رجل . فكأنهما فى سعيهما إلى البعض لا يبغيان إشباعاً جنسياً ولكنهما يبغيان تأكيد دورهما . وغالباً ما تكون العلاقة علاقة رومانتيكية فيها الحرمان من النوم وكتابة القصائد الرجزية والخطابات الغرامية التى قد تسبب ثورة الآباء إذا ما عرفوا بأمرها . وتكون صدمة آباء الفتيات أقوى من صدمة آباء الصبيان . والواقع الذى لا مفر منه أن مجتمعنا يخطو خطوات واسعة نحو زيادة الاختلاط ، وأن مثل هذه العلاقات تنشأ وتزداد بمرور الأيام . ولن يخفف من فزع الآباء إلا الاختلاط فى جميع مراحل التعليم ، وزيادة عدد الأندية التى تذهب إليها الأسر بأبنائها وبناتها حتى يتم الاختلاط تحت سمعنا وبصرنا وإشرافنا فلا يتم فى الخفاء محوياً بالفزع والإثم والعار .

٥ — مشاكل تتعلق بالمستقبل التعليمى والمهني :

لم يكن لنا إلى عهد قريب فلسفة واضحة المعالم فى تخطيط مستقبل الشباب .

وكان التعليم امتيازاً لا يناله إلا القادرون مالياً من الطبقات المحظوظة اجتماعياً واقتصادياً . ثم حدث أن فتحنا باب التعليم لكل أبناء الشعب دون رسم سياسة للمستقبل . فاندفع الشباب في طريق واحد لتحقيق هدف واحد هو الوظيفة الحكومية . والطريق الوحيد الذي يوصل إلى هذا الهدف هو التعليم الجامعي . وتخرج عدد من الشباب في الكليات النظرية فوجد أبواب العمل موصدة في وجهه « لأن المجتمع قد تغير ولم تعد هذه المؤهلات تناسب المجتمع الجديد .

وبدأ التخطيط للمستقبل . ويعني التخطيط دراسة حاجات المجتمع وإمكانياته وتهيئة الشباب وتوجيهه وإعداده تبعاً لهذه الإمكانيات .

غير أن سياستنا ليست كاملة فنحن نؤمن بالتخطيط ونؤمن بالتوجيه « ومع ذلك لم نرسم بعد خطة للتوجيه في المدارس تقوم على أسس علمية، فلا غرو إذا وجدنا من بين الشباب من يعبر صراحة عن قلقه من ناحية المستقبل . ولا يعود هذا إلى مجرد العجز عن التوجيه « ولكن يعود أيضاً وإلى حد كبير إلى ما اكتسبته بعض ميادين العمل من صيت وإغراء . ويحاول الشباب الاندفاع إليها سواء أكانت لديهم القدرات والاستعدادات لها أم لا .

فالصيت والسمعة الآن للطب والهندسة والصيدلة ، ويأمل كل شاب في الالتحاق بأى منها فإذا لم يوفق صدم في حياته وشعر بضيق مستقبله .

ويعود ما يعانيه الشباب من قلق على مستقبلهم للعقيدة التي لازالت مسيطرة على العتول بأن السبيل الوحيد إلى النجاح هو الشهادة الجامعية ، واحتقار العمل اليدوى والفنى ، والافتقار إلى روح المغامرة في ميادين الأعمال الحرة :

ومما يزيد من مشاكل الشباب في المدرسة وميدان العمل التزج بهم علم غير إيمان منهم ولا من أولياء أمورهم في المدارس التي تختارها والميادين التي نرغمهم على التخصص فيها . وقد نكون على صواب في اختيارنا لنوع الدراسة التي تلائمهم . غير أن صواب رأينا لابد أن يصحبه اقتناعهم بهذا الصواب وخاصة أننا نرّج بهم تبعاً لمعيار لا يؤمنون به وهو مجموع الدرجات . ويأجل هذا

لو أدخلت برامج التوجيه السليمة التي تساعد التلاميذ على اكتشاف قدراتهم واستعداداتهم من سن مبكرة يوجهون على أساسها إلى الميادين التي يصلحون لها وهم راضون .

ولاشك أن مدارسنا في الماضي قد مرت بفترة من الفوضى والاضطراب وكان لابد لإصلاحها من أخذ التلاميذ بالحزم ، غير أن هذا الحزم وللأسف انقلب في بعض المدارس إلى ديكتاتورية قاسية وسلطة أساء استغلالها بعض النظار وبعض المدرسين بل وبعض مديري العموم . وأصبح الاعتقاد السائد بين بعض الرجعيين أن الإداري الناجح هو الرجل القاسي فقط .

لقد بدأ أحد هؤلاء النظار الناجحين أول يوم في العام الدراسي في مدرسته الثانوية مخاطباً تلاميذ المدرسة بهذا القول « اسمع يا ولد يا سافل أنت وهو — أنا هنا السنة دى عاشان أخلص عليكم يا تخلصوا عليه » لقد امتد نجاح هذا الناظر إلى حد طرد المدرس الذي يعارضه من المدرسة . ويمكننا أن نتصور مدى ما تسببه مثل هذه الفلسفة في الإدارة للتلاميذ من مشاكل .

يبين العرض السابق بعض المجالات التي يصادف فيها الشاب المشاكل .

وقد بينت الدراسات أن أهم مشاكل الشباب التي تقابلهم في سبيل تحقيقهم لأنهم ما يأتي :

١ — تقبل الشاب لجسمه وشكله ، وتقبله لدوره كرجل وتقبل الفتاة لدورها كمرأة .

٢ — تحقيق الشاب لعلاقات ناجحة مع من هم في سنه .

٣ — التحرر العاطفي من سلطة المنزل والكبار .

٤ — ضمان الاستقلال الاقتصادي .

٥ — تنمية القدرات العقلية والمهارات وتكوين المفاهيم التي تساعد على أن يكون مواطناً صالحاً .

٦ - السلوك بما يتفق واحترام الذات واكتساب مناهج السلوك الاجتماعي الملهذب .

٧ - التطلع إلى الحياة الزوجية والاستعداد لتكوين أسرة .

وفي سنة ١٩٦٧ قام المؤلف ببحث على عينة قوامها ١٦٢٢٢ طالبا من طلاب المرحلة الثانوية ممثلين لطلاب هذه المرحلة في الجمهورية لمعرفة مشكلات الشباب في مجالات عشر هي الصحة ، المدرسة ، المنزل ، والمهنة ، والمحال الاقتصادي ، ووقت الفراغ ، والمحال النفسى ، والاجتماعى ، والدينى ، وكانت مشكلات الشباب آنذاك تتفق في بعض منها ومناخ المرحلة سياسيا واجتماعيا وإذا كان هناك اهتمام بمثل هذه البحوث واتخاذ نتائجها مؤشرات للتنبؤ والضبط لكان من الممكن التخطيط التربوى السليم لمواجهة كثير من المشكلات التى يعانى منها الشباب اليوم ونحن وإن كنا ستعرض فيما يلى لبعض مشكلات الشباب المصرى المعاصر ، أود أن أشير بعد خبرة طويلة في العمل في الأقطار العربية إلى أننى أرى أن نفس المشكلات يعانى منها الشباب العربى ، ولعل أبرز هذه المشكلات ما يلى :

١ - الافتقار للايديولوجية :

وأعنى بذلك افتقاد العقيدة أو المذهب الذى نستمد منه القيم والأهداف القومية والوطنية وأسلوب الحياة وضوابط السلوك . فالشباب على سبيل المثال في الدول الشيوعية يؤمن بماركسيته ويعى مبادئها وأصولها ويجد فيها المنهج الذى يبتدى به في كل نواحي حياته . بالمثل نجد الشباب في المجتمعات الرأسمالية فهو ينشأ ليؤمن بالاقتصاد الحر والمنافسة والحرية والفردية ويجد التطبيق لكل المبادئ المنشتقة من الفلسفة الليبرالية في كل نواحي حياته وكل المؤسسات التى ينشأ فيها ويزاول نشاطه من خلالها . وإنى لأتساءل هنا : ماهى عقيدتنا وما هو مذهبنا ؟ حقا نحن دولة إسلامية . ومن الممكن أن يكون الإسلام عقيدتنا ومذهبنا . ولكن أين هى الممارسات التطبيقية لمبادئ الإسلام باستثناء ممارسة العبادات شكليا دون الاهتمام الحقيقى بجوهر هذه العبادات وما شرعت من أجله .

قيل للشباب ذات يوم : ملعونة هي الرأسمالية . ورفعت شعارات الاشتراكية دون فهم لماهيتها . وبعد فترة من الزمن طالت أوقصرت قيل له ملعونة هي الاشتراكية ومعسكرها . فحار الشباب بين الأيديولوجيات شرقاً وغرباً ، وتشردم البعض يساراً والبعض الآخر يميناً . وظهرت اجتهادات لتحل للشباب مشكلة الضياع الأيديولوجي . فالت بعض الشراذم نحو التطرف والعنف . وظلت الغالبية تبحث عن أيديولوجية ، وتبحث عن عقيدة سياسية لم يقدمها له مفكروه وعلمائوه وفلاسفته بل ورجال دينه . فكل هؤلاء اغترفوا من الثقافة الغربية فتشربوها مبتعدين عن الأصول والجدور . وقدموا هذه الثقافة للشباب مشوهة مزيفة في أشكالها المادية دون الروحية ليهتدى بها إلى الضياع .

٢ - الأمية السياسية :

إن افتقاد الأيديولوجية والتأرجح بين الأيديولوجيات الغربية والشرقية والصراع السياسي ، وخوف السلطيات الحاكمة من الوعي السياسي ، وتساقط الضحايا من جيل الآباء في دوامة الصراعات السياسية أدت إلى عزوف الشباب عن أي فكر سياسي ، وعن مزاوله الحقوق والواجبات الوطنية . بل إن الأنظمة الحاكمة عامدة متعمدة حددت مناهج الدراسة والبرامج من التربية الوطنية والقومية تاركة الشباب في جهل تام بخصوص مشاكله القومية وحقوقه وواجباته كمواطن .

والبيت والمدرسة هما المؤسساتان اللتان تمدان الشباب بالتجاهات السياسية ومعلوماته عن وطنه والعالم حوله . وقد فشل كل من البيت والمدرسة في القيام بذلك . فكثير من الآباء غير متعلمين وعرف المتعلمون منهم من خبرتهم أن السياسة تعني المعتقلات والسجون والضياع والتشرد . فأصبحت بالنسبة لهم وباء لا بد من وقاية أبنائهم منه ، وقد حدث . أما المدرسة فقد شجعت معظم الدول العربية إن لم يكن كلها المعلم والأستاذ الجامعي ممن لالون له أوتجاه وزجت في السجون والمعتقلات بأصحاب الرأي وكانت أقل

العقوبات هي حرمانه من مخالطة الشباب في المؤسسات التعليمية حتى لا يفسد الشباب أى توعيته بحقوقه وواجباته .

لقد سمح هذا الكبت بظهور التيارات التحتية والجماعات السرية والإرهاب السياسى والعنف السياسى . ومن العجيب أننا نرى أن كثيراً من الشباب بل كثيراً من البالغين وأساتذة الجامعات يتباهى بالبعد عن السياسة والجهل بها والجميع لا يرى عيباً في هذه الغفلة . إذ أصبحوا مواطنون بالميلاد دون دراسة لهذه المواطنة قولاً وفعلًا . ولما حاولت السلطات تدريب الشباب سياسياً اقتصررت في ذلك على فئة مختارة لتكوين كوادر وماليشيات للبلطجة السياسية المأجورة دون إيمان برأى أو عقيدة . فالعمل السياسى بالنسبة لهؤلاء حرفة لها أجرها والانتائية لمن يدفع أكثر .

إن ألف باء الانتائية أن يعرف المواطن بلده وناسه وقومه . إن دروس التاريخ والجغرافيا التى يتعلمها الطالب بمحل في المدرسة ليست كافية . ومن الحزن أن طالب الجامعة في الإسكندرية مثلاً يتخرج دون أن يكون قد رأى عاصمة بلاده مرة واحدة . وطالب الجامعات في القاهرة يتخرج دون أى زيارة لمدينة شاطئية مرة واحدة . فهل يعرف طلاب العاصمتين كيف يعيش المواطنون في الريف ؟ وهل يعرف طلاب الريف كيف يعيش من هم في سنهم في المدينة . إن هذا وحده دليل على أن شبابنا في طول البلاد وعرضها لا يمكن أن يقال عنه أنه جماعة متجانسة . وبماذا نفسر عزوف المواطنين عن الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات ؟ أليست هذه السلبية مؤشراً له دلالاته .

٣- الافتقار إلى الهوية

كتب المؤلف في سنة ١٩٧٥ في كتابه التوجيه النفسى وال تربوى والمهنى ص ٢٣ إن هناك أمثلة رائعة للمسوخ البشرية التى يمكن أن يتحول إليها الآدميون في المجتمع الرأسمالى وفي النظم الفاشية حيث تسود عبادة الفرد البطل سواء كانت دكتاتورية الفرد أو دكتاتورية الطبقة كما في الفكر الشيوسى وحيث تنفشى النظم البوليسية تسود في المؤسسات القيادات المماثلة التى

تعتمد على نفس الأساليب . والحصيلة مواطن يفقر إلى المبادأة ، ويضرب عليه الخوف واللامبالاة ، وتنزل به نظم التربية إلى مرتبة تبعده عن إنسانيته ، فن الأوصاف التي أعطاها علماء النفس لنوع الإنسان الذي خلقتة التربية الدكتاتورية أنه إنسان قلق ، حذر « مرعوب ، خامد النشاط ، اتصالاته الاجتماعية محدودة ، يعاني من عديد من الأمراض النفسية » والاتجاه نحو الخضوع والاستسلام . والحصيلة تربية تتمثل في الطاعة العمياء والانتهازية ، والتقليد المطلق

إن مرحلة الشباب هي مرحلة البحث عن القدوة والنموذج . ويجد الشاب هذه النماذج في مجتمعه فيمن يعتبرهم ناجحين بمعايير مجتمعه في حاضره . وهو يجد هذه النماذج في الكاريكاتيرات المشوهة من المتلونين والانتهازين والاستسلاميين والطفليين من القادة السياسيين ورجال الأعمال والسياسرة والمهرين بل ومن أساتذة الجامعات الذين تسلوا إليها في غفلة من الزمن . قد يقتنى الشاب بهم « ويصبحون مصدر تطلعاته . وهكذا تتوالد الأفاعى .

إن المأساة تتجلى في تبرير مثل هذا النجاح - إذا كان نجاحا - أنه شطارة والكثيرون يرغبون في أن يكونوا من بين الشطار .

٤- البحث عن الذات والهوية :

إن مرحلة الشباب كما سبق أن بينا هي مرحلة البحث عن الذات والهوية . فن الأسئلة التي يحاول الشاب العثور على إجابات لها أسئلة مثل : من أنا ؟ من هم أهلي ونسبي ؟ من هم أصدقائي ؟ من هم أعدائي ؟ ما هو مركزي ؟ ما مصادر قوتي ومصادر ضعفي ؟ ما هو مستقبلي ؟ كيف أعيش حاليا ؟ كيف أعيش مستقبلا ؟ لمن أنتمي ؟ ما دورى في هذه الحياة ؟ إذا لم يجد الشاب إجابات مرضية عن هذه الأسئلة وغيرها كثير « فإنه يكون في ضياع . إنه يسمى للإجابة عن هذه الأسئلة في البيت وفي المدرسة . فإن لم يجد من يمد به يده إلى جامعات خارج كل من المنزل والمدرسة لعلها تمده بالإجابات . وهنا يكون الباب مفتوحا على مصراعيه للانحراف .

ويجد الشباب في انجازات وطنه وقومه ما يعطيه الاعزاز والشعور بالفخر فإذا لم يجد - مهما زيفت له الحقائق - سوى الهزائم والاندحارات والإحباطات ، تنسرب إليه عوامل كراهية الذات واحتقارها . والنفور من انتمائاته .

إن المؤسسات التعليمية ، والنظام التعليمي في أى دولة لا بد أن يؤدي في النهاية إلى تأهيل الشاب للحصول على عمل . والعمل يعنى الانتاج . والانتاج يعنى الشعور بالذات ، والشعور بالقدرة ، والشعور بالنجاح ، وبما يؤسف له أن العملية التعليمية بالشكل الذى تم به توارثها عن الاستعمار سواء كان عثمانيا أو إنجليزيا أو فرنسيا أو إيطاليا لا تعد معظم الأبناء بمهن يتطلبها المجتمع . فتلמיד المدرسة الابتدائية بوضعها الحالى يتخرج منها بلا مهارات . والأمير ليس أحسن حالا بالنسبة لتلميد المدرسة الإعدادية أو الثانوية إذ يتقدم للثانوية العامة في مصر مثلاً ما يقرب من ربع مليون طالب وطالبة ينجح منهم ما بين ٤٠ و ٦٠ في المائة ، ولا يصلح أى منهم لأى عمل يدوى أو تقنى . وتخرج الجامعات كل عام الآلاف من كليات الحقوق والتجارة بلا مهارات لينضموا إلى ميدان البطالة المقنعة في شكل أعمال غير إنتاجية طفيلية . ويفكر الكثيرون في الهروب للعمل في الخارج . فامتصت العمالة في الخارج المهارات وأنصاف الماهرين . ومهما يكن العائد الاقتصادي ، فالظاهرة في جوهرها هروب .

٥ - صراع القيم :

كان لا بد للعالم العربي أن يصحو من غفوته بعد عشرات من السنين عانى فيها من التخلف ليلحق بركب الحضارة ويتخلص من العبودية التي فرضت عليه بتحالف القوى الاستعمارية مع الاقطاع والرأسمالية فظهرت الحركات التحررية في شكل حركات إصلاحية وثورات وجاءت بحكام وطنيين لم تكن لهم قواعد شعبية أو ركائز عقائدية أو حزبية ولجأ هؤلاء الحكام إلى الشباب يستقطبه . ونحت ستار الثورية والوطنية تمت

عملية تشكيك في القيم السائدة وزعزعتها . وتكونت بين صفوف الشباب الكوادر التي تتطلع إلى مستقبل أفضل ، فانسافت وراء الشعارات . وكانت تنظيماتها في جزء منها مثيلة لتنظيمات الحركات السرية التي تسبق الثورات ، وبدعوى وجود الثورة المضادة طوّل الشباب الثوري أن ينقم على جيل الآباء وأعداء الثورة والإبلاغ عنهم وتقديمهم لينالوا جزاءهم من عقاب : واختلط الأمر على الشباب فلم يعد يميز بين ما هو صواب وما هو خطأ . وبين ما هو حق وبين ما هو باطل وبين ما يجب وبين ما لا يجب .

هذه بعض مظاهر مشكلات الشباب المعاصر والتي يتطلب منا النظر العاجل لإعادة تربية الشباب .

خصائص هذه المرحلة عند جيزل

١٣ سنة

- اهتمام كبير بالدراسة في المدرسة وقدرة كبيرة على الحصول على المعلومات - متعطش للمقائق
- واتساع دائرة الاهتمامات .
- الشعور بالواجب والقدرة على الملامة ، كما أنه يمكن الاعتماد عليه • وضميره حى جداً -
- همه المنافسة في الأمور الهامة .
- ليس من السهل التفاهم معه في المنزل - تمر به فترات من الصمت والكتمان .
- له مشاكله الخاصة التي تضايقه وينتقد الآباء .
- يتم بالتطلع في داخل نفسه وخارجها .
- ينظم خبراته ويوضحها بالتأمل والتفكير .
- دقيق في تصرفاته وفي اختياره الألفاظ .
- يبدأ في إدراك قوة التفكير في نفسه .
- يدرك الثقيلات المزاجية التي تعتريه .
- حساس للنقد وحساس للحالات الانفعالية عند الآخرين .
- يتطلع إلى الإخوة الكبار بإعجاب واحترام ، بينما يتضايق من إخوته الأصغر منه .
- لا يهد بأسراره إلى الأبوين .
- يتخير أصدقائه وله في العادة عدد محدود منهم .

— ٢٥٧ —

- ١٠- يهتم بمظهره الخارجى . ويتشوق لمعرفة تأثيره على الآخرين .
- ١١- ينزع إلى الانصياع لمطالب ومعايير جماعة الأصدقاء .
- ١٢- ينزع إلى الاستقلال ويقاوم من يحاول فرض السلطة عليه كالمعلمين .
- ١٣- تعتبر هذه سنة تحول فيها تغيرات تعمى الجسم والعقل والشخصية .
- ١٤- تؤدي التغيرات الجسدية إلى إدراك أنه أصبح كبيراً .
- ١٥- يتطلب من الكبار فهمهم له .
- ١٦- قادر على ضبط غضبه .
- ١٧- يعتريه الحجل ويبدو حساساً .

البنات

البنون

- ١٨- لا يكرهون البنات ولكنهم لا يهتمون بهم .
- ١٩- يتجمعن في جماعات صغيرة .
- ٢٠- يلتقون في جماعات من أربعة أفراد أو خمسة .
- ٢١- ينتقدن الأم انتقاداً مرأ .
- ٢٢- يجبن الالتفاف حول الصبيان .

١٤ سنة

- ٢٣- تصير قوى عن الانفعالات وعن الذات .
- ٢٤- معرفة سليمة للبيئة .
- ٢٥- اجتماعى ولطيف في علاقاته مع الغير .
- ٢٦- يتجاوب مع إخوته الصغار .
- ٢٧- يهتم بالناس ويدرك الاختلاف في شخصياتهم .
- ٢٨- يجب أن يكون في وسط جماعة « وينوع من صداقاته ، ويحب أن يكون محبوباً بين أقرانه
- ٢٩- نشيط ويمتلئ بالحياة ، ومثقال .
- ٣٠- واقعى وموضوعى في أحكامه « وقادر على التفكير المجرد « ويتميز بالطلاقة.الفوية .
- ٣١- يبدأ الدخول في عالم المثالية في تفكيره .
- ٣٢- سعيه ويعتمد على نفسه .
- ٣٣- ولاء للأصدقاء .
- ٣٤- مستعد لتحمل المسؤوليات التي تلقى على عاتقه .

(م ١٧ — الطفولة والمراهقة)

البنون
يفضلون صداقة الصبيان
البنات
اهتمام بالبنين ولكن الاهتمام الأكبر بالصديقات من
نفس السن .
١٥ سنة

-- يبدو عليه عدم الاهتمام .
-- يبدو عليه الخمول والكمال ، ولكنه في الواقع مشغول بأنفعالاته الداخلية .
-- تتكون لديه حساسيات ومضايقات ومقاومات وتقززات وشكوك جديدة .
يتم بالتفاصيل .
أهدأ في نظرتة إلى نفسه وفي إدراكاته .
يحتفظ في نفسه بالأحقاد والرغبة في الانتقام والمنف .
-- تزداد نزعة للاستقلال .
يشعر بأنه كبير « ولا يرغب في أن يعامل كطفل .
ينزع إلى الوحدة في المنزل » ويرغب في التخلص من سلطة الأبوين .
يشعر بالولاء للمنزل ، ولكن اهتمامه يكون أكبر بالأصدقاء .
يتأثر بصفوة الجماعة ، وينزع إلى مصاحبة الجماعات غير الرسمية من الجنسين ،
يفقد النزعة إذا واجهته مواقف صعبة .
متشوق لخبرات جديدة .
حساس لنواحي النقص فيه .
شاب معقد .

يتوصل إلى الاستقلال .
أكثر تقبلا للواقع .
يجب أن يشعر أنه واسع الإدراك .
يحضر حفلات متعددة مع أصدقائه .
يتجاوب مع والديه وأشقائه .
يجب المرح والضحك .

— ٢٥٩ —

- يتطلع إلى المستقبل .
- مستعد للحديث عن الزواج بجدية .
- تقل حساسيته لمشاكله .
- تقل نواحي القلق عنده ، ولا يتقلب مزاجه - ونادراً ما يبكي ، ويتحكم في غضبه .
- يبدو مرشحاً اجتماعياً متوافقاً .
- يراعى شعور الآخرين واللوق في معاملتهم .
- يعترف بأهمية القواعد السلوكية المكتوبة وغير المكتوبة .

البنات	البنون
الصدقات العميقة بين البنات .	تقوم الصدقات بين البنين على أساس
النزعة إلى الميول المنزلية - الاهتمام	الميول المشتركة في نواحي النشاط كالرياضة
بالزواج أو المستقبل المهني أو كليهما .	.. إلخ .
	الاهتمام بالمستقبل المهني . الترحيب بفرص
	العمل في أوقات الفراغ .

خصائص هذه المرحلة عند جنكيز

(من سن ١٣ - ١٨)

- تحقيق للور الذات ولعب الولد للور الرجل ولعب البنت للور الأنثى .
- الرغبة في التعرف وجمع المعلومات عن الجنس الآخر وتكوين علاقات معه .
- الرغبة في التشبه بالأصدقاء . وكرهية التظاهر بالاختلاف .
- البحث عن الميول المهنية المادقة .
- الرغبة في الاستقلال عن الوالدين ، والاعتماد على النفس .

العمليات الارتقائية في هذه المرحلة

(من ١٢ إلى ١٨ سنة)

- ١ - التوصل إلى علاقات جديدة أو أكثر نفسجاً مع القراء من الجنسين .
- ينظر إلى الفتيات كفتيات ناضجات وإلى الفتي كرجال ، يتصرف كشخص بالغ بين البالغين ، يتعلم العمل مع القدير في سبيل هدف مشترك متجاهلاً مشاعره الخاصة ، يتعلم القيادة دون سيطرة ديكتاتورية .

- - لعب الدور المناسب للجنس .
- تلمب البنات دورها كأثى ويلعب الولد دور كرجل بما يتناسب ومعايير الثقافة .
- ٧ - تقبل الفرد لجسه واستخدامه بكفاءة .
- يصبح فخوراً بجسمه أو هل الأقل متقبلاً له ■ مع استخدامه بكفاءة وحرصه على سلامته .
- - التوصل إلى الاستقلال العاطفى من الأبوين والبالين .
- الحرر من التعلق الطفل بالوالدين ، تنمية حبه لوالديه دون الاعتماد عليهما . تكوين الاحترام اللازم لكبار دون اعتماد عليهم .
- ٥ - محاولة الاستقلال الاقتصادى .
- الشعور بقدرته على كسب العيش إذا أراد أو اضطرته الظروف . وهذه مهمة بالنسبة الولد ■ وبدأت زهاده أهميتها لفتاة ■
- ٦ - اختيار مهنة والاستعداد لها .
- اختيار المهنة التى يشعر أنها تناسب قدراته والاستعداد لها .
- - الاستعداد للزواج وتكوين أسرة .
- تكوين اتجاه إيجابى نحو الحياة الأسرية وإنجاب الأطفال . وفيما يتعلق بالبنات بالذات الحصول على المعلومات الضرورية الخاصة بالشئون المنزلية وتربية الأطفال .
- ٨ - تكوين المهارات الضرورية والمفاهيم المتعلقة بالمواطنة والواجبات أو الحقوق المدنية .
- تكوين مفاهيم من القانون ، والحكومة ، والاقتصاد ■ والسياسة ■ والجغرافيا ، والطبيعة البشرية ■ والنظم الاجتماعية التى تناسب المجتمع الحديث . وتكوين المهارات اللغوية والعقلية الضرورية لتناول المشكلات الاجتماعية .
- ٩ - تكوين السلوك الاجتماعى المناسب .
- المساهمة كمضرب بالغ فى مشاكل بيئته ومجتمعه ووطنه مع مراعاة القيم السائدة فى المجتمع .
- ١٠ - تكوين مجموعة من القيم والاتجاهات الخلقية التى يمتثل بها فى سلوكه .



بحوث عن الشباب :

ونختتم هذا الفصل ببحثين تما في أمريكا على عينات من الشباب في سن المرحلة الثانوية ويعتبران من أكبر وأضخم البحوث في العالم . لعل القارئ يستطيع أن يتبين منهما مانحن في حاجة ماسة إليه من بحوث جادة مثيلة عجز الأفراد وعجزت الهيئات عن القيام بها .

١ - دراسة مشروع الموهبة : (جون فالانجان) .

يعتبر هذا أكبر بحث من نوعه في العالم ، وهو عبارة عن دراسة طويلة تتبعية لا زالت مستمرة منذ أن بدأت في سنة ١٩٦٠ ، والدراسة عبارة عن محاولة لحصر قدرات واستعدادات الصبيان والبنات في المدارس الثانوية الأمريكية على المستوى القومى لمحاولة الربط بين هذه القدرات والاستعدادات وتكيف هؤلاء الشباب - ففي مارس سنة ١٩٦٠ تم اختيار عينة طبقية عددها ٤٤٠,٠٠٠ طالب من ١٣٥٣ مدرسة ثانوية منتشرة في كل أنحاء البلاد . طبقت على الطالب في بحر يومين بطارية من الاختبارات في المعلومات العامة ، واللغة الإنجليزية ، وفهم القراءة ، وتذكر الكلمات والجمل ، والعمليات الحسابية ، والمسائل الحسابية ، والابتكار وما إلى ذلك ، كما تم الحصول على معلومات عن خلفية التلميذ وخططه المستقبلية بما في ذلك خبراته ، وعاداته في المذاكرة ، وأسرتة . هذا بالإضافة إلى أنه كانت هناك محاولة لتقرير ميوله نحو النشاطات والمهن المختلفة - كما جمعت المعلومات المفصلة عن براعة الإرشاد النفسى ، وأنواع المناهج والممارسات التربوية في مدارس الدولة لتقرير ماهو متوقع من الطلاب الموجودين في المدارس الثانوية ، ووضعت خطة الدراسة على أساس تتبع أفراد العينة بعد حصولهم على الشهادة الثانوية بعد سنة ، وبعد خمس سنوات ، وبعد عشر سنوات ، وبعد عشرين سنة ، ومحاولة الربط بين المعلومات التى يتم الحصول عليها في سنة ١٩٦٠ ، وقد أظهرت نتائج الدراسة التتبعية الأولى والدراسة التتبعية الثانية - أن الهدف من هذه الدراسة هو الحصول على معلومات للارتقاء بالممارسات والسياسات التعليمية والخبرات التربوية التى تؤدى بالتلميذ إلى تحقيق إمكاناته بالكامل .

فهناك اعتقاد بأن كثيراً من التلاميذ لديهم مواهب خاصة تبشر بالكثير ولكن لا تستغل ولا تتم تنميتها . وتهدف الدراسة إلى اكتشاف هذه الإمكانيات الكامنة حتى يتمكن التلميذ من استغلالها استغلالاً أفضل . وهناك أمل في أن تسهم الدراسة في الارتقاء بمستوى عملية تحديد وتنمية واستغلال المواهب للكامنة في شباب الأمة . ويمثل هذا المشروع أكبر دراسة تربوية مسحية شاملة في كل العصور ، والفضل ولاشك يعود إلى استخدام الحاسبات الالكترونية الحديثة والتي بدونها ما كانت دراسة بهذا الحجم تتم . وتسمح المعلومات الضخمة في المشروع بقيام التحاليل المتعددة في داخل المشروع كما أنها في متناول الباحثين الآخرين للقيام ببحوث خاصة بهم .

ومن الدراسات المكتملة لهذه الدراسة قيام دونالد سوبر بدراسة التخطيط للمستقبل في محاولة لبلورة عملية النمو المهني ، وهي دراسة طويلة تهتم بالمظاهر المختلفة للنمو المهني مع الاهتمام بالمضامين المهنية ومظاهر مفهوم الذات ، إذ تعطي الاهتمام لإيضاح العملية التي من خلالها تؤدي مراحل الحياة . والعمليات الارتقائية ، والاتجاهات النفسية ، والسلوك المهني الاستكشافي إلى النضج المهني والتكيف . (عن مولى ١٩٧٠ ص ٤٤٣ - ٤٤٤) .

٢ - تقرير كولمان :

إن المجتمع الأمريكي دون أدنى شك مجتمع طبقي عنصري متعصب ضد الأقليات سواء الدينية أو الملونة أو العرقية . والأقليات تعيش في الأحياء الشعبية يضرب عليها الفقر والحرمان والقهر . ويقود بعض علماء الاجتماع والنفس ورجال التربية الثورة ضد هذه التفرقة والحث على القيام بالإصلاح بما يسمى الثورة ضد الفقر . وفي سنة ١٩٦١ نشر جيمس كونانت Conant كتاباً بتمويل من مؤسسة كارنيجي عنوانه « الأحياء الشعبية والضواحي » Slums & suburban areas يقارن فيه بين أبناء الأحياء الشعبية التي تضم الزنوج وأبناء المطحونين في مدارسهم وأبناء الضواحي من البيض في النواحي التي يسكنها عادة أبناء الطبقة الممتازة في مدارسهم « وكان في رأيه أنه

لافاائدة من الصرف على أبناء الفقراء والزنوج - والأفضل توجيههم مهنيًا من مرحلة مبكرة - وقد تصدى له كينت كلارك Clark (١٩٦٣) في كتاب له عنوانه «التربية في المناطق المسحوقة Education in deprived areas» وكان أول طعن في كونانت الذي اعتبر مشكلة مدارس الزنوج « ديناميت اجتماعي » كتبه كلارك هو أن كونانت حقًا كيميائي وعيد كلية ومن رجال السياسة ولكنه ليس عالم تربية أو عالما من علماء الاجتماع .

كان كونانت قد ذكر في كتابه أن أبناء السود يتكون المدرسة في السنة التاسعة التي تعادل عندنا الثالثة الإعدادية والسنة العاشرة والحادية عشرة وتعادلان عندنا السنتين الأولى والثانية الثانويتين ، وأن ما يصرف على المدارس في الأحياء الشعبية أقل بكثير مما يصرف على مدارس أبناء الطبقة المحظوظة . واقترح بأن أبناء الأحياء الفقيرة يجب أن تهيأ لهم التربية المهنية والعملية للحصول على عمل مبكرًا - بينما يهيأ لأبناء الطبقة المحظوظة في الضواحي التربية الأكاديمية التي تناسب ومستوى ذكائهم .

لقد كان كلارك عنيفاً في هجومه وعزا ما يعاني منه أبناء الطبقات المحرومة إلى شعورهم بالضعفة والاحتقار الذاتي المعاملة المجتمع لهم ، وأن شعورهم بالانزامية يؤدي إلى خفض مستوى طموحهم ، وأن على المدارس أن توفر لهم الظروف التي تهيء لهم تكوين صورة إيجابية عن الذات وتقدير إيجابي لها ، واقتلاع الشعور بالضعفة منهم والشعور باليأس ، وأن تكون المدارس مختلطة للبيض والسود بدلا من المدارس التي تعزل بينهم .

لقد مهد هذا الجدل للبحث الذي قام به كولمان ، ويعتبر من حيث الضخامة والحجم تاليا لمشروع الموهبة ، وتكلف ما يقرب من مليون وربع مليون من الدولارات . وهو بحث مسحي استمر ستين قام فيه كولمان وهو عالم اجتماع مع مساعديه بدراسة عينة من تلاميذ المدارس قوامها ٦٠٠,٠٠٠ تلميذ و ٦٠,٠٠٠ معلم في (٤٠٠٠) أربعة آلاف مدرسة في ٥٠ ولاية . جمعت المعلومات من المعلمين كما طبقت عليهم اختبارات - كما جمعت المعلومات من نظار المدارس ، وكان التلاميذ يمثلون الصفوف ١ ، ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١٢ .

ولم يقتصر كولمان وزملاؤه على جمع المعلومات عن الأموال التي تصرف على كل تلميذ ومؤهلات المعلمين ، وعمر المبنى المدرسي ، وعدد الكتب في المكتبات وما إلى ذلك لمحاولات الربط بين ما يصرف على التلميذ وطبقته الاجتماعية ولونه ، ولكنهم تعدوا ذلك إلى محاولة قياس الناتج بتطبيق اختبارات تقيس المهارات اللغوية ، والقراءة ، والمهارات الحسابية والتحليلية في مستويات الدراسة المختلفة ، ووسعوا من مجال الدراسة لتتضمن مدى عريضاً من المعلومات الاجتماعية التي تتراوح من التكوين الاجتماعي للتلميذ إلى المستوى العلمي للآباء وإنجازاتهم ومستويات طموحهم بالنسبة لأبنائهم .

النتائج :

(١) يدخل أبناء الأقليات المدارس ليتخلفوا عن البيض في التحصيل ويظلون في نخلهم حتى نهاية المرحلة الثانوية بفارق يعادل ما بين ثلاث سنوات إلى خمس سنوات .

(٢) أن ماترود به المدارس من معلمين وكتب ومبان وأماكنيات أثره على التحصيل أقل بكثير من أثر الخلفية الأسرية للتلاميذ وبيئتهم الاجتماعية .

(٣) أن أهم العوامل ذات الدلالة هو الاتجاه النفسي للتلاميذ نحو أنفسهم . فحين يحس التلاميذ أنهم السيطر على بيئتهم وعلى مصيرهم فإن تحصيلهم يزداد فالزنج الذين يكون لديهم هذا الشعور الإيجابي يكون تحصيلهم أعلى من تحصيل البيض الذين لا يكون لديهم هذا الشعور .

(٤) إن التكامل على أساس العرقية والطبقة يؤدي إلى تحسين الأداء في بعض الظروف . فإذا كان عدد التلاميذ البيض في المدرسة ٥٠٪ أو أكثر وعدد تلاميذ أبناء الطبقة الوسطى ٥٠٪ أو أكثر فإن تحصيل أبناء الأقليات يرتفع دون أثر عكسي على الغالبية ، ويعاني كل من التلاميذ البيض وأبناء الأقليات في التحصيل إذا انخفضت نسبة البيض إلى أقل من ٥٠٪ (النتائج من كتاب كلارتيو وزملائه - القضايا المعاصرة في علم النفس التربوي ص ٦٧٢ - ٦٧٦) .

ملخص

تمتد مرحلة المراهقة من سن التاسعة أو العاشرة حتى سن الثانية عشرة والثالثة عشرة ويقصد بها المرحلة التي تسبق النمو الجنسي . أما المرحلة من سن ١٣ إلى سن ٢١ فتسمى بمرحلة الفتوة أو مرحلة الشباب الأولى . وفي نهايتها يتحمل الفرد المسؤولية المدنية . أما المرحلة من سن ٢١ إلى سن ٣٠ فتسمى بمرحلة الشباب الثانية أو مرحلة الرشد .

ويعتري الشاب في هذه المرحلة مرحلة الشباب الأولى من النمو تغيرات جسمانية وعقلية واجتماعية تصحبها مشاكل تميز هذه المرحلة عن غيرها من مراحل النمو .

كما تتميز مرحلة الشباب الأولى بمشاكلها نتيجة لحاجات الفرد وضغوط المجتمع عليه إذ لم يعد طفلاً ، وهو في نفس الوقت ليس بالبالغ ويحرمه المجتمع حقوق البالغين .

وقد اختتمنا الفصل ببحثين عن الشباب هما دراسة مشروع الموهبة وتقرير كولمان .



الفصل الثالث عشر

إتجاهات وبحوث حديثة

١ - الجنين في داخل الرحم

اهتمت كثير من البحوث في الآونة الأخيرة بأثر بيئة الرحم على الجنين .
فبينت آثار تغذية الأم ، وتعاطي العقاقير ، والمرض ، وعدم تكافؤ فصائل
الدم ، وممارسة العملية الجنسية أثناء الحمل وغير ذلك من العوامل .

(أ) لقد بينت البحوث أهمية التغذية الجيدة للأم الحامل . إذ بينت
البحوث مثلاً أن وزن الطفل عند الولادة لا يتأثر بطول الأم كما كان الاعتقاد
سائداً ولكنه يتأثر بوزنها قبل الحمل ، وما اكتسبته من وزن أثناء الحمل
هذا بالإضافة إلى أن وزن الطفل يتأثر بالطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الأم ،
لأن الطبقة الاجتماعية تعتبر أحسن مقياس لنوع التغذية للأم . وقد أجرينا هذه
البحوث بفئات الأمهات الحوامل اللائي يعانين من سوء التغذية ، وما في ذلك
من خطورة على الجنين ، ومدى حاجة هؤلاء الأمهات لمزيد من الغذاء الجيد
أثناء الحمل إذا ما كان وزنه عادياً قبل الحمل أو كان أقل مما يجب . وبين
الجدول التالي(*) خطورة الحمل لفئات الأمهات اللائي يعانين من سوء التغذية .

١ - الأمهات المراهقات خاصة غير المتزوجات .

٢ - النساء اللائي يعانين من نقص الوزن قبل الحمل .

٣ - النساء اللائي لا يزيد وزنه بدرجة كافية أثناء الحمل .

G Chishakis (Ed) Maternal nutritional assessment. (*)
American Journal of Public Health. 63 . Supplement.
1973. pp. 57 - 63.

٤ — النساء ذوات الدخل المحدود أو اللائي تمثل التغذية لمن مشكلة اقتصادية .

٥ — النساء اللائي تكرر حملهن .

٦ — النساء اللائي إعتدن ولادة أطفال ناقصي الوزن .

٧ — النساء اللائي يعانين من امراض تؤثر على الحالة الغذائية كالسكر والسل ، وفقر الدم ، وادمان المخدرات ، والخمر أو الانحطاط العقلي .

٨ — النساء ذوات الأمزجة الخاصة لأنواع معينة من الطعام .

(ب) أما عن تعاطي العقاقير فقد كتب أحد الباحثين في سنة ١٩٦٦ مصورا أثر أحدها بطريقة دراماتيكية كما يلي : بدأ ظهورهم في سنة ١٩٦٠ . أهم أطفال أتوا إلى هذا العالم بدون أذرع وبدون سيقان ، أو بسيقان وأذرع صغيرة تثير الرثاء ولا فائدة منها . وكان بعضهم مصابا بعاهات في البصر أو السمع . إذ كانوا يفقدون العينين والأذنين ، ووقع البعض ضحية لتشوهات خلقية أخرى . وأصاب الباحثين الفرع . وأخيرا ربطوا بين هذه التشوهات وعقار مهديء تبدو فيه البراءة هو عقار الثاليدومايد كانت الأمهات يتناولنه في الفترة الأولى من الحمل . ويشير هؤلاء الأطفال الذين أصبحوا الآن مراهقين وبالغين بعاهاتهم فأصبح الاتهام إلى ما قد يلحق الجنين في الرحم من آثار العقاقير .

ويعرف الأطباء الآن أن بعض العقاقير لها ضررها . يدخل في ذلك المضادات الحيوية مثل الاستربتومايسين والتتراسيكلين والكميات الزائدة من فيتامينات أ ، ب ٦ ، ج ، د ، ك ومستخرجات الأفيون وبعض الهرمونات بما في ذلك البروجستين ، والأندروجين ، والاستروجين الصناعي .

(ج) التدخين : من النتائج القاطعة أن الأمهات المدخنات يلدن في العادة أطفالا ناقصي الوزن وان كان بعض الباحثين لا يعزون هذا إلى التدخين بطريق مباشر إذ يرون أن الأم التي تدخن تعاني عادة من سمات في الشخصية مثل القلق مما قد يؤثر على وزن الطفل . كما بين بحث حديث في السويد (١٩٧٩)

أن هناك علاقة بين تدخين الأم وولادة أطفال بشفاء أرنبية وسقف حلق مشقوق . ويؤثر إدمان الأم على التدخين على أداء الأطفال فيما بعد في التعلم وعلى اختبارات الذكاء .

(د) إدمان الخمر : تمكن العلماء في سنة ١٩٧٣ من تحديد مجموعة أعراض أجنة الخمر Fetal alcohol syndrome أى الأطفال الذين يولّدون من أمهات كن يعاقرن الخمر أثناء الحمل منها التخلف في النمو إذ كان الأطفال أصغر من الحجم الطبيعي عند الولادة ، ولا يستطيعون الاكتمال فيما بعد . ومن الأعراض أيضاً التخلف في الذكاء وفي النمو الحركي . كما كانت الرؤوس تتميز بصغر الحجم . مع وجود إصابات في القلب ، ومظاهر شاذة في شكل الوجه وفي المفاصل وكانوا كأطفال حديثي الولادة يعانون من أعراض الحرمان من الخمر كالرعشة ، والشعور بالضيق والنوبات التشنجية والانفخات البطنية

وقد بينت دراسة تمت سنة ١٩٨٠ أن عددا من هؤلاء الأطفال في المدرسة كان يعاني من التعثر في الدراسة رغم الذكاء العادي.

(هـ) إدمان المخدرات : تبين أن الأمهات اللاتي يدمن المورفين أو الهيروين أو الكودايين غالباً ما يلدن أطفالاً أقل وزناً أو يموت الجنين في الرحم أو بعد الولادة مباشرة . كما أن الأجنة تصاب بالإدمان في داخل الرحم إذ تبدوا عليهم بعد الولادة آثار الحرمان من المخدر كالشعور بعدم الراحة ، والضيق والأرق ، والتأوب ، والعطس ، والرعشة ، والتشنجات والحُمى ، والقيء (فركر وسيجال ١٩٧٨) (٥) .

وعلى الرغم من أنه يمكن شفاء الأطفال من الإدمان إلا أن الإدمان قد يكون له آثاره النفسية فيما بعد .

(*) H. FricKer & S. Segal Nareohic adoliehion ,pregnancy & the newborn American Bournl of the Diseases of Children, 1978, 1978, I32 , 360 - 366

(د) أمراض الحامل : في الفترة ما بين ١٩٦٤ - ١٩٦٥ انتشر وباء الحصبة الألمانية في الولايات المتحدة فأدى إلى وفاة ٣٠,٠٠٠ جنين في الرحم أو عند الولادة مباشرة . وقد تبين أنه إذا أصيبت الحامل بهذا المرض خلال الأشهر الأربعة الأولى من الحمل فغالبا ما يولد الطفل بعاهة إذ قد يعاني من إصابات في البصر أو السمع والتخلف العقلي وإصابة الجهاز العصبي المركزي، وإصابات في القلب ، وتخلف في النمو .

ويعاني واحد من كل أربعة في الولايات المتحدة من مرض يسمى توكسوبلازيموس *Toxoplasmosis* . ويمر هذا المرض دون أن يلفت النظر لأنه لا يكون عادة مصحوبا بأعراض ، أو أن أعراضه تشبه الإصابة بالبرد . إذا أصيبت الحامل بهذا المرض فقد يؤدي إلى إصابة الطفل بتلف في المخ أو العمى بل والموت . وتأتي الإصابة بهذا المرض من أكل اللحوم النيئة أو غير المطبوخة جيدا أو من براز القطط . لهذا يجب أن تتجنب الحامل أكل اللحوم النيئة والتعامل مع القطط .

ويبدو أن الأمراض التي تتعرض لها الامهات أثناء الحمل كالسل وأمراض الجهاز البرلي من ضمن الأسباب التي تعزى إليها العاهات التي يصاب بها الأطفال ومن المعروف إن إصابة الحامل بالزهري غالبا ما يؤدي إلى الأجهاض أو إصابة الطفل بالضعف العقلي .

(هـ) الممارسة الجنسية : كان الأطباء وإلى عهد قريب يرون أنه لا ضرر من ممارسة الجنس أثناء الحمل ، اللهم إلا إذا كانت الزوجة قد تعرضت للاجهاض أثناء الحمل إلا أن البحوث قد بينت أن ممارسة الجنس خلال الثلاثة أشهر الوسطى من الحمل وخلال الثلاثة أشهر الأخيرة قد يؤدي إلى الإصابة بعدوى ، أو عدم اكتمال فترة الحمل بل وموت الطفل . ففي أكبر دراسة للنساء الحوامل تمت في أمريكا على ٢٦٨٨٦ امرأة تبين أن النساء اللاتي مارسن الجنس مرة واحدة أو أكثر خلال الشهر الأخير من الحمل زادت نسبة إصابة السائل الأمنيوني عندهن بأمراض معدية عن غيرهن ممن امتنعن عن ممارسة الجنس . وتعتبر هذه الإصابات مستولة عن معظم وفيات الولادات

الحديثة في الولايات المتحدة ، لأن الإصابة إما أن تؤدي إلى نزلات شبيهة أو تسمم الدم أو لأنها تؤدي إلى ولادة قبل الميعاد .

ويبدو أن كثيراً من الإصابات بالعدوى تنتقل إلى الأم عن طريق الحيوان المنوى بالرجل . ومن الممكن الوقاية باستخدام الواقي الذكري .

وهناك ما يشير إلى أن حمامات البخار وحمامات الماء الساخن التي ترفع درجة حرارة الجسم قد تؤدي إلى إصابة الجنين بالعاهات إذا تم هذا في الأسابيع الأولى من الحمل (هارفي ١٩٨١) .

٢ - الطفل في المهد

(أ) موت الأطفال الفجائي :

يموت طفل من بين كل ٥٠٠ طفل في الولايات المتحدة فجأة دون سبب ظاهر . يكون الطفل عادة في صحة جيدة . ينام في مهده ، تذهب الأم للاطمئنان عليه فتجده ميتا . ويحدث هذا للأطفال ما بين سن شهر وسنة . ونادراً ما يحدث ذلك بعد السنة الأولى من العمر . ولا يعرف أحد سبب ذلك حتى الآن . وهذه الظاهرة موجودة منذ القدم وفي كل المجتمعات . ويعزو الآباء السبب إلى احتمال اختناق الطفل في لفافته أو تحت غطاءه . وتشير البحوث الحديثة إلى عدة عوامل محتملة ولكنها ليست قاطعة .

ان ما يعرفه الباحثون هو أن هؤلاء الأطفال عادة من الذكور ، وهم متأخرون في ترتيب الولادة بالنسبة للإخوة ، ويموتون خلال ساعات النوم العادية ، وفي الطقس البارد . والأمهات في العادة صغيرات السن ، مستواهن العقلي منخفض ، ولم يتم فحصهن طبياً أثناء الحمل ، ويعشن في أماكن مزدحمة ، ومستوى الجيرة منخفض اقتصادياً واجتماعياً .

وكان الاعتقاد السائد بأن هؤلاء الأطفال في صحة جيدة . إلا أن هناك ما يدل على أن الأمر ليس كذلك إذ أن كثيراً منهم ولد قبل الميعاد ، وأنهم أقل وزناً عما هو متوقع ، وأن كثيراً منهم وضع في وحدات العناية المركزة

عند الولادة وأنه يوجد اختلافات تكوينية بينهم وبين الأطفال الآخرين كما بين التشريح بعد الوفاة . والاختلافات في الجهاز التنفسي والدورة الدموية واضحة ومن تقرير الأمهات في إحدى الدراسات ذكرت الأمهات أن الأطفال كانت استجاباتهم للمؤثرات البيئية ضعيفة ، وكانوا أقل نشاطاً وكان الاجتهاد يعجزهم أثناء الرضاعة ويكون بطريقة غريبة . والخلاصة أن هناك احتمالاً بأن هؤلاء الأطفال قد ولدوا بنقص في الجهاز التنفسي وفي تنظيم الحرارة وفي المضم والوظائف العصبية أو في الجهاز العصبي المركزي .

(ب) حواس الطفل في المهد :

اتخذ الباحثون طرقاً أربعة للبحث عن قدرات الطفل في المهد هي : ملاحظة الأطفال عن قرب وتسجيل مشاهداتهم ، الاعتراف بأن للأطفال أمزجة مختلفة وأنهم يسلكون بأشكال يمكن التنبؤ بها ، وملاحظة استجاباتهم لمنبهات معينة نستنتج منها أن لهم قدرات حسية وإدراكية ، وملاحظة كيف يستخدمون استجاباتهم الحركية مما يدل على القدرة على التعلم . وأشغل الباحثون خيالهم لابتداع الطرق التي يمكن بها دراسة سلوك الأطفال مستخدمين في ذلك التكنولوجيا الحديثة كاشطرة الفيديو والحاسبات الآلية وما إليها . وقد بينت البحوث أن الطفل منذ ولادته كائن حي فعال وكفاء .

فالطفل عند الميلاد تطرف عيناه أمام الضوء الساطع ، ويستطيع أن يتتبع بناظريه هدفاً متحركاً ، وأن الرؤية عنده تكون في أحسن صورها إذا كان المرتئي على بعده ٧ بوصات . ويصبح بصر الطفل في قوة بصر البالغين في الفترة ما بين سن ستة أشهر وسنة .

ويستطيع الأطفال تمييز الألوان مبكراً في سن ثلاثة أو أربعة أشهر إذ يستطيع أطفال الأربعة أشهر التمييز بين الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر ويفضلون اللون الأحمر .

ويستطيع الأطفال من سن مبكرة إدراك العمق ففي سنة ١٩٦٠ قام ووك وجبسون WALK Gibson بتصميم لوحة كلوحة الشطرنج ينخفض نصفها

عن النصف الآخر مغطاة بلوح من الزجاج . ويوحى الفارق في الارتفاع بالعمق كان الطفل يزحف على النصف المرتفع حتى إذا ما وصل إلى النصف المنخفض توقف عن الزحف ورفض الاقدام حتى للملافة أمه . وكان عمر أطفال هذه التجربة في سن ستة أشهر . وتمكن بعض الباحثين من بيان هذا الادراك عند أطفال في عمر شهرين وثلاثة (كامبوس وآخرون ١٩٧٠) .

وقد بين فانتز Fantaz وآخرون (١٩٧٥) أن الأطفال لديهم أفضليات لما يحبون التطلع إليه إذ يفضلون الخطوط المنحنية على الخطوط المستقيمة ، والألوان على الأسود والأبيض ، والانماط المعقدة على الانماط البسيطة ، والأشكال ذات الثلاثة أبعاد على الأشكال ذات البعدين ، وصور الوجوه على غيرها ، والمناظر الجديدة على المناظر المألوفة .

والطفل منذ الساعات الأولى بعد الولادة حساس لبعض مظاهر الصوت إذ تزداد دقات القلب عند سماع أصوات معينة كما تزداد حركته بازدياد حدة الصوت . ويستطيع الأطفال في سن عشرين يوما فقط تمييز صوت الأم من أصوات غيرها دوكاسبر وفايفر De Carper & Fifer (١٩٨٠) ويستطيع حديثو الولادة التمييز بين الروائح المختلفة ليزر وآخرون Reisoreral (١٩٧٦) .

ويستطيع الأطفال حديثو الولادة التمييز بين مذاق الماء القراح ومحلول الجلوكوز الحلو (وفنباخ وآخر ١٩٧٥) .

(ج) النمو المعرفي :

تحتل نظرية بياجيه عن النمو المعرفي والتي سبق شرحها أهمية كبرى حاليا في تفسير النمو المعرفي للطفل في مراحل نموه ، ونموه الحركي في سنوات المهد . إذ أن المرحلة الأولى للنمو عنده والتي تستغرق من الميلاد حتى سن ستين تقريبا تسمى بالمرحلة الحسية الحركية . وهذه المرحلة بدورها تنقسم إلى مراحل متتالية .

فى الشهر الأول يستخدم الطفل أفعاله المنعكسة التى ولد مزودا بها للتفاعل مع بيئته . فالطفل يقوم بعملية المص إذا ما تمت مداعبته بلمس أصبع لحدته ثم تصبح عملية المص عملية آلية يقوم بها الطفل كلما جاع . وهو فى هذه العملية ليس كائنًا سلبيا ولكنه كائن نشط قادر على المبادرة والقيام بنشاط :

تلى هذه المرحلة مرحلة الاستجابات الأولية الدائرية التى تمتد من شهر إلى أربعة أشهر « إذ يقوم الطفل مثلاً بمص أصابعه عن قصد بعد أن أدخل أصبعه بالصدفة فى فمه ، وقام بمص أصبعه كرد فعل طبيعى فوجد فيه لذة . وبهذا اكتسب الطفل سلوكيات تلاؤمية « وتصبح عملية المص عملية لدية « إذ يمص أى شئ للتغذية أو للتسلية . وفى هذه المرحلة يتم له التنسيق بين ما يرى وما يمسك .

واستمرارية الأشياء لا وجود لها عنده خلال هاتين المرحلتين . فالأشياء لا وجود لها إذا توقفت عن أن ترى أو تشم أو تسمع أو تحس .

وتبدأ مرحلة ثالثة بين الشهرين الرابع والثامن تسمى بمرحلة الاستجابات الدائرية الثانوية . وتمثل هذه المرحلة بداية الأفعال المقصودة . وفى المرحلة الثانية كان الطفل يقوم بفعل الشئ للذة ذاتها ، أما الآن فإنه يهتم بالفعل لاهتمامه بنتائج ما يفعل . إذ تعلم بالصدفة أشياء أثناء تحريكه ليديه ، ثم يكرر هذه الأفعال ليتعرف على نتائجها . ولا يكون التركيز هنا على جسمه ولكن يبدأ الاهتمام بالأشياء الخارجية . ويكون للأشياء فى هذه السن استمرارية جزئية عنده « إذ يبحث الطفل عن أشياء لا يرى إلا أجزاء منها ولكن لا يبحث عنها إذا اختفت تماما .

وما بين سن ثمانية أشهر و ١٢ شهرا تبدأ مرحلة رابعة تسمى مرحلة التنسيق بين الأفكار الثانوية وتطبيقها فى مواقف جديدة : إذ يستطيع الطفل فى هذه المرحلة استخدام الإستجابات التى سبق له تعلمها لحل مشكلات جديدة ، وتصبح أفعاله هادفة . ويبدأ الطفل فى هذه المرحلة الاحتفاظ فى

ذاكرته بالأشياء . ويستطيع الطفل في نهاية هذه المرحلة البحث عن أشياء اختفت عن ناظره .

وعند المرحلة الخامسة من سن ١٢ شهرا إلى سن ١٨ شهرا وتسمى مرحلة الاستجابات الدائرية من المرتبة الثالثة . وهذه هي المرحلة المعرفية الأخيرة التي لا تتضمن صوراً عقلية للأحداث الخارجية أو التي يسميها تفكيراً ، ولكنها الأولى التي تتضمن نشاطات جديدة . إذ أن الطفل يقوم باكتشافات عرضية تؤدي إلى شعور باللذة ، ولكن لا يقوم بتكرار هذه الاكتشافات حرفياً ، إذ أن الطفل ينوع فيها كلما قام بتكرارها . وبذلك يحاول التعرف على أحسن الطرق للوصول إلى هدف ويتعلم بالمحاولة والخطأ ويتوصل إلى القيام بأفعال تتطلب الذكاء العقلي .

ورغم أن الطفل في هذه المرحلة يستطيع أن يحتفظ في ذاكرته بالشئ الذي يختفي إلا أنه لا يستطيع تصور حركات لا يراها . فإذا قام الأب بوضع دمية في يده ثم أخفاها تحت الوسادة ، وتركها هناك ، وأخرج يده مغلقة ، فإن الطفل لا يعن له البحث عن الدمية تحت الوسادة ، ولكنه يحاول البحث عنها في يد والده .

فإذا ما حلت المرحلة السادسة من سن ١٨ شهرا إلى سن ٢٤ شهرا والتي تسمى بمرحلة اختراع الأساليب الجديدة عن طريق تركيبات عقلية . يستطيع الطفل أن يفهم طبيعة الأشياء والعلاقة بين ممرات مختلفة في فراغ ، وتقصى العلاقات السببية . ويستطيع تصور الأحداث في فكره ومطابقتها إلى حُلما . أي أنه يستطيع أن يفكر . ويصل في هذه المرحلة إلى الاحتفاظ الكامل في ذهنه بالأشياء ومعرفة مكانها إذا اختفت .

٣ - سن ما قبل المدرسة

(أ) مشروع جامعة هارفارد للأطفال ما قبل المدرسة :

حين يقوم عائق في طريق طفل معين فإنه يفكر في التحايل ويدور حول العائق ، وهناك طفل آخر حين يقوم أمام نفس العائق فإنه يتفجر في البكاء . والطفل الأول يعرف أين يبحث عن مفاتيح والده . بينما ينظر الطفل الثاني نظرة جوفاء إذا طلب منه إحضار المفاتيح . وهكذا نجد أن بعض الأطفال أكفأ من غيرهم في معالجة المشاكل اليومية . وانطلاقاً من المفهوم الإنساني لما زلوا عن تحقيق الذات قامت جماعة من الباحثين بجامعة هارفارد في سنة ١٩٦٥ بمشروع هارفارد لما قبل المدرسة . وكان الهدف هو معرفة كيف يتكون لدى الأطفال قدرات مواجهة المشاكل اليومية . وكيف يمكن استخدام هذه المعلومات لمساعدة الأمهات لأبنائهن (هوايت وآخرون ١٩٧٩) .

قام الباحثون في البداية باختبار وملاحظة حوالي ٤٠٠ طفل في سن ما قبل المدرسة وصنفوهم إلى أ ب و ج تبعاً للكفاءة . وهذا ما وجدوه :

كان أطفال الفئة أ يعرفون كيف يستحذون على انتباه الكبار بطريقة اجتماعية مقبولة ، وكيف يستخدمون هؤلاء الكبار كإمكانات ، وكيف يظهرن الحب والعداء . وكانوا قادرين على الانسجام مع غيرهم من الأطفال ويسرون بما يفعلون ، ويبدون رغبة في التصرف كالكبار . وكان استخدامهم للغة جيداً ، كما أفصحوا عن عديد من القدرات الفكرية ، إذ كانوا قادرين على التخطيط لعمليات معقدة وتنفيذها ، وكانوا قادرين على الالتفات لشئيين في وقت واحد . أما أطفال الفئة ب فقد كانوا أقل درجة في هذه المهارات ، بينما كان أطفال الفئة ج عاجزين فيها .

■ B. L. White. B. Kaban. and J. Attanuci. The origins of human competence. Lexington. Mass ; D.C. Heath. 1979,

قام الباحثون بتحديد الأطفال من الفئتين أ و ج ممن كان لهم إخوة أصغر منهم ، ثم أرسلوا ملاحظين إلى المنازل للتعرف على الفروق في البيئة المبكرة فوجدوا فروقاً كبيرة في الرعاية الوالدية ، وانتبهوا إلى أن الطريقة التي يعامل بها الأطفال في الفترة ما بين سن ستة وثلاث سنوات تقرر الكثير من الخصائص الأساسية لحياة الفرد كلها . وكان التركيز في هذه الدراسة على الأمهات على أساس أن تأثير الأب أقل لقضائه وقتاً كبيراً خارج المنزل .

كيف اختلفت أمهات الفئة أ عن أمهات الفئة ج ؟

في البداية يبدو أن معظم الأمهات يعاملن أطفالهن معاملة ماثلة . وما أن يتم الطفل ثمانية أشهر حتى تأخذ الفروق في الظهور . إزديداً الأطفال في هذه السن فهم اللغة ، وتصبح طريقة حديث الأم لها أهميتها . ويبدأ الأطفال في الحبو ، وهناك من الأمهات من يبعث هذا فيهن السرور وأخرى يبدن الضيق . ويتعلق الطفل بالشخص الذي يقضى معه معظم الوقت وتصبح شخصية هذا الفرد لها أهميتها .

كانت الأمهات في الفئتين من جميع المستويات الاقتصادية الاجتماعية مع وجود أمهات يعشن من المعونة الاجتماعية يقمن برعاية أطفال في الفئة أ وبعض الأمهات من الطبقة الوسطى يقمن برعاية أطفال في الفئة ج . ولكن غالبية أمهات الفئة أ كن من الطبقة الوسطى . ولا يضيع أبناء الطبقة الوسطى كثيراً من الوقت وهم جاوس دون القيام بعمل أى شيء . على عكس أبناء الطبقة الفقيرة . إذ كان أبناء الطبقة الوسطى يصرفون كثيراً من الوقت في اللعب التخيلي أو صنع أشياء أو التمرن على مهارات جديدة .

كانت أمهات الفئة ج خليطاً متنوعاً إذ كان بعضهم ممن يعرفهن تبار الحياة ، منازلهن فوضى ، وغارقات في كفاح يومي فلا يقضين وقتاً طويلاً مع أولادهن . بينما كانت أخريات تحوم حول أطفالهن بحماية زائدة وراغامهم على التعلم وجعلهم متواكلين . وكان بعضهم موجودات جسدياً دون القيام باتصال حقيقى بالأطفال ، ويبدو هذا لأنهن لا يجدن متعة في رفقة الأطفال .

وقد هيات هؤلاء الأمهات الماديات للأطفال ولكن تركتهم محصورين في المهدي أو داخل حاجر خشبي .

كانت وظيفة أمهات الفئة أ لمصمات ومستشارات . إذ صممن للأطفال بيئة آمنة مليئة بالأشياء التي تثير الاهتمام والتي ترى وتلمس على الرغم من أن هذه الأشياء كانت من أدوات المنزل المألوفة وفيها أيضاً لعب ثمينة . وكن دائماً على استعداد لتلبية نداء الطفل إلا أنهن لم يهبن كل حياتهن لهم . فبعضهن كانت لهم وظائف بعض الوقت ، أما ربوات البيوت فلم يعطين أكثر من ١٠٪ من أوقاآهن في تفاعل من الأطفال . إذ كن يقمن بأعمالهن اليومية ، ولكنهن كن دائماً على استعداد لتلبية نداء الطفل في ثوان أو دقائق عند الحاجة إليهن للإجابة عن سؤال ، أو تسمية شيء من الأشياء أو المساعدة في صعود السلم أو المشاركة في اكتشاف مثير . وكان اتجاه هؤلاء الأمهات نحو الحياة إيجابياً ، ويجدن متعة في رفقة الأطفال ، ويعطين من أنفسهن بسخاء . وكن نشيطات ، صبورات ، ويتحملن فوضى الطفل ، ومتفاضيات على ركوب المخاطر البسيطة . ولكن يتميزن بالصلابة والاضطراد في معاملة الطفل يضعن قيوداً معقولة مع إبداء الحب والاحترام له . وكن يستخدمن تحويل انتباه الطفل تحت سن السنة ، وتحويل الانتباه وإزالة الشيء ما بين سنة وستة ونصف ، ثم استخدام الأوامر الحاسمة بعد سن ١٨ شهراً .

وفيما يلي أهم نتائج البحث :

١ - أن أهم وقت لتأكيد نمو الطفل في الكفاءة يقع ما بين سن ستة أشهر أو ثمانية وسن سنتين .

٢ - أن أكفأ الأطفال هم من لهم علاقات اجتماعية وطيدة خاصة خلال الأشهر الأولى بعد الميلاد .

٣ - أن التفرغ الكامل لرعاية الأمومة ليس مهما . إن نوعية الوقت الذي يقضى مع الطفل وليس طوله هو الأكثر أهمية ويستطيع بدلاء الأم إثراء الخبرة الاجتماعية .

١ - ينمو الأطفال الذين يعرفون أنهم سوف يحصلون على مساعدة شخص بالغ بهم إذا ما احتاجوا إليها بدرجة أفضل من أولئك الذين لا يجدون رعاية منتظمة أو الذين ينظرون إليهم على أنهم عبء يجب التصرف حيالهم بسرعة.

٢ - من الجميل أن يتعلم الطفل كيف يجذب الانتباه . وللقيام بذلك هو في حاجة إلى تواجد شخص بالغ سريع التلبية . ولكنه في حاجة للتحرر من شخص يحوم حوله ، يبدى اهتماماً زائلاً ، ويثبط من همته لتنمية مهارته على جذب الانتباه .

٣ - ينمو الأطفال بشكل أفضل إذا تحدث إليهم الكبار عن أى شيء يثير اهتمامهم في هذه اللحظة دون تحويل الاهتمام إلى شيء آخر .

٤ - أن اللغة الحية الموجهة إلى الطفل أكثر فاعلية في مساعدته لنموه اللغوي وتنمية قدراته الاجتماعية والعقلية بدرجة تفوق أثر الإذاعة المرئية أو المسموعة أو الانصات لأحاديث الكبار .

٥ - الحرية الجسدية ضرورية . فالأطفال الذين تنطلق حركتهم أحسن في نموهم من المحتجزين في مساحة ضيقة .

٦ - إن الأطفال الذين يحدقون البصر في الأشياء يحصلون على معلومات تزيد على تلك التي يحصل عليها أطفال يتجولون بأعينهم في المكان ولأسباب غير معروفة .

(ب) النمو اللغوي وكلام الطفل :

يرى بياجيه وعدد كبير من العلماء أن كلام طفل ما قبل المدرسة يتمركز حول ذات الطفل أى أنه ليس كلاماً أو حديثاً اجتماعياً . والمقصود بالكلام الاجتماعى أنه للاتصال « فهو الكلام الذى يتلالم وحديث أو سلوك شريك آخر وقد يتضمن تبادل المعلومات بأسئلة وأجوبة أو بدونها ، أو الأمر والرجاء والتهديد . ويرى العلماء حديثاً نتيجة للبحوث على عكس ما يرى بياجيه أن كلام الطفل كلام اجتماعى وبين عمر مبكر جداً حتى أنه يمكن القول عن الأطفال أنهم يتمركزون اجتماعياً منذ الولادة (جارفى وهوجان ١٩٧٣) .

فكيف نفسر هذا الاختلاف بين هذين الاتجاهين ؟ يمكن أن يعزى هذا الاختلاف جزئياً إلى أسلوب الباحثين في دراسة كلام الطفل . إذ كان هناك تقليدياً اتجاهان هما الاتجاه التجريبي والآخر الاتجاه الاجتماعي اللغوي. إذ صمم للتجريبين تجاربهم للدراسة القدرة على وصف شيء حتى يتمكن شخص آخر من التعرف عليه . فديكسون وآخرون Dickson elal (١٩٧٩) قاموا باجلاس أم وطفلها في مقابل بعضها على مائدة . تقوم الأم بوصف صورة في كتاب معها بشكل يسمح لطفلها بالعثور على الصورة الماثلة في كتاب معه . فإذا ما وجد الصورة يضغط على زراري يضيء تحت الصورة التي في كتاب أمه . وعجز أطفال الخامسة من العمر عن أداء العملية . وقام دكسون باختبار قدرة الأطفال من سن الرابعة إلى الثامنة على شرح صور لأشياء مختلفة تراوح من أشياء بسيطة يذكرون مجرد الاسم إلى أشياء مجردة صعبة فكان من الأسهل على الأطفال أن يذكروا أسماء الصور المعروفة لهم عن شرحهم لصور لأشياء مجردة . وهكذا يبدو أنه إذا وجد الأطفال صعوبة وعدم معرفة لما يمكنهم القيام به فإنهم لا يتجاوزون حدود التمرکز حول الذات .

وفي سنة ١٩٧٧ حاول كراوس وجلوكسبرج Krauss & Glucksberg متى يتعلم الأطفال مراعاة الشخص الآخر في عملية الاتصال فصمموا لعبة «صف المكعبات» حيث يقوم الطفل بشرح شكل مكون من المكعبات لطفل آخر معه مجموعة مماثلة من المكعبات مع وجود حاجز بين الطفلين بحيث لا يرى الطفل الآخر النموذج مع الطفل الأول .

عجز أطفال سن الرابعة والخامسة عن وصف التصميمات التي في ميولهم بشكل يجعل الأطفال الآخرين يفهمونها . ولم تثر هذه النتيجة دهشة الباحثين ولكن مما أثار دهشتهم أنها وجدت أن التلاميذ حتى الصف الخامس الابتدائي يعجزون بالمثل عن أداء ذلك بل أن تلاميذ الصف التاسع أي مستوى الإعدادية فيهم من يعجز عن أداء هذه العملية . ويقولان أنه إذا ما حل سن الثامنة يجب أن يتجاوز الأطفال المرحلة التي يكون فيها التمرکز حول الذات عاملاً مهماً إلا أنها وجدت أولاداً في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة يعجزون عن الأداء في مستوى البالغين .

ان صعوبة العملية ربما تكون هي المسئولة عن فشل الأطفال في هذه التجربة .

أما اللغويون الاجتماعيون فانهم يهتمون بالطريقة التي يستخدم بها الأطفال اللغة بدلا مما يقوله الأطفال لفظيا « كما يهتمون بشكل الكلام بدلا من محتواه ، وفي المقصود به بدلا من فاعلية توصيل الرسالة . فهم يسعون لمعرفة كيف يستخدم الأطفال الكلمات لطلب أشياء « القيام بوعود « وتحية الآخرين وما إلى ذلك في ضوء هذا هم يجدون الأطفال قادرين على الاتصال بكفاءة ومن سن مبكرة لأنهم وجدوا أن طفل الرابعة يستطيع تغيير شكل رسالته حتى يستطيع طفل في الثانية فهمها .

والخلاصة أنه يمكن القول من نتائج البحوث الخاصة بهذين الإتجاهين أن الطفل في الموقف المناسب يستطيع الانخراط في حديث اجتماعي :

(ح) مدارس الحضانة ورياض الأطفال :

يرتفع عدد الأطفال الذين يرغب آباؤهم في إلحاقهم بمدارس الحضانة « أى أن هناك زيادة كبيرة في الإقبال على هذا النوع من المدارس . ويعود هذا إلى دخول المرأة ميدان العمل بأعداد كبيرة « وارتفاع المستوى التعليمي للآباء والأمهات ممن أصبحوا يرون الفوائد التي يمكن أن تعود على الطفل من هذه المدارس .

ومدارس الحضانة إما خاصة ؛ أو حكومية أو تديرها جمعيات وتشرف عليها وزارة الشؤون الاجتماعية . وتختلف هذه المدارس في مستوياتها ومستويات المعلمات العاملات فيها والخدمات التي تقدمها ، ومنها ما هو نصف يومي ومنها ما يعمل يوما كاملا حتى الرابعة أو الخامسة مساء . والحاجة ماسة إلى مزيد من هذه الحضانات .

وتنوع الحضانات من حيث مستواها وتبعيتها لا يختلف في مصر عن غيرها من البلاد المتقدمة مثل أمريكا .

والمتوقع من هذه المدارس أن تنمى فى الأطفال التناسق الحركى والمهارات الاجتماعية . والمفروض أن يتعلم فيها الطفل الكثير عن نفسه ومعرفة من هو « وزيادة استقلاليته » والمفروض أن تتنوع فيها الخبرات والنشاطات التى يمارسها ويوجد فيها نجاحاً . وتنبأ للطفل - بلعبه مع غيره من الأطفال - الفرصة للتعامل مع الآخرين والتعاون معهم . حتى إذا ما تعرض لاجباطات فى هذا التعامل « فإنه يتعلم كيف يجابه هذه الاجباطات » وكيف يتصرف إزاء موجات غضبه وغضب الآخرين والتفاعل مع الآخرين له أهميته للأطفال الذين يأتون من عائلات عدد الأطفال فيها صغير .

وبرامج هذه المدارس نموذجية ، اما أنها تقوم بتطبيق نظريات بياجيه أو تسير على نسق نظريات المربية الإيطالية ماريا مونتسورى وكلا الإتجاهين ينزع إلى التنمية المعرفية . ويتم هذا فى الحضانة الجيدة بتهيئة الفرصة للأطفال للتعلم عن طريق النشاط باستخدام اليدين والحواس بممارسة الفنون والموسيقى باستخدام المواد العينية مثل الصلصال والماء والخشب . ولا بد أن تكون هناك الخبرات التى تنمى حب الإستطلاع والملاحظة والابتكار والمهارة اللغوية .

كانت مونتسورى أول امرأة تحصل على درجة الطب فى ايطاليا «
وانشأت مدرستها لتعليم الأطفال المعاقين « ولكن فكرتها انتشرت فى
الحضانات التى انشئت للأطفال العاديين .

وتهم طريقة مونتسورى بالتربية الحركية نظراً لأهميتها فى النمو العقلى . إذ يتركز الاهتمام على تنمية المهارات للحياة حتى يستطيع الطفل العناية بنفسه والحفاظ على ممتلكاته التى يستخدمها يومياً إذ تعطى للأطفال تعليمات دقيقة ومباشرة عن استخدام المقصات والزرارير وصب المياه فى أوعية مختلفة من الصنبور ، وفتح الادراج ، وصعود السلالم بل وطريقة المشى والجلوس .

وتنصب التربية الحسية على اكتساب الأطفال لمفاهيم الحجم واللون والوزن

والحرارة والذوق والشم والصوت باستخدام مكعبات ذات ألوان مختلفة .
وملمس مختلف ، وزجاجات حرارتها مختلفة . صناديق صوتية .

ويسير تعليم اللغة وفقاً لخطوط واضحة يستطيع معها الأطفال تسمية الأشياء والتعرف على المفاهيم ونطق الكلمات . ويعتبر تعلم الكتابة والقراءة مع الحساب امتداداً طبيعياً للخبرات التي يكتسبها الطفل في الحضانة . ولا يسير التعليم هنا بالطريقة التقليدية إذ يتعلم الأطفال باستخدام الرمل للكتابة واستخدام حروف خشبية وما إلى ذلك . وكل هذا يتم في إطار من الحب واحترام ذاتية الطفل .

أما مدارس رياض الأطفال فهي فترة تمتد من سنة إلى سنتين وتمثل مرحلة انتقالية بين مدارس الحضانة والمرحلة الابتدائية . والمفروض أن يكون معلمات الحضانة من المؤهلات تربوياً وإن كان هذا لا يحدث في الغالب . وتلحق الحضانات في كثير من الجهات بالمدارس الابتدائية حتى تمثل البدء الحقيقي بسنوات المدرسة حتى تهيء التلاميذ للالتحاق بالسنة الأولى الابتدائية . وفي دراسة تمت في أمريكا قام بها إيفانز Evans (١٩٧٥) تبين أن الأطفال الذين قضوا سنة في الحضانة ارتفع مستواهم في المرحلة الابتدائية في فهم الكلمات والتعرف عليها وفي القراءة عن غيرهم .

١٢ - مرحلة الطفولة من سن ٦ إلى سن ١٢

تسمى هذه المرحلة بمرحلة الطفولة الوسطى أو مرحلة سن المدرسة . ويتركز الاهتمام حالياً في دراسة خصائص هذه المرحلة على التعرف على خصائص النمو الجسماني والحالة الصحية للطفل وما يتعرض له من أمراض وأخطار ، كما يتركز الاهتمام على معرفة خصائص نموه العقلي والخلقي ، وتبلور فكرته عن نفسه وتحديد دوره الجنسي . وتحتل نتائج دراسات يباخيه حالياً مركز الصدارة في دراسة خصائص الطفل في هذه المرحلة .

١ - النمو الجسماني :

في دراسة دولية لميروث Merédith (١٩٦٩) لعينات لأطفال عمر ثمانى سنوات من دول متعددة تبين أن الفرق بين متوسط أقصر أفراد العينة (وغالبيتهم من دول جنوب شرقى آسيا والاقيانوس وأمريكا الجنوبية) ومتوسط أطول أفراد العينة (وغالبيتهم من دول شمال أوروبا وسطها وشرقى استراليا والولايات المتحدة) هو فى مدى ٩ بوصات أى حوالى ٢٣ سم . وما لاشك فيه أن للوراثة أثرا فى هذا التنوع والاختلاف إلا أن العوامل البيئية لها أثرها . اذ يأتى أطول الأطفال من أجزاء فى العالم يرتفع فيها مستوى التغذية ويتم فيها التحكم فى الأمراض المعدية .

وتوجد فى كثير من بلدان العالم المتقدمة متوسطات للنمو الجسماني طولاً ووزناً . ولا يعرف الكاتب عن دراسة تمت فى القريب أو البعيد فى مصر وعلى المستوى القومى أمدتنا بمتوسطات يمكن أن يهتدى بها . وما أحوجنا لمثل هذه الدراسات التى تتجدد كل فترة زمنية .

٢ - المشكلات الصحية :

كان الأطفال فى هذه السن فى جميع انحاء العالم يتعرضون لكثير من الأمراض مثل السعال الديكى ، وورم الغدد النكفية ، والجديري ، والحصبة والحمى القرمزية ، والدفتيريا وشلل الأطفال . وإن كانت حدة الإصابة بهذه الأمراض قد خفت فى كثير من دول العالم لتقدم الطب الوقائى والتحصين ضد هذه الأمراض . وقد خفت أيضاً وطأة كثير من الأوبئة أو اختفت تماماً فى كثير من أجزاء العالم مثل الكوليرا والطاعون والتيفوس والجديري والحمى الصفراء . ويتم التطعيم إجبارياً فى كثير من الدول ضد الحصبة وشلل الأطفال والدفتيريا والتيتانوس والسعال الديكى والحصبة الألمانية .

ويعانى كثير من الأطفال فى هذه المرحلة من أمراض العيون فى البلاد المختلفة ، كما يعانى كثيرون من ضعف البصر . كما تمثل أمراض الأسنان مشكلة فى هذه المرحلة من العمر .

وتبين كثير من البحوث الحديثة أن الإصابة بأمراض القلب في عمر متقدم لها جذورها في خصائص الشخصية وسماتها في الطفولة إذ بينت بعض الدراسات ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم في الأطفال الذين يتسمون بروح المنافسة وعدم الاستقرار والقلق .

ونظرا لزيادة نشاط الأطفال في هذه السن ، وعدم تقديرهم لعواقب تصرفاتهم ، فإنهم يتعرضون لكثير من الحوادث والإصابات .

ولعل أهم مشكلة صحية يتعرض لها الأطفال في كثير من الدول النامية هي المعاناة من الفقر وسوء التغذية . والطفل الفقير يولد أصلاً لآباء فقراء ، ويأتى إلى العالم وهو يعاني من نقص في وزنه ، وإستعداد لكثير من الأمراض .

٣ — النمو الخلقى :

يوجد جاليا اتجاهان لتفسير النمو الخلقى عند الأطفال أحدهما هو اتجاه بياجيه طبقاً لنظريته في النمو المعرفي ، والاتجاه الثاني ويمثله أصحاب نظريات التعلم الاجتماعي . والآباء يحددون للطفل ما هو صواب وما هو خطأ ويمارسون في سبيل تعليم الطفل الثواب والعقاب ، فيمتص الطفل معايير الوالدين . وفيما يلي جدول يبين مبادئ كل من الاتجاهين .

ومن أهم الدراسات الحديثة عن النمو الخلقى دراسة كولبرج Kolberg (١٩٧٦) وهو يتبع خطى بياجيه في دراساته ويرى أن الطفل فيلسوف أخلاقى . لقد استمر لمدة اثني عشر عاماً يقوم بدراسة ٧٥ صبياً تتراوح أعمارهم ما بين ١٠ سنوات و ١٦ سنة عند بداية الدراسة كما أنه قام ببحث النمو الخلقى في ثقافات أخرى مثل بريطانيا وكندا وتايوان وتركيا . وقد أكدت نتائج دراساته نتائج بياجيه بأن مستوى نمو الطفل الخلقى يتوقف على سن الطفل ونضجه . وقد صاغ كولبرج نظريته بتحديدده أنماطاً مختلفة للتفكير الخلقى صنفها في ثلاثة مستويات .

ويرى كولبرج أن النمو الخلقى ما هو إلا نمو لحاسة الفرد للعادلة إذ

كلما نما الطفل في تفكيره الخلقى أصبح مفهومه عن العدالة أكثر نضجاً ،
ولكى يرتقى تفكير الطفل خلقياً عليه أن يمارس الفهم لوجهات نظر الآخرين
وعلى الرغم من أن النمو المعرفي ونمو القدرات على لعب أدوار الآخرين
لا يضمنان النمو الخلقى إلا أنه يرى أنه لا يتم بدونهما .

ويستخدم كولبرج - على غرار بياجيه - القصص لاختبار مستوى
تفكير الأطفال الخلقى حول خمسة وعشرين مفهوما خلقياً مثل قيمة حياة
الإنسان ، والدافع للعمل الخلقى ، ومفاهيم الصواب ، وأساس احترام
السلطة الاجتماعية وما إلى ذلك .

جدول يبين مبادئ اتجاهين للنمو الخلقى (١)

نظرية النمو المعرفي	نظرية التعلم الاجتماعي
يوجد النمو الخلقى في الصميم عنصر معرفي وقدرة على الحكم الخلقى	النمو الخلقى هو نمو في الانصياع السلوكي الفعال للقواعد الخلقية وليس تغيراً في البنيان المعرفي
ان الدافعية وراء السلوك الأخلاقي هي دافعية تعميمية نحو التقبل ، والكفاءة ، وتقدير الذات أو تحقيقها وليس لإشباع حاجات بيولوجية أو لتقليل حدة قلق أو خوف	ان الدافعية للسلوك الأخلاقي في كل نقطة من نقاط النمو الأخلاقي تمتد جذورها في صميم الحاجات البيولوجية أو متابعة الإثابة الاجتماعية وتجنب العقوبة الاجتماعية
ان المظاهر الأساسية للنمو الخلقى عالمية ثقافياً ، لأن كل الثقافات	ان النمو الخلقى أو الأخلاق أمر نسبي ثقافياً

(١) I. kolberg. moral stage and moralization in T. Lickona (Ed)
moral development and behavior. New York ; Holt, 1976, pp
31—35.

لديها مصادر شائعة للتفاعل الاجتماعي
وتمثيل الأدوار . والصراع الاجتماعي
وكلها تتطلب التكامل الخلقى

ان المستويات الخلقية الأساسية
والمادى ما هي إلا بنيانات تنبثق
عن طريق الخبرة في التفاعل
الاجتماعى ، وليست تشرب القواعد
التي توجد كبنينات خارجية .
ولا تتحدد مراحل النمو الخلقى
بالقواعد التي تم تشربها . ولكنها
تحدد بنيانات التفاعل بين الذات
والآخرين

يتم تحديد المؤثرات البيئية في
في النمو الخلقى بالخاصية العامة لمدى
الإستثارة المعرفية والاجتماعية
خلال نمو الطفل . وليس عن
طريق خبرات يعينها مع الآباء .
أو خبرات الثواب . والعقاب .
والتهديب

— المراهقة والشباب

أطلق ستانلى هول (١٩١٦) شيخ علماء النفس الامريكان على هذه
المرحلة من النمو اسم مرحلة « العاصفة والحلم » والتي تمثل مرحلة فوران
وإنتقال في الجنس البشرى . بينما ترى مارجريت ميد وهي من أوائل علماء
دراسة الإنسان والتي قامت بدراسة ثقافات غير الثقافه الأمريكية في ساموا

Samoa وغينيا الجديدة ، أنه ليس من الضروري أن يتعرض الشباب في ثقافات أخرى لمثل الضغوط التي يتعرض لها من في سبهم في ثقافات أخرى وهي تعطى أهمية كبرى للعوامل الثقافية . ويعطى فرويد ١٩٥٣ أهمية للنضج الجنسي نتيجة للتغيرات الفسيولوجية في هذه المرحلة حيث تتجه الطاقة الجنسية نحو قنوات يعترف بها المجتمع . وإتجاه الطاقة نحو الجنس الآخر . وترى أنا فرويد (١٩٤٦) أن هذه الفترة لها أهميتها في تكوين الخلق ، فالطاقة الجنسية تشعل الدافع الجنسي وتهدد التوازن بين الأنا والهوى مما يؤدي إلى القلق والخوف والأعراض العصابية . فيستخدم الشباب ميكانزمات دفاعية لحماية الأنا مثل الشطحات الفكرية في أشكال من التفكير المجرى والاتجاهات الحمالية في إنكار الذات أما أريك أريكسون (١٩٥٠) فهو يرى أن هذه المرحلة تمثل البحث عن الذات في مقابل الضياع وتشتت الدور .

ويرى آرون اسمان Aaron Esmon (١٩٧٥) في كتاب القراءات الهامة عن سيكولوجية الشباب أن هذا العصر يبدو للكثيرين على أنه عصر الشباب . ولن تغفل عين المشاهد عن أثر المراهقين والشباب على مودات الملابس ووسائل الترفيه وتقضية وقت الفراغ ، وإستهلاك الغذاء ، والحياة السياسية .

ويزخر الإنتاج الأدبي بتصوير هذه المرحلة برومانسيها وعواطفها منذ العصر الرومانسي . وتمثل رائعة شكسبير « روميوجوليت » العواطف الجارفة للشباب في هذه المرحلة إذ لم يكن عمر روميو يزيد على السابعة عشرة ، ولم تكن جوليت سوى مراهقة في سن الرابعة عشرة .

إلا أن الدراسة العلمية للمراهقة والشباب هي بدون شك نتاج للقرن العشرين . وفي رأى اسمان أن الفضل يعود إلى فرويد ومدرسة التحليل النفسى للخوض في أعماق الشباب ومعرفة ديناميكية تكوينه النفسى مع إعطاء الأهمية للنمو الجنسي .

ويضم هذا الكتاب ثمانية وثلاثين بحثاً ومقالاً باقلام أشهر الكتاب

المعاصرين الذين كتبوا في هذا الميدان ممن وردت أسماء الكثير منهم في الفصل السابق . ويتعرض هذا الكتاب كما يتعرض غيره من الكتب المعاصرة لمشكلات الشباب في المجتمعات الغربية مثل إدمان المخدرات ، والأمراض السرية ، والانتحار ، والوفيات نتيجة لحرمان النفس من الطعام ، وهذه مشكلات لم تبلغ مدى الخطورة في مجتمعاتنا إلى ما وصلت إليه في هذه المجتمعات ، بالإضافة إلى افتقارنا للإحصائيات الدقيقة عن مدى انتشارها بين شبابنا ، لهذا سنكتفى بعرض مقال لا يوجين برودي عن الشباب كجماعة من الأقليات في ضوء التغير الاجتماعي ، وبحث عن اغتراب الشباب لكثيثر كنستون . لما لهدين البحتين من مضامين قد تصدق على شبابنا مع مراعاة أن الكاتبين يكتبان عن الشباب الأمريكي .

١ - الشباب كجماعة من الأقليات :

لا يقصد الكاتب هنا الأقلية العددية لأن الشباب في الواقع يمثل حالياً في كثير من المجتمعات الغالبية العددية ، ولكنه يقصد أولئك الناس الذين لم يعودوا أطفالاً ولكنهم لم يصبحوا بعد بالغين ، والذين ينتمون في الولايات المتحدة إلى جماعات الأقلية مثل الزوج ، ومن هم من أصل مكسيكي أو شرقي آسيا أو بورتوريكو : وهؤلاء الشباب بالإضافة إلى محاولة تغلبهم على عقبات مرحلة النمو التي يمرون بها كمحاولة الانتقال من سلسلة من الأدوار ومن هوية اجتماعية معينة إلى غيرها ، عليهم أن يكافحوا أيضاً ضد ضغوط ثقافتين : ثقافة الوالدين ولها تاريخ مضى ، والثقافة الحالية التي يعيشون فيها .

ويعرف جماعة الأقلية بأنها جماعة من الناس يمكن تمييزهم على أساس بعض الخصائص الجسدية أو الثقافية ، وتم معاماتهم على أساس انخراطهم . فالعضو في جماعة الأقلية مرئي اجتماعياً ، أى أن مظهره أو سلوكه يسمح بتصنيفه عن بعد ضمن فئة . وهو إلى درجة ما يمثل هذه الفئة ، ومحرور من مركزه كفرد . ويتقرر إتجاه المشاهد له نحوه - ليس لخصائصه الذاتية -

ولكن من خلال القالب الجامد الذى يحمل المشاعر والمعتقدات عن الفئة الاجتماعية التى ينتمى إليها . ويعنى هذا احتمال التعصب ضده .

ويتخذ الكاتب تعريف أولبرزت للتعصب بأنه شعور سلبي يقوم على تعميم خاطئ ، غير مرن . قد يحس المرء به أو يعبر عنه . وقد يتجه نحو جماعة ككل أو نحو فرد لأنه عضو في جماعة . والخصيلة النهائية للتعصب هى وضع الموضوع في موقف معاد لا يبرره سلوكه . وسلوك عضو الأقلية هو نتاج لنبوء ذاتية لدى جماعة الغالبية « إذ يبادرونه بالعداء والاحتقار لاستثارة مثل هذا السلوك منه لغويا أو غير لغوى . وتمثل هذه التوقعات العدائية المناخ الذى يسلك فيه عضو الأقلية .

ويتضمن مركز الاقليات عنصر الحدائة على المجتمع الذى يعيش فيه . والوافد الحديث لا يتمتع بنفس المركز الذى يتمتع به القدامى ، وهو عادة بفتقر إلى المميزات الاجتماعية والاقتصادية التى يتمتع بها الأصليون . وتؤدي هذه العوامل إلى الاحتفاظ ببعده اجتماعي بين الأقلية والغالبية .

والمراهقون والشباب لهم من الخصائص ما يميزهم عن الآخرين « ولعل السن والمظاهر الجسمانية من أهم هذه الخصائص ، كما أنهم من الوافدين الجدد إلى العالم الذى يحتله من يكبروهم سنا . كما أنهم عاجزون نسبيا اجتماعيا واقتصاديا . ويعتبر أحدهم حتى سن الثامنة عشرة أو الحادية والعشرين قاصرا . يحرم من التردد على أماكن معينة « والتمتع بامتيازات معينة يتمتع بها الكبار « ولا يستطيع الزواج دون موافقة الوالدين .

ولأن الشباب في هذه السن في مرحلة تحول من عالم الطفولة إلى عالم الكبار فهو هامشى ، لم يتحدد دوره بعد ، ولم تتحدد انتمائيته ، ويبدو أن هذا يفسر سعيه نحو من هم على شاكلته ومن في سنه بحثا عن تعضيد الآخرين فتتكون جماعات الشباب التى تشعر بالاعترا ب والغربة عن هم أصغرهم وعن هم أكبر . وتصبح لهذه الجماعات سبل اتصالها الخاصة ، وتمائلها في الملابس وقصات الشعر ، وإقامة حفلات الدسكو ، والرقص العنيف ، وحفظ الأغاني السائدة .

(م ١٩ - الطفولة والمراهقة)

وتصبح لهذه الجماعات قيم مشتركة واهداف مشتركة توحد من انماط السلوك ، وتتولد ثقافة خاصة لها رموزها ومعاييرها تنتقل من جيل إلى جيل .

وإذا كانت مشكلة الشباب هي عدم التأكد من الانتمائية كافراد وجماعة إلا أن هذا الأمر لا يقتصر عليهم وحدهم . فالكبار أنفسهم الذين يتحملون تاريخيا مسئولية تحديد الادوار لمن هم أقل منهم نضجا في المجتمع يعانون من نفس المشكلة . فالكبار هم يمثلون الأساس الاقتصادي للنظام الاجتماعي . وهم المسئولون عن إدارة مؤسسات الضبط الاجتماعي . إلا أنهم حاليا لم يعودوا متأكدين من أساليب تحقيق سيطرتهم . فالانفجار السكاني ، والتكنولوجيا الحديثة ، وسهولة الاتصال وسرعته على مستوى عالمي ، وزيادة الحراك الاجتماعي والجغرافي - كلها - ساعدت على تحطيم أساليب تدعيم الخبرات الضرورية للحفاظ على أنسقة القيم والرموز المألوفة والمتعارف عليها . فالمجتمعات التي تمر بمراحل تغير سريع ، دون أن يهتدى هذا التغير بمثل عليها ورموز عميقة تكون فاعليتها في تنشئة أبنائها أمرا مشكوكا فيه ، وتعرض مثل هذه المجتمعات على أبنائها أدوارا يصعب التنبؤ بها وهكذا . تمثل ظروف التغير الثقافي عبئا جديدا على أعباء مرحلة النمو ذاتها التي يمر بها الشباب .

وجيل الكبار في تخطئه يستخدم دفاعياته خوفا وغضباً فيشتط في تعميته وأحكامه والتي تلخص في الحكم على الشباب بعدم تحمل المسئولية ، وأنه لا يوثق به ، وكسول ، وتنعدم فيه القيم . وهذه الأحكام تولد بدورها في الشباب شعورا مضادا ، إذ أصبحوا يعاملون كجماعة من جماعات الأقلية تجاهه التعصب . وتنوع استجابات الشباب كجماعة أقلية للتعصب وتبدو استجاباتها أحيانا في شكل انصياع أعمى أو سلبية ، أو عنف متولد عن حقد ، وتخريب واضطرابات في الشخصية .

ويؤدي التعصب إلى استجابة اجتماعية وقائية يسميها علماء الاجتماع بالعزلة الاجتماعية . ويقصدون بها حرمان أفراد الأقلية من المساهمة والمشاركة في كل مظاهر الثقافة ، وبالتالي عدم تشرب قيم الثقافة ومعتقداتها . إلا أنه بزيادة

الوعي والمعرفة تبدأ الاقلية في الضغط للحصول على مزيد من الامتيازات
ومزيد من المشاركة . وقد يكون العنف سبيلا لذلك .

٢ - اغتراب الشباب :

في خطاب الرئيس محمد حسني مبارك في افتتاح مجلس الشعب الجديد
في يوم ١٥ يونيو حدد مهام أساسية للمرحلة القادمة . وكانت أولى هذه
المهام كما جاء في خطابه استكمال بناء الديمقراطية ، وتوسيع نطاق المشاركة
في الحياة السياسية ، خاصة في قبول الشباب الذي يمثل أكثر من نصف
الحاضر وكل المستقبل لأننا جميعا مطالبون بالتصدي لظاهرتين
عانت منهما الحياة السياسية في مصر حقبة طويلة من الزمن . الأولى ظاهرة
العزوف واللامبالاة والسلبية . والثانية ظاهرة الاغتراب والشعور بفقدان
الصلة بالواقع .

وظاهرة الشعور بالاغتراب بين الشباب ظاهرة تكاد تكون عامة في
كثير من الدول حتى المتقدمة منها ولا شك أن هناك ظروفًا اجتماعية وسياسية
واقتصادية خاصة بكل دولة تجعل ظاهرة الاغتراب لها مظاهرها وأشكالها
الخاصة بها . وان كانت هناك عناصر مشتركة عامة للظاهرة التي تكاد تكون
عالمية . وقد تصدى كينث كنستون Kenston للدراسة هذه الظاهرة في
أمريكا في بحث نشر في سنة ١٩٦٨ . وقد تناول البحث بالدراسة ٢٠٠٠
من شباب الجامعات ، وامتدت الدراسة لعدة سنوات . وهو يرى أنه على
الرغم من فهم العوامل الفردية لمن يعاني من الاغتراب ، فالضرورة تختم
ضرورة التعمق في العوامل الاجتماعية والتاريخية التي تتضافر مع العوامل
النفسية لحدوث الاغتراب الثقافي . ونقتبس من هذه الدراسة ما قد يكون
له فائدة لفهم ظاهرة الاغتراب عندما اقتصر كنستون - كما يذكر - على
دراسة نوع واحد من الاغتراب ، إذ كان اهتمامه مركزا على طلاب
الجامعات الذين تتميز اتجاهاتهم بالنقد الحاد لثقافتهم وادانتها فيما هو معروف
بظاهرة المفكر المغترب . لهذا فقد قام بتعريف الاغتراب على أنه الرفض

الصريح لما يرى على أنه من القيم السائدة في المجتمع الأمريكي . وقد تمت هذه الدراسة في جامعة هارفارد المعروفة بأنها من الجامعات الراقية .

تمت صياغة عدة موازين بينها ارتباط عال لقياس الاتجاه النفسى . وهذه الاتجاهات كانت تمثل ما هو معروف بأعراض الاغتراب . وهذه الموازين هى كما يلى :

١ - ميزان عدم الثقة : توقع الفرد للأسوأ من الآخرين حتى يتجنب خيبة الأمل .

٢ - ميزان التشاؤم : ضعف الأمل في العثور على السعادة :

٣ - ميزان العداوة : الشعور أحيانا بالرغبة في قتل الناس لاستفزازهم لك .

٤ - الاغتراب في العلاقات المتبادلة : الالتزامات العاطفية نحو الآخرين تؤدي عادة إلى خيبة الأمل .

٥ - الاغتراب الاجتماعى : العمل الجماعى هو اللجأ الأخير للإنتاج المتواضع .

٦ - الاغتراب الثقافى : ان الانصياع للثقافة يوضعها الحال يثير الفزع

٧ - احتقار الذات : ان أى رجل يعرف نفسه جيداً لديه من الأسباب ما يجعله يفزع .

٨ - التذبذب : القيام بالتزامات قليلة دون التحكم ضد الحكمة في الوفاء بها .

٩ - التعمق في الأمور : لا يمكن الاعتماد على الانطباعات الأولية . لأن ما في الأعماق يختلف عما يبدو فوق السطح .

١٠ - الغربة : الشعور القوى بأن الفرد يختلف عن غيره من معظم الناس .

١١ - عالم يفتر إلى البنيان : ان فكرة أن الانسان والطبيعة تحكمهما قوانين منظمة مجرد وهم .

وتمثل مجموعة هذه الموازين تعريفاً اجرائياً للاغتراب . وطبقت الموازين على طلاب السنة الثانية في الجامعة . وعلى أساس اللرجات عليها تم تمييز ثلاث مجموعات للدراسة الاكلينيكية المتعمقة تتكون المجموعة الأولى من كانت درجة الاغتراب عندهم عالية جداً ، بينما تتكون الثانية من مجموعة درجاتها عالية على عدم الاغتراب ، ومجموعة ثالثة المقارنة . بين التحليل الإحصائي وكذلك الدراسة ، الإكلينيكية أن عدم الثقة هو المتغير الأساسي في أعراض الاغتراب . وتمتد عدم الثقة إلى أبعد من النظرة السلبية عن الطبيعة البشرية ، إذ أن هؤلاء الطلاب كانوا يعتقدون أن العلاقات الحميمة لا بد وأن تنتهي إلى الفشل ، وأن الولاء للجماعة يعني فقدان الفرد لذاته ، وأنه لا يمكن الانخلاع بالمظاهر . بالتالي تستحيل الثقة في الثقافة الأمريكية إذ هي في رأيهم آلية ، مملّة ، نفاقية ، رخيصة ، انصياعية ، وأى التزام إيجابى ماهو إلا سلبية من السلبات .

هذا بالإضافة إلى أن معظم من كانوا يعانون من الاغتراب كانوا وجوديين سذجاً وكان عدد قليل منهم قد قرأ عن الوجودية وفلاسفتها قبل بداية البحث إلا أنهم كانوا تلقائياً قد توصلوا إلى نظرة عن الحياة تقترب من نظرة الوجوديين التشاؤميين من أمثال سارتر ، فعظمهم ، ومنذ المراهقة ، بدأ يبعي الظلام والعزلة ، وخلق الحياة من معنى . والكون ذاته عندهم ميت ، يفتر إلى بنيان ، ويصعب بحكم طبيعته التنبؤية . والحياة الفردية لا هدف منها . كما أن الأخلاق ماهي إلا أنانية ونسبية وقلورية .

ومن أهم ما يميز من يشعر بالاغتراب النظرة التشاؤمية والاحتقار للسياسة والعمل السياسى فهم ياتسون من أى إصلاح ، ولا يهمهم إن عمرت الدنيا أو خربت ، لأن الخراب حتمى وهو النهاية .

ومن مظاهر فلسفتهم السلبية . فهم فلاسفة بمطارق همهم الرياضة الذهنية لكشف زيف الآخرين . ورغم نظرتهم التشاؤمية واتجاههم السلبي الصريح إلا أنهم في داخلهم يؤكدون أهمية العواطف والمشاعر ، والبحث عن الوعي ، والتلاحم بالآخرين ، والاستجابة والمشاركة والحاجة للتعبير عن خبرات حياتهم . فقيمهم الإيجابية « تعبيرية » أو « جمالية » وهم في ذلك يهتمون بالحاضر والتعبير الذاتي وتنمية الوعي . إن فلسفتهم عامة تتناهى والفلسفة التقليدية السائدة في مجتمعهم .

لقد تجاهل هذا الباحث للعوامل التاريخية والاجتماعية وأعطى اهتماماً مفرداً للعوامل النفسية الذاتية وهو يعترف بأن هذا قصور في دراسته . فظاهرة الاغتراب كما يقول ليست ظاهرة معاصرة فعظم العباقرة والمفكرين على مدى التاريخ كانوا يحسون بالاغتراب عن ثقافتهم . فأشكال الاغتراب ومظاهره ومحتواه الثقافي - إذا تحريتنا الدقة - تنبثق من صميم المجتمع الذي يولد فيه فالاغتراب هو عملية رد فعل لمظاهر خاصة في المجتمع ، وهو نوع من الصفة التي يعقدها الفرد مع مجتمعه ولا يمكن فهم الظاهرة دون دراسة خصائص المجتمع من ناحية تأثيرها على الفرد .



المراجع

- 1 — Adelson, J. (Ed.) Handbook of adolescent psychology. New York Wiley, 1980.
- 2 — Barker, R. G., Kounin, J. S. and Wright, H. F. Child behavior and development. New York : McGraw-Hill, 1943.
- 3 — Baldwin, A. Theories of child development. New York : Wiley, 1968.
- 4 — Beard, R. M. An outline of Piaget's developmental Psychology for students and teachers. New York : Basic Books, 1969.
- 5 — Bios, K. The adolescent personality. New York : Appelon, 1941.
- 6 — Bossard, J. H. S. The Sociology of child development. New York : Harper, 1948.
- 7 — Buhler, G. et al. Childhood problems and the teacher. New York : Holt & Co. 1952.
- 8 — Cantor, P. (Ed.). Understanding a child's world. New York : McGraw-Hill, 1977.
- 9 — Carmichael, L. Manual of child Psychology. New York : John Wiley, 1948.
- 10 — Christakis, G. (Ed.) Maternal nutritional assessment. American Journal of Public Health, 63 : Supplement, 1973, PP. 57 — 63.
- 11 — Conger, J. Adolescence & Youth (2nd ed.). New York : Harper & Sons, 1977.
- 12 — Dennis, W. (Ed.). Readings in child psychology: New York Prentice-Hall, 1951.

- 13 — De Palma, D. J. & Foley Jeanne M. Moral development : current theory & research. New York : John Wiley & Sons, 1975.
- 14 — Dinkmeyer, Don C. Child development : The emerging self New Delhi : Prentice-Hall of India, 1967.
- 15 — Du Bois, O. The people of Alorse. Minneapolis : Un of Minneapolis Press, 1944.
- 16 — Erikson, E. H. Childhood ■ Society. New York : Norton, 1950.
- 17 — ——— The life cycle completed : A review. New York : W. W. Norton Co., 1982.
- 18 — Esman, A. (Ed.). The psychology of adolescence : Essential readings. New York : International Universities Press, 1975.
- 19 — Evans, E. D. (Ed.). Adolescents : Readings in behavior and development. Hindsdale, Ill : Dryden Press, 1970.
- 20 — Gesell, A. and Thompson, H. Infant behavior. New York : McGraw-Hill, 1934.
- 21 — Gesell, A. & Amatruda, C. Development diagnosis. New York : Hoeber, 1947.
- 22 — Ginsberg, H. Oppen, S. Piaget's theory of intellectual development (2nd ed.). Englewood cliff, N. J. Prentice-Hall, 1979.
- 23 — Good enough, F. B. Mental testing. New York : Rinehart, 1949.
- 24 — Goslin, D. A. (Ed.). Handbook of socialization theory & research. Chicago : Rand McNally, 1969.
- 25 — Havighurst, R. J. & Taba, W. Adolescent character & personality, N. Y. : Wiley, 1949.

- 26 — Hochberg, Julian E. Perception. Englewood Cliffs, N. J. Prentice-Hall, Inc. 1964
- 27 — Horrocks, J. E. The psychology of adolescence. Boston : Houghton Mifflin, 1951.
- 28 — Kellogg, W. N. & Kellogg, L.A. The ape and the child. New York : McGraw-Hill, 1933.
- 29 — Kennedy, W. A. Child psychology. Englewood Cliffs : N. J. Prentice-Hall, 1971.
- 30 — Kessen, William & Kuhlman, Clementina. Thought in the young Child. Chicago : The Un. of Chicago Press, 1970.
- 31 — Kolberg, L. Moral stage & moralization. In T. Lickona (Ed.) 1936, pp. 31 — 53.
- 32 — Kuhlman, R.C. The psychology of adolescent development. New York : Harper, 1952.
- 33 — Libert, R. M. et al. Developmental psychology. Englewood Cliffs, N. J. Prentice-Hall, 1974.
- 34 — Lickona, T. (Ed.). Moral behavior and development. New York : Holt, 1976.
- 35 — Lowenthal, et al. (Eds.) Four stages of life. San Francisco : Jossey-Bass, 1975.
- 36 — Maccoby, E. Social development, New York : Harcourt Brace Jovanovich, 1980.
- 37 — Meredith, N. V. Body size of contemporary groups of eight-years-old children studied in different parts of the world. Monographs of the Society for Research in Child development, 1969, 34(1).

- 38 — Munn, Norman L. The evolution and growth of human behavior. Boston : Houghton Mifflin Co., 1965.
- 39 — Mussen, Paul H. The Psychological development of the child. Englewood Cliffs, New Jersey : Prentice-Hall, Inc., 1963.
- 40 — Mussen, Paul H. (Ed.). Handbook of research methods in child development. Delhi : John Wiley & Sons, 1970.
- 41 — Muuss, R. E. Theories of adolescence (3rd Ed.): New York Random House, 1975.
- 42 — Osofsky, J. (Ed.). Handbook of infant development. New York : Wiley, 1979.
- 43 — Papalla, D. E. and Olds, S. W: A child's world : Infancy through adolescence. New York : McGraw-Hill Book Co. 1982.
- 44 — Piaget, Jean. Science of education and the psychology of the child. London : Longman group Limited, 1970.
- 45 — Sherrod K., et al. Infancy. Belmont, Calif : Brooks/Cole, 1978.
- 46 — Spencer, T. D. & Kass, N. (Eds.): Perspectives in child psychology : Research & Review. New York : McGraw-Hill, 1970.
- 47 — Spock, B. Baby and child care. New York : Pocket Books, 1976.
- 48 — Steveson, H. W. (ed.). Child psychology. University of Chicago Press, 1963.
- 49 — Stone, L. J. et al. The competent infant : Research and commentary. New York : Basic Books, 1973.
- 50 — Stolz, H. R. and Stolz, L. M. Somatic development of adolescent boys. New York : McMillan, 1951.

— 299 —

- 51 — Thomas, R. Comparing theories of child development, Belmont, Calif : Wadsworth, 1979.
- 52 — Watson, E. H. & Lowrey, G. H: Growth and development (5th ed.). Year Book, 1967.
- 53 — White, B. L. The first three years of life. Englewood Cliffs, N. J. Prentice-Hall, 1975.
- 54 — White, B. L., Kaban, B., and Attanuci, J. The origins of human competence. Lexington, Mass : D. C. Heath, 1979.

رقم الايداع ٨٥/١٥٨٥

الرقم الدولي ٩ - ١٨٠ / ١٠ - ٩٧٧

Dr. SAAD GALAL



CHILDHOOD & ADOLESCENCE

Dar Al Fikr Al Arabi